The Islamic University–Gaza

Research and Postgraduate Affairs

Faculty of ART

PhD of Arabic Language

الجامعـــــــة الإســـلاميـة – غـزة

شئون البحث العلمي والدراسات العليا

كـــــــلـــــــيـــــــة الآداب

دكتـــوراه اللغـــة الـعـربيـــة

دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس

Significance Of The Colors In The Poetry Of War And Disturbance In Andalus

إِعدَادُ البَاحِثِ

يحيى أحمد رمضان غبن

إِشرَافُ

الأستاذ الدكتور: نبيل خالد رباح أبو علي

قُدمَ هَذا البحثُ اِستِكمَالاً لِمُتَطلباتِ الحُصولِ عَلى دَرَجَةِ الدُّكْتُورَاه
فِي اللُّغةِ العَرَبيَّةِ بِكُليةِ الْآدَابِ فِي الْجَامِعَةِ الإِسلامِيةِ بِغَزة

يونيو/2017م – شوال/ 1438هـ

إقـــــرار

أنا الموقع أدناه مقدم الرسالة التي تحمل العنوان:

دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس

Significance Of The Colors In The Poetry Of War And Disturbance In Andalus

أقر بأن ما اشتملت عليه هذه الرسالة إنما هو نتاج جهدي الخاص، باستثناء ما تمت الإشارة إليه حيثما ورد، وأن هذه الرسالة ككل أو أي جزء منها لم يقدم من قبل الآخرين لنيل درجة أو لقب علمي أو بحثي لدى أي مؤسسة تعليمية أو بحثية أخرى.

Declaration

I understand the nature of plagiarism, and I am aware of the University's policy on this.

The work provided in this thesis, unless otherwise referenced, is the researcher's own work, and has not been submitted by others elsewhere for any other degree or qualification.

Student's name:	يحيى أحمد غبن	اسم الطالب:
Signature:		التوقيع:
Date:	2017/07/14	التاريخ:

بسم الله الرحمن الرحيم

الجامعة الإسلامية غزة
The Islamic University of Gaza

عمادة البحث العلمي والدراسات العليا هاتف داخلي 1150

الرقم: ج س غ/35/ Ref:

التاريخ: 2017/09/19م Date:

نتيجة الحكم على أطروحة دكتوراة

بناءً على موافقة عمادة البحث العلمي والدراسات العليا بالجامعة الإسلامية بغزة على تشكيل لجنة الحكم على أطروحة الباحث/ **يحيى أحمد رمضان غبن** لنيل درجة الدكتوراه في **كلية *الآداب*/ قسم اللغة العربية**، وموضوعها:

دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس

وبعد المناقشة العلنية التي تمت اليوم الثلاثاء 28 ذو الحجة 1438هـ، الموافق 2017/09/19م الساعة الحادية عشرة صباحاً في قاعة مؤتمرات مبنى طيبة، اجتمعت لجنة الحكم على الأطروحة والمكونة من:

أ.د. نبيل خالد أبو علي	مشرفاً و رئيساً	.....
أ.د. نعمان شعبان علوان	مناقشاً داخلياً	.....
أ.د. محمود محمد العامودي	مناقشاً داخلياً	.....
أ.د. عبد الجليل حسن صرصور	مناقشاً خارجياً	.....
أ.د. علي محمد عودة	مناقشاً خارجياً	.....

وبعد المداولة أوصت اللجنة بمنح الباحث درجة الدكتوراة في **كلية *الآداب*/**قسم **اللغة العربية**.

واللجنة إذ تمنحه هذه الدرجة فإنها توصيه بتقوى الله ولزوم طاعته وأن يسخر علمه في خدمة دينه ووطنه.

والله ولي التوفيق،،،

عميد البحث العلمي والدراسات العليا

أ.د. مازن اسماعيل هنية

الملخص

دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس

تخوض الدراسة غمار البحث النقدي من خلال النظرية النقدية السيميائية الحديثة ، مما ساعد في إظهار نتائج جديدة نظراً لاختلاف الأداة والمنهج عن الدراسات النقدية الوصفية السائدة.

حققت هذه الدراسة لتحقيق العديد من الأهداف ، مثل : استقراء حضور اللون في القصيدة الأندلسية ، ومحاولة التأصيل للدلالات اللونية التي استقى منها الشاعر الأندلسي معانيه ولوحاته ، وإبراز مواطن اللون وأبعاده في شعر الحروب والفتن في الأندلس .

وقد اعتمدت الدراسة على المنهج النقدي السيميائي حيث إنه أنسب المناهج لهذه الدراسة لما له من علاقة بالعنوان ، ولأن دراسة اللون أحد أدواته الفاعلة .

أهم نتائج الدراسة:

- تنوعت استعمالات اللون الواحد عند الشعراء الأندلسيين ، نظرا لاختلاف السياق التعبيري الذي ساهم اللون في توسيع معناه .
- تجلى اللون في تشكيل الصور الحسية في شعر الحروب والفتن الأندلسي، حيث كان له تأثير في تشكيل الصورة البلاغية المركبة والتجريدية .
- كان الحضور اللوني معبراً عن الفكرة الأندلسية مكانا وتأريخا زمانيا ، حيث أدى اللون دوره في الخطاب الشعري من خلال المطالع والمقاطع في القصيدة الأندلسية ، وقد استعان الشاعر الأندلسي باللون لرسم إيقاعية جميلة ، تتواءم بتراتبية عالية مع جوه النفسي الخاص .

أهم توصيات الدراسة:

- يوصي الباحث بإجراء الدراسات السيميائية المختلفة على الأدب الأندلسي باختلاف فروعه وأقسامه ، لما لها من أثر في إظهار جماليات الفنون الأندلسية المختلفة .

Abstract

This is a critical study that utilizes the modern semiotic critical theory to present new results compared to the traditional prevailing critical descriptive methods in this field.

The study sought to achieve several goals, such as the induction of color presence in the Andalusian poems, rooting color meanings from which the Andalusian poet derived meanings and images, highlighting color uses and dimensions in the poetry of wars and trials in Andalusia, in addition to determining color presence and rhythm the Andalusian poetry of wars and trials.

The study adopted the critical semiotic method, which is believed to be the most appropriate method to achieve the study aim and to investigate the questioned role of color as a main tool in this context.

Main results of the study:

- There is a variety of uses of the same color in the poetry of Andalusian poets. This is due to the different expressionist contexts in which this color is used to contribute to the expansion of the intended meaning.
- The color had a significant role in the formation of sensory images in the Andalusian poetry of wars and trials. It had a great impact in shaping the composite and abstract rhetorical image.
- Color presence used to express the Andalusian idea considering its place and time, where color played its role in the poetic discourse through the poetic openings and verses in the Andalusian poem. The Andalusian poet used the color to draw a beautiful rhythmic image that was perfectly consistent with his/her personal feelings.

Main recommendations of the study:

- The study recommends to conduct various semiotic studies on the Andalusian literature considering its different branches because of their effect in highlighting the aesthetics aspects of the various Andalusian arts.
- The study also recommends teaching the poetry of wars and trials in Andalusia in schools and universities, which allows students to learn about an important part of our nation's heritage and history.

آية قرآنية

قال تعالى :

﴿ وَعَلَّمَكَ مَا لَمْ تَكُنْ تَعْلَمُ وَكَانَ فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكَ عَظِيمًا ﴾

[النساء: 113]

وقال تعالى :

{أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَأَخْرَجْنَا بِهِ ثَمَرَاتٍ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهَا وَمِنَ الْجِبَالِ جُدَدٌ بِيضٌ وَحُمْرٌ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهَا وَغَرَابِيبُ سُودٌ (27) وَمِنَ النَّاسِ وَالدَّوَابِّ وَالْأَنْعَامِ مُخْتَلِفٌ أَلْوَانُهُ كَذَلِكَ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ}

[فاطر: 27، 28]

ٱلإِهدَاْء

إلى والدي العزيز: متعه الله بصحته ، وأمد في عمره ، الذي أدبني فأحسن تأديبي.

إلى والدتي الحنون: مهجة القلب، من نذرت عمرها لأداء رسالة صنعتها من أوراق الصبر ، وطرزتها في ظلام الدهر ، على سراج الأمل بلا فتور أو كلل.

إلى زوجتي ورفيقة دربي(أم البراء)تقديرا واحتراما.

إلى فلذات كبدي الأبناءالأحبة:(آيات ، البراء ، أحمد ، عبد الرحمن ، خولة ، محمد).

إلى أخي الوحيد(محمد) رفيق الدرب ، وتوأم الروح .

إلى أختي الغالية :(نور) صلة وحبا .

إلى أختي الشهيدتين :حبا لا يتبدل ، وصدقا لا يتغير، ووفاء لا تنضب معانيه .

إلى ناسي وأحبتي :من لا يطيب عيشي إلا بهم وبينهم.

إلى كل من يبادلني المودة بالمودة ..

أهدي هذا البحث .

الباحث .

يحيى أحمد رمضان غبن

شكرٌ وتقديرٌ

بعد شكري لربي وخالقي جل في علاه ، الذي أنعم علي بنعمه الكثيرة ، وآلائه الجسيمة ، أتقدم بخالص الشكر والتقدير والعرفان إلى أستاذي الكريم فضيلة الأستاذ الدكتور/ نبيل خالد رباح أبو علي " أستاذ الأدب والنقد في الجامعة الإسلامية المتميز ، ونائب رئيس مجمع اللغة العربية الفلسطيني " .

والذي لم يألُ جهدا في رعايتي وتوجيهي البناء لإنجاز هذه الرسالة، وقد أفدت منه كثيرا ، فجزاه الله عني خير الجزاء .

والشكر موصول إلى الأساتذة المناقشين : فضيلة الأستاذ الدكتور: محمود العامودي أستاذ النحو والصرف بالجامعة الإسلامية ، وفضيلة الأستاذ الدكتور: نعمان علوان أستاذ البلاغة بالجامعة الإسلامية ، وفضيلة الأستاذ الدكتور:عبد الجليل صرصور أستاذ الأدب والنقد رئيس جامعة غزة ، وفضيلة الأستاذ الدكتور: علي عودة أستاذ الأدب والنقد بجامعة القدس المفتوحة ، والذين تفضلوا بقبول مناقشة هذه الدراسة .

وشكري كذلك إلى الجامعة الإسلامية راعية هذا البرنامج ، والتي أتاحت لي فرصة إكمال مسيرتي التعليمية ، حيث سخرت جل إمكاناتها من أجل الارتقاء العلمي بطلبتها وأكاديمييها.

والشكر موصول إلى شيخي الحبيب أحمد حمودة (أبو حمزة) من قدم لي عونه ومساندته المادية والمعنوية منذ أن التحقت بهذا البرنامج ، وكان على اهتمام بي لحظة بلحظة.

ولا يفوتني أن أقدم شكري وتقديري إلى كل من أفادني من زملائي وأحبتي ، وقدم لي يد العون والمساعدة ، سائلا الله أن يوفقني وإياهم لكل خير .

والله ولي التوفيق ،،،

يحيى أحمد رمضان غبن

فهرس المحتويات

إقـــرار .....أ

الملخص .....ب

دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس.....ب

Abstract.....ت

آية قرآنية.....ث

ٱلإهدَاْء ..... ج

شكرٌ وتقديرٌ ..... ح

الفصل 3 فهرس المحتويات ..... خ

الفصل 4 مقدمة البحث 1

أهمية الدراسة :.....2

أهداف الدراسة :.....2

الدراسات السابقة. 3

التعقيب على الدراسات السابقة :.....5

منهج الدراسة : 6

خـطـــة الدراسة.....7

تمهيد.....10

السيمياء لغة:.....10

السيمياء اصطلاحًا: 11

اللون في اللغة : 13

اللون في الاصطلاح: 15

اللون في التراث العربي : 15

أولا: اللون عند البلاغيين 16

ثانيا: اللون عند فلاسفة العرب 17

ثالثا: اللون عند فقهاء المسلمين 17

أهمية اللون في الدراسة الأدبية : 18

تعبيرية اللون : 19

اللون في التراث الشعري عند العرب : 21
أولا: اللون الأسود 22
ثانيا: اللَّون الأبيض 25
ثالثا: اللون الأحمر 26
رابعا: اللون الأصفر 28
خامسا: اللون الأخضر 29
سادسا: اللون الأزرق. 29
الفصل الأول: 31
أغراض شعر الحروب والفتن في الأندلس 31
المبحث الأول : رثاء المدن الأندلسية. 32
المبحث الثاني : شعر الاستصراخ والاستغاثة 42
المبحث الثالث : تصوير الانتصارات في الشعر الأندلسي 51
المبحث الرابع : تصوير الهزائم في الشعر الأندلسي 61
المبحث الخامس : الهجاء السياسي في الأندلس. 70
الفصل الثاني 78
مواطن اللون في شعر الحروب والفتن.....78
في الأندلس 78
المبحث الأول : مواطن اللون الأبيض 80
أولا: اللون الأبيض في الإنسان 80
ثانيا: اللون الأبيض في الطبيعة 84
ثالثا: اللون الأبيض في الآلات 87
رابعا : اللون الأبيض في مواطن أخرى 89
المبحث الثاني : مواطن اللون الأسود 92
أولا : اللون الأسود في الإنسان 92
ثانيا : اللون الأسود في الطبيعة 94
ثالثا: اللون الأسود في الآلات 97
رابعا: اللون الأسود في الحيوان 99
خامسا : اللون الأسود في مواطن أخرى 99
المبحث الثالث : مواطن اللون الأحمر 103

أولا: اللون الأحمر في الإنسان 103
ثانيا: اللون الأحمر في الطبيعة 106
ثالثا: اللون الأحمر في الآلات 109
رابعا: اللون الأحمر في الحيوان 110
اللون الأحمر في مواطن أخرى : 111
المبحث الرابع : مواطن اللون الأخضر 113
أولا: اللون الأخضر في الإنسان 113
ثانيا: اللون الأخضر في الطبيعة 114
ثالثا: اللون الأخضر في الآلات 119
رابعا: اللون الأخضر في الحيوان 120
المبحث الخامس : مواطن اللون الأزرق 122
أولا : اللون الأزرق في الإنسان 122
ثانيا : اللون الأزرق في الطبيعة 124
ثالثا: اللون الأزرق في الأدوات 125
المبحث السادس : مواطن اللون الأصفر 128
أولا: اللون الأصفر في الإنسان 128
ثانيا : اللون الأصفر في الطبيعة 130
ثالثا: اللون الأصفر في الأدوات 132
رابعا: اللون الأصفر في الحيوان 133
الفصل الثالث :أبعاد اللون في شعر الحروب والفتن في الأندلس 135
المبحث الأول : البعد الديني. 137
أولا: الدلالة اللونية المشتركة 137
ثانياً: التناص الديني مع السياق اللوني :..... 142
المبحث الثاني : البعد الأسطوري. 149
أولاً: صور المقاتلين والأبطال 149
ثانياً: صور وسائل القتال وأساليبها 156
ثالثاً : صور الحرب وأوصافها الخاصة..... 159
المبحث الثالث: البعد السياسي 163
المبحث الرابع – البعد الاجتماعي 171
أولا: اللباس 171
ثانياً: الطبقات المجتمعية 173

ثالثا: الحضارة العمرانية 175
المبحث الخامس – البعد النفسي 182
الفصل الرابع :أثر اللون في تشكيل الصورة الفنية في شعر الحروب والفتن في الأندلس 192
المبحث الأول – الألوان في تشكيل الصورة البلاغية. 193
أولا : اللون والتشبيه 194
ثانيا: اللون والاستعارة 202
ثالثا: اللون والكناية 210
أولا: التضاد بين الأبيض والأسود 217
ثانيا: التضاد بين الأسود والألوان الأخرى 220
ثالثا: التضاد بين الأحمر والألوان الأخرى 220
رابعا: التضاد بين الأصفر والألوان الأخرى 222
المبحث الثاني : الصورة الشعرية (التجريدية) في شعر الحروب والفتن في الأندلس 224
أولا: اللون والتجسيد 226
ثانيا : اللون والتشخيص 231
ثالثا: اللون والحركة 236
الفصل الخامس: تجليات اللون في بناء القصيدة في شعر الحروب والفتن الأندلسي 241
المبحث الأول :الحضور اللوني في أقسام القصيدة 242
أولا: المطلع اللوني 242
ثانيا : المقطع اللوني 248
المبحث الثاني : حضور اللون في إيقاع اللون 256
أولا: إيقاع اللون والخطاب الشعري. 257
ثانيا: إيقاعية التكرار اللوني : 261
الخاتمة 268
المصادر والمراجع 272

مقدمة البحث

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على سيدنا محمد – ﷺ – وعلى آله وصحبه أجمعين أما بعد :

إن اختياري للأدب الاندلسي موضوعاً للدراسة ؛ ناتج عن علاقة وثيقة تربطني بهذا التراث العظيم ، الذي خلفه لنا أجدادنا ممن عاش في ربوع الأندلس ، هذا التراث الذي لم يترك علما من العلوم أو فنا من الفنون إلا وكانت له فيه إسهامات كبيرة جداً ، ساعدت في رقي المجتمع الأندلسي وجعلته أنموذجًا يحتذى به في كل الدول والممالك المجاورة .

ومن هنا لم أتردد في البحث عن عنوان للدراسة في الأدب الأندلسي ، وبعد بحث وتنقيب تبين لي أنه على الرغم من الدراسات الكثيرة التي تناولت الأدب الأندلسي إلا أنه لم يوف حقه من الدراسة ، حيث إن هناك الكثير من الزوايا المغلقة التي لا زالت بحاجة إلى التنقيب والدراسة بشكل أعمق ، حتى يتسنى للباحثين الاطلاع بشكل أكبر على تراث كبير خلفه لنا أجدادنا الأندلسيون ، ففي فهم هذا التراث إنارة للطريق أمامنا للوصول إلى سيادة الأمم وريادتاها من جديد .

ولقد عرضت على أستاذي الدكتور : نبيل خالد أبو علي العديد من هذه الزوايا المغلقة ، فأضاء لي الطريق لخوض غمار البحث في موضوع (الألوان ودلالاتها) ، فهو موضوع جديد حظي باهتمام كبيرٍ من قبل المفكرين والباحثين ، ومعروفٌ أن للألوان تأثيراتها المختلفة على مخيلة الشعراء ، وأفكارهم ؛ ما يحفز الباحث على الخوض في غمار البحث من خلالها كأداة .

ونظراً لسعة حجم الحقبة الزمانية ، وضخامة ما كتب الشعراء في بلاد الأندلس من فتحها إلى سقوطها آثر الباحث أن يدرس شعر الحروب والفتن في الأدب الأندلسي ، نظراً لكثرة الصراعات الدائرة بين الدول المتعاقبة على حكم الأندلس ، وكثرة التيارات الفكرية والسياسية التي سعت للوصول إلى سدة الحكم ، وتحقيق الغلبة على المخالفين، إضافة إلى أن هذا النوع من الأشعار له علاقة بالبيئة المحيطة بمكوناتها المختلفة ، لذا فقد استعان الشعراء بالألوان ووظفوها لتحقيق مدلولات مهمة تبين جوانب مختلفة في البيئة الأندلسية .

ومن هنا كانت هذه الدراسة والموسومة بـ:(**دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس**) .

أهمية الدراسة :

تكمن أهمية هذه الدراسة في أنها تجاوزت الدراسات الوصفية الكثيرة التي تناولت الشعر الأندلسي ، حيث تخوض غمار البحث عبر منهج مغاير يتناول دراسة الأدب من خلال النظرية النقدية الحديثة ، مما يساعد في إظهار نتائج جديدة نظراً لاختلاف الأداة والمنهج .

أهداف الدراسة :

سعت الدراسة لتحقيق العديد من الأهداف ، مثل : استقراء حضور اللون في القصيدة الأندلسية ، ومحاولة التأصيل للدلالات اللونية التي استقى منها الشاعر الأندلسي معانيه ولوحاته ، وإبراز مواطن اللون وأبعاده في شعر الحروب والفتن في الأندلس ، إضافة إلى تحديد الحضور اللوني وإيقاعية اللون في شعر الحروب والفتن في الأندلس .

ولتحقيق هذه الأهداف اقتضت طبيعة الدراسة أن يقسم الباحث دراسته إلى مقدمة وتمهيد وخمسة فصول :

تناولت المقدمة أسباب اختيار الموضوع وأهميته ومنهج الباحث والصعوبات التي قد تواجهه .

احتوى التمهيد على تعريف عام بالألوان من جوانب مختلفة في إطار نظري كـ: طبيعة اللون ، وأثره النفسي ، وعلاقته باللغة وبالشعر .

أما الفصول الخمسة فتفصيل محتوياتها كما يأتي :

الفصل الأول : فيشتمل على تعريف عام بشعر الحروب والفتن ضمن مبحثين رئيسين هما: عوامل ظهور هذا النوع من الشعر ، والأغراض الموضوعية التي خرج إليها هذا الشعر كـ: رثاء المدن ، والاستصراخ ، ووصف الانتصارات والهزائم ، والهجاء السياسي .

الفصل الثاني: يتحدث هذا الفصل عن:(مواطن اللون في شعر الحروب والفتن في الأندلس) ويعالج الألوان الأساسية التي وردت في الأشعار من خلال مكونات الحياة المحيطة (الإنسان ، والحيوان ، والطبيعة) .

الفصل الثالث: ويحمل الفصل عنوان: (أبعاد اللون في شعر الحروب والفتن في الأندلس) وفي هذا الفصل حديث حول الابعاد النفسية والاجتماعية والسياسية والدينية للتشكيل اللوني في الشعر موطن الدراسة .

الفصل الرابع: وهو موسوم بـ : (أثر اللون في تشكيل الصورة الفنية في شعر الحروب والفتن في الأندلس) ويدرس هذا الفصل أثر اللون في تشكيل الصورة البلاغية من خلال دراسة العلاقة بين اللون والتشبيه ، وبين اللون والاستعارة ، وبين اللون والكناية ، وبين اللون علاقات التضاد) .

كما يدرس هذا الفصل الصورة الشعرية التجريدية من خلال المستوى الدلالي الرمزي ومن خلال دلالة الصور المركبة الكلية .

الفصل الخامس : يقيس هذا الفصل الحضور اللوني من خلال دراسة بعض المطالع والمقاطع اللونية في الشعر موطن الدراسة .

كما يدرس إيقاعية اللون وحركية الصورة من خلال فهم توزيع الألوان المباشرة وغير المباشرة في القصيدة الأندلسية .

وفي الخاتمة يذكر الباحث أهم النتائج والتوصيات .

الدراسات السابقة.

من خلال اطلاع الباحث تبين أن هناك العديد من الدراسات التي تناولت شعر الحروب والفتن في الأندلس ، لكن اللافت للنظر أن هذه الدراسات غلب عليها الطابع الموضوعي ، والاقتصار على حقبة زمانية دون الأخرى ، والدراسات التي وقع عليها الباحث هي :

1- دراسة بعنوان : (**الصراعات وأثرها في الشعر الأندلسي في عهد الإمارة**) للباحث علي مزاتي ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة الحاج لخضر في باتنة بالجزائر ، عام 2009م ، وأبرز الباحث في هذه الرسالة ظاهرة الصراعات في الشعر الأندلسي في الحقبة المذكورة ، ووقف على جوانب مهمة في المضامين والأبنية اللغوية والفنية لشعر الصراعات .

2- دراسة بعنوان : (**شعر الحروب والفتن في الأندلس – عصر بني الأحمر**) ، للباحثة رانية أبو لبدة ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة النجاح الوطنية بنابلس، في عام 2007م ، وتحدثت فيها الباحثة حول شعر الحروب والفتن ، وعوامل ظهوره وسماته الفنية .

3- دراسة بعنوان : (**شعر الفتن والحروب الداخلية في الاندلس من الفتح إلى نهاية عصر الإمارة**) للأستاذ الدكتور رشدي علي حسن ، وهي عبارة عن بحث محكم نشرته حولية الآداب بجامعة الخرطوم ، وقد درس البحث شعر الفتن والحروب من الناحية الوصفية التاريخية من الفتح حتى عصر الإمارة .

أما الدراسات التي تحدثت حول ظاهرة الألوان ودلالاتها فكثيرة ، أغلبها أبحاث محكمة أو مقالات منشورة ، أما عن الرسائل العلمية التي اطلع عليها الباحث فهي :

1- دراسة بعنوان : (**دلالات الألوان في شعر الأعشى الكبير – ميمون بن قيس**) للباحث محمد جار الله الثقفي ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة اليرموك بالأردن عام 2013م ، وتحدث الباحث فيها حول دلالات الألوان الأساسية كالأبيض والأسود ، والثنائيات اللونية ، وقدم جدولاً إحصائيا للألفاظ الدالة على اللون .

2- دراسة بعنوان: (**دلالات الألوان في شعر الفتوح الإسلامية في عصر الخلفاء الراشدين**) للباحثة أماني البيك ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في الجامعة الإسلامية بغزة عام 2010 م ، وتحدثت حول اللون وعلاقاته بالصورة الحسية

والتجريدية ، كذلك دلالات الألوان المباشرة وغير المباشرة ، إضافة إلى دلالة اللون الموضوعية .

3- دراسة بعنوان : (**شعرية الألوان في النص الشعري الجزائري**) للباحثة صديقة معمر ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة منتوري في قسنطينة بالجزائر عام 2009م ، وتحدثت حول فلسفة اللون وأبعاده الدلالية وتجلياته في الخطاب الشعري الجزائري المعاصر .

4- دراسة بعنوان : (**الألوان في شعر بشار بن برد**) للباحثة جمعة الزهراني ، وهي أطروحة دكتوراه نوقشت في جامعة أم القرى بمكة المكرمةعام 2009م ، وتحدثت الباحثة فيها حول منابع الصورة اللونية عند بشار بن برد ، وظاهرة تراسل الحواس في الصور الكونية لشعر بشار بن برد.

5- دراسة بعنوان : (**اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي – شعراء المعلقات أنموذجًا**) للباحثة أمل أبو عون ، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة النجاح الوطنية بنابلس عام 2003م ، وتحدثت في الرسالة عن مواطن الألوان في الموروث الشعري الجاهلي ، ودلالاتها النفسية .

6- دراسة بعنوان(**اللون في الشعر الأندلسي**) للباحثة عبير الكوسا، وهي رسالة ماجستير نوقشت في جامعة دمشق عام 2007م ، وتحدثت الرسالة عن دلالات اللون في الشعر الأندلسي ، واتخذت من غرض المديح والرثاء والغزل مادة لدراستها التطبيقية.

التعقيب على الدراسات السابقة :

من خلال ما سبق تبين للباحث أن الدراسات السابقة لم تتناول موضوع الدراسة والمعنون بـ(**دلالات الالوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس**) ، بل تناولت دلالات الألوان في أغراض مغايرة إضافة إلى عدم تناولها لشعر الحروب والفتن بالدراسة الموضوعية على اختلاف الحقب الزمنية التي مرت بها الأندلس .

وهذه الدراسة تختلف عن الدراسات السابقة كونها تأخذ من المنهج السيميائي أداة للدراسة، حيث تتخذ من اللون علامة مهمة للولوج في التحليل الأدبي ، وبيان جماليات النص ، وبهذا تختلف في منهجها وطريقتها البحثية عن الدراسات السابقة .

منهج الدراسة :

يرى الباحث أن المنهج النقدي السيميائي هو أنسب المناهج للدراسة لما له من علاقة بالعنوان ، ولأن دراسة اللون أحد أدواته الفاعلة .

خـطـة الدراسة

المقدمة وفيها: أسباب اختيار الموضوع وأهميته ، وخطة البحث ، ومنهج الباحث .

التمهيد :

أولاً: اللون لغة واصطلاحاً .

ثانياً: أهمية اللون في الدراسات النقدية.

ثالثاً: اللون في التراث الشعري عند العرب .

رابعاً: شعرية اللون وتعبيريته .

الفصل الأول : شعر الحروب والفتن في الأندلس

- المبحث الأول : رثاء المدن الضائعة.
- المبحث الثاني :الاستصراخ والدعوة إلى الجهاد.
- المبحث الثالث: وصف الانتصارات عند المسلمين.
- المبحث الرابع: وصف الهزائم التي حَّلت بالمسلمين.
- المبحث الخامس: الهجاء السياسي (النقد السياسي).

الفصل الثاني : مواطن اللون في شعر الحروب والفتن في الأندلس .

- المبحث الأول: مواطن اللون الأبيض .
- المبحث الثاني : مواطن اللون الأسود .
- المبحث الثالث: مواطن اللون الأحمر .
- المبحث الرابع: مواطن اللون الأخضر .
- المبحث الخامس : مواطن اللون الأزرق .
- المبحث السادس: مواطن اللون الأصفر .

الفصل الثالث : أبعاد اللون في شعر الحروب والفتن في الأندلس .

- المبحث الأول :البعد الديني.
- المبحث الثاني: البعد الأسطوري.
- المبحث الثالث:. البعد السياسي.
- المبحث الرابع: البعد الاجتماعي .
- المبحث الخامس : البعد النفسي.

الفصل الرابع : أثر اللون في تشكيل الصورة الفنية في شعر الحروب والفتن الأندلسي

- المبحث الأول: أثر اللون في تشكيل الصورة البلاغية .
  - اللون والتشبيه.
  - اللون والكناية .
  - اللون والاستعارة .
  - اللون وعلاقات التضاد .
- المبحث الثاني: أثر اللون في تشكيل الصورة الشعرية .
  - اللون والتشخيص.
  - اللون والتجسيم.
  - اللون والحركة .

الفصل الخامس : تجليات اللون في بناء القصيدة في شعر الحروب والفتن في الأندلس

- المبحث الأول : حضور اللون في أقسام القصيدة في شعر الحروب والفتن في الأندلس .
  - المطلع اللوني
  - المقطع اللوني

- المبحث الثاني: الإيقاع اللوني في قصيدة الحروب والفتن في الأندلس .
  - إيقاعية اللون المباشر وغير المباشر.
  - التكرار اللوني .

الخاتمة وفيها أهم النتائج والتوصيات .

تمهيد

تعد هذه الدراسة من الدراسات المعتمدة على المنهج السيميائي حيث اعتمدت على اللون باعتباره أحد أهم العلامات المشكلة للنص الشعري ، وبواسطته يستطيع الناقد أن يستجلي النص الشعري ويحيط به من جوانبه المختلفة وفيما يلي حديث مقتضب حول هذا المنهج.

السيمياء لغة

جاء في لسان العرب أن معنى السيمياء هو العلامة " السومة ، والسمة ، والسيماء ، والسيمياء: العلامة" [1] ، والأصل في هذه الكلمات هو وسمي حيث حولت الواو إلى موضع العين من موضع الفاء ، فصارت سومى ، ثم قلبت الواو ياء لسكونها وانكسار ما قبلها سيمي ، ومنها استعملت سيما وسيماء وسيمياء [2] .

أو هي مشتقة من " الفعل سام الذي هو مقلوب وسم ، وأصلها وسمى، أصلها عقلي، وهيفي صورة فعلى ، يدل على ذلك قولهم: سمة، فإن أصلها وسمة ، ويقولون سيمى بالقصر، وسيماء بالمد ، وسيمياء بزيادة الياء وبالمد، ويقولون سوم إذا جعل سمة ،وكأنهم إنما قلبوا حروف الكلمة لقصد التوصل إلى تخفيف هذه الأوزان،... وقيل الخيل المسومة هي التي عليها السيمة والسومة ، وهي العلامة "[3] .

عد بعض الباحثين في علوم اللغة أن لفظة (السيمياء) عبارة عن جذر لغوي مشترك بين معظم اللغات السامية ، حيث إن أصوات هذا الجذر متقاربة إلى حد كبير في اللغات السامية وكذلك مكوناته الدلالية[4].

---

[1] ابن منظور، لسان العرب (ج3/ 2158).

[2] المرجع نفسه (ج3/ 2158).

[3] دفة، علم السيمياء والعنوان في النص الأدبي ، (ص 33).

[4] ينظر: المرجع نفسه ،(ص 36).

كما وردت هذه اللفظة واشتقاقاتها في القرآن الكريم بمعنى العلامة حيث يقول تعالى: {وَلَوْ نَشَاءُ لَأَرَيْنَاكَهُمْ فَلَعَرَفْتَهُمْ بِسِيمَاهُمْ وَلَتَعْرِفَنَّهُمْ فِي لَحْنِ الْقَوْلِ }[1]، ويقول سبحانه: {يُعْرَفُ الْمُجْرِمُونَ بِسِيمَاهُمْ فَيُؤْخَذُ بِالنَّوَاصِي وَالْأَقْدَامِ }[2].

ومن خلال الآيات القرآنية السابقة يظهر جليا أن المعنى العام للمفردة القرآنية (سيماهم)هو: العلامة ، سواء اتصلت هذه المفردة بالوجه أم بالهيئة أم بالأفعال والأخلاق .

ومن أمثلة ورودها في الشعر قول النابغة الجعدي:

ولهم سيما إذ تبصرهم بينت ريبة من كان سأل[3] .

السيمياء اصطلاحًا

اصطلح نقاد هذا العصر على تسمية المنهج الخاص بدراسة العلامات ودلالتها بالمنهج السيميائي ، غير أنهم اختلفوا في معناه الدقيق فمنهم من أرجعه إلى أصوله اللغوية التي تم الحديث عنها فقالوا أن أصلها عربي محض ، ومنهم من اختاره من طريق الترجمة ، وهؤلاء انقسموا إلى قسمين أحدهما يطلق عليه لفظة السيموطيقا والآخر يطلق عليه لفظة السيمولوجيا ، وقد عزي هذا إلى اختلاف ثقافات المترجمين ولغاتهم ، لكن المدقق في هاتين اللفظتين يجد أن بينهما فروق في أصلهما قبل الترجمة ، غير أن النقاد العرب في دراساتهم لا يفرقون بينهما(4).

وهناك من النقاد من حاول أن يعرب هذه الترجمة بإطلاق بعض المسميات كنحو قولهم: علم العلامات ، أو علم الأدلة ، أو الرموزية ، أو الدلائية [5].

---

[1] محمد: 30.

[2] الرحمن: 41.

[3] ابن منظور: لسان العرب (ج3 /2158).

[4] ينظر: المرابط ، السيمياء العامة وسيمياء الأدب ،(ص 18).

[5] ينظر: بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها،(ص 31).

أما عن تعريف السيميائية فيذهب بير جيرد إلى أنها "علم يدرس أنساق الإشارات، لغات أنماط إشارات مرور إلى آخره ، وهذا التعريف يجعل اللغة جزءا من العلامة"[1] ، ويعرفها بنكراد بأنها دراسة حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية دراسة شاملة غير مكتفية بمجرد تسمية المناطق أو التعبير عن مكنونات المتن [2] .

ومن خلال التعريفين السابقين يمكن القول بأن السيمياء علم يعني بدراسة العلامات بأنواعها وأشكالها المختلفة في النص الأدبي بغية الغوص في مكنوناته والتعمق في دراساته بالاستعانة بمناهج النقد الأخرى لالتقائها مع هذا المنهج في دوائر متعددة .

---

[1] دفة، علم السمياء والعنوان في النص الأدبي (ص 34).

[2]ينظر: بنكراد، السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها،(ص 31) .

اللون في اللغة

تعددت الألوان في الطبيعة واختلفت وتقاربت فلذا كانت مسمياتها في اللغة متنوعة ، فنجد عشرات الأسماء للتعبير عن اللون الواحد ، وهي تختلف باختلاف درجات اللون ، وهو ما عرف قديما باسم إشباع اللون أو تأكيده [1].

وقد عرفه ابن سيده في المخصص :" لون كل شيء ما فصل بينه وبين غيره ، والجمع ألوان ، وقد تلون ولونته" [2]؛ لذا يدل اللون في اللغة على تغير الهيئة والصورة ، والتلون يعني تغير الصورة من شكل إلى آخر ، ومن حال إلى أخرى .

وعرفه ابن منظور في لسان العرب بـ" النوع ، ومنها التغيير وعدم الثبات على حال واحد ، فعندما نقول فلان متلون أي لا يثبت على خلق واحد " [3].

وورد في الصحاح أن اللون :" هيئة كالسواد والحمرة ، ولونته فتلون ، واللون : النوع ، وفلان متلون ، إذا كان لا يثبت على خلق واحد ، ولون البسر تلوينا ، إذا بدا فيه أثر النضج . واللون الدقل ، وهو ضرب من النخل [4].

وفي مقاييس اللغة كلمة واحدة في باب اللام والواو والنون وهي: " لون الشيء كالحمرة والسواد "[5].

وألفاظ الألوان في اللغة العربية كثيرة بحيث نجد عشرات الأسماء للتعبير عن اللون الواحد وهي تختلف باختلاف الدرجة ، وهو ما عرف في المصادر القديمة باسم إشباع اللون أو تأكيده [6].

---

[1] خليفة ، الألوان في معجم اللغة العربية (ص 36-37) .
[2] ابن سيده ، المخصص ، (ص 103).
[3] ابن منظور ، معجم لسان العرب (ج393/13).
[4] الرازي ، مختار الصحاح (ج287/1).
[5] ابن فارس ، مقاييس اللغة (ج223/5).
[6] خليفة : الألوان في معجم العربية (ص 36-37).

وفي تفسير ابن عاشور " الألوان جمع لون ، وهو عرض أي كيفية تعرض لسطوح الأجسام بكيفية النور كيفيات مختلفة على اختلاف ما يحصل عند انعكاسها إلى عدسات الأعين من شبه الظلمة وهو لون السواد ، وشبه الصبح ، وهو لون البياض ، فهما الأصلان للألوان " [1]، وذهب أبو عبيدة إلى أن اللون هو " النقبة ، والبوص ، والنجر "[2] .

لقد كان للبيئة العربية دور في اشتقاق أسماء الألوان ، حيث استوحاها العرب من خلال البيئة التي حولهم فقالوا ثوب متبن لما كان يشبه لون التبن ، وقالوا مورد لما صبغ على لون الورد ، وقالوا فاحم لشديد السواد وهو مشتق من الفحم ، وقالوا أملح لما اشتق من الملح ، وقالوا أطحل من طحال الإنسان ، وقالوا مفدم وهو المشبع بالحمرة وهذا مشتق من القدم ، وقالوا أدخن من الدخان وهو لون يجمع بين الغبرة والحمرة الخفيفة إلى بياض ، وقالوا أصدأ ، وهو مشتق من الصدأ وهو لون أسود مشرب بحمرة ، ومن القمر قالوا أقمر أبيض ... [3]

ومن هنا عنت العرب باللون من جانب اللغة أمرين: أحدهما النوع أو ما قابله من النقبة والبوص والنحر والجرم ... إلخ ، وثانيهما ما يتعلق بالتدرج ما بين الإضاءة والنور فاعتبروا أصل كل الألوان الأبيض والأسود وتدرجاتهما .

وقد جاء في القرآن الكريم ما يؤيد ما ذهب الباحث إليه حيث وردت لفظة لون بالمعنيين حيث يقول تعالى: {فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ }[4] فاللون في الآية يعني الصفة التي تقوم بالجسد من السواد والبياض ، ويقول تعالى دلالة على المعنى الثاني وهو النوع {وَمَا ذَرَأَ لَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ} [النحل: 13] أي : أصنافه ، قال الراغب : " الألوان يعبر بها عن الأصناف والأنواع ، يقال فلان يأتي بألوان الحديث والطعام " [5].

---

[1] ابن عاشور ، التحرير والتنوير (ص 155) .

[2] ابن منظور ، لسان العرب (ج31/7)

[3] ينظر : أحمد مختار عمر ، اللغة واللون(ص 82-86).

[4] [البقرة: 69]

[5] الراغب الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن (ص 752).

اللون في الاصطلاح

يعد اللون خاصية ضوئية تعتمد على طول الموجة ، ويتوقف اللون الظاهري لجسم ما على طول موجة الضوء الذي يعكسه [1] .

واللون في الحقيقة هو طاقة مشعة لها طول موجي ، يختلف في تردده وتذبذبه من لون إلى آخر ، وتقوم المستقبلات الضوئية في الشبكية باستقبالها ، وترجمتها إلى ألوان [2].

اللون في التراث العربي :

كان العربي في العصر الجاهلي يلمس أدق الفروق في ألوان بيئته المحيطة ، ويعبر عنها في أدق المسميات [3].

وقد احتوى كتاب الثعالبي (فقه اللغة) على فصلين تحدث في الأول منهما عن ألفاظ الألوان ومفرداتها الموظفة في لون البياض والسواد والحمرة في الإنسان والحيوان ، وفي الثاني تحدث عن ألوان الثياب ، لكن بشيء من الاختصار والإيجاز [4] .

وقد بين لنا عبد الحميد إبراهيم في كتابه قاموس الألوان عند العرب ذلك الثراء اللفظي الذي عرفه العرب في مجال اللون ، ووضعنا بقاموسه في قلب الجزيرة العربية وقد أثبت في قاموسه أن تصور العرب للألوان يختلف كثيرا عما هو شائع لدى المعاصرين فربما دلت الصفرة والخضرة على السواد ، وذلك من خلال طرحه لسياقات تعبيرية مختلفة ومتباينة ، كما أثبت في قاموسه أن العرب لم تقتصر تعابيرهم الدلالية على ألفاظ الألوان في ضوء عدد محدود لا يتجاوز عدد أصابع اليد الواحدة بل تجاوزت ألفاظهم ذلك لتشمل الألفاظ الدالة على الألوان ما يزيد على أربعمائة وتسعة وثمانين لونا من الألوان الشائعة ، وهذا في مجمله يثبت تلك النظرة

---

[1] ينظر: غربال وآخرون ، الموسوعة العربية الميسرة ،(ج 1581/2) .

[2] ينظر: المرازقة، اللون ودلالته في القرآن الكريم (ص 11).

[3] ينظر: شفيق جبري، لغة الألوان (ص200).

[4] ينظر: الثعالبي ، فقه اللغة (ص 121-129) .

الثاقبة للعربي القديم حول اللون ما يعكس ثراء هذه اللغة وتنبه العرب لدرجات اللون الواحد من ناحية أخرى[1].

وقد خلص عبد الحميد إبراهيم إلى قوله" ولذلك فإن اللغة العربية عرفت الألوان واهتمت بها أي اهتمام ... فدلالات الألوان في لغتنا العربية القديمة سايرت حياة العرب في بيئاتهم المختلفة ، وما تطلبته حضارتهم الطويلة ، وهنا لا يتسع المقام لذكر إسهامات العرب في تطور استخدامهم ومعرفتهم باللون " [2]

أولا: اللون عند البلاغيين

رأى الجاحظ أن الشعر ضرب من النسج وجنس من التصوير [3]، ويرى ابن طباطبا العلوي أن الشاعر الحاذق كالنساج الحاذق الذي يفوف وشيه بأحسن التفويف ويسديه وينيره ، كالنقاش الرقيق الذي يصنع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه ، ويشبع كل صبغ منها حتى يتضاعف حسنه في العيان [4] .

ويقول الجاحظ : " وزعموا أن اللون في الحقيقة إنما هو البياض والسواد ، ، وحكموا في المقالة الأولى بالقوة للسواد على البياض ، إذا كانت الألوان كلها كلما اشتدت قربت من السواد ، وبعدت عن البياض فلا تزال كذلك إلى أن تصير سواداً "[5].

وفي ذات المعنى حكى ابن سنان الخفاجي أن تآلف حروف الكلمة في السمع كتآلف الألوان في مجرى النظر [6].

أشار الجرجاني إلى أن دلالة اللون تنحو منحى نفسيا ، إذ هي ليست مقصودة لذاتها في كلمة الليل التي شبه بها النابغة الذبياني ممدوحه النعمان بن المنذر في قوله :

---

[1] ينظر : عبد الحميد إبراهيم ، قاموس الألوان عند العرب(ص12).

[2] المرجع السابق ، ص 9.

[3] ينظر: الجاحظ : الحيوان (ج1320/3) .

[4] ينظر: ابن طباطبا : عيار الشعر (ص 5-6).

[5] الجاحظ : الحيوان (ج56/5-62).

[6] ينظر: الخفاجي ، سر الفصاحة (ص 64).

فإنك كالليل الذي هو مدركي وإن خلت أن المنتأى عنك واسع [1]

ومعنى البيت أن الممدوح قادر على الوصول إلى كل مكان ، واختار الليل لأنه تغشى في نفسه التخوف منه ، ولم يشبهه بالنهار الذي يصل إلى كل مكان يصله الليل ، يقول الجرجاني : " اختصاصه الليل دليل على أنه روى في نفسه ، فلما علم إدراكه – وقد هرب منه – حالة سخط رأي التمثيل بالليل أولى " [2].

ثانيا: اللون عند فلاسفة العرب

دلالة الألوان عند الفلاسفة المسلمين تتيح للنص جملة من الايحاءات والرموز ، إذ تتعدى دلالة الألوان نطاقها الوضعي المطابقة إلى ما هو أعم ، حيث تتسع دائرة إيحاء اللون للتفسير والتأويل ، بتضمنها معان ورؤى أعم من المعنى الوضعي [3]، حيث يرى الكندي أن الحس لا يدرك الصورة إلا وهي في طينتها [4].

وقد قسم الفارابي أنواع المحسوسات إلى ظاهرة وباطنة ، فالظاهرة هي التي تدرك المحسوسات الخمسة المعروفة ، ومن القوة الباهرة تحس الألوان والأشكال والأجسام [5].

ثالثا: اللون عند فقهاء المسلمين

يرى ابن حزم الأندلسي في طوق الحمامة أن " اللون تعدى الحس الخارجي ، ليتصل بأجزاء النفوس النائية ، فقد يبالغ بقوله أن المرأة البيضاء لزوج أبيض ترزق بولد أسود ؛ إذا دامت في مضجعها تطالع اللون الأسود ، بمعنى أن أثر اللون النفسي ، يتجاوز سطح الحس إلى باطن الإدراك ، ويتصور للون بريقا وجاذبية ؛ تجذب مهما تحول النظر من خلف أو من أمام يقول ابن حزم :

مَن كنَت قدَّامَه لا ينْثنِي أبَداً فَهمْ إلى نُورِكَ الصَّعَّاد يغْشُونَا

---

[1] ابن قتيبة ، الشعر والشعراء (ص 84) .

[2] الجرجاني ، أسرار البلاغة (ص 225).

[3] ينظر: يوسف نوفل ، الصورة الشعرية (ص 7) .

[4] ينظر: الكندي ،رسالة في حدود الأشياء ضمن رسائل الكندي الفلسفية (ج167/1).

[5] ينظر: الفارابي ،الثمرة المرضية (ص 72–73).

ومَنْ تكنْ خلفَهُ فالنَّفسُ تصْرفُه إليْكَ طوعاً فهُمْ دَأَباً يَكرُّونَا [1].

ولإيمانه بالنظرة الباطنية ، يستحسن من النساء البيضاء وينسبها إلى النور ، ويكره السوداء التي ينسبها إلى جهنم يقول :

يَعيبُونَهَا عِندِي بِشُقرَةِ شَعْرِهَا فقلتُ لهُمْ : هذَا الّذي زَانَهَا عِنْدِي
يَعيبُون لونَ النُّور ، والتِّبر ضلَّة لرأيٍ جَهُولٍ ، في الغِوايَةِ ممتَدِّ
وأبعَدُ خَلقِ اللهِ مِن كُلِّ حِكْمةٍ ، مفَضِّل جرمٍ ، فاحِمَ اللَّونِ مسْوَدِّ
بهِ وُصفَت أَلْوَانُ أهلِ جَهَنَّم ولَبسة بَاكٍ مثْكَل الأَهْلِ ممتَدِّ
ومُذ لاحَت الرَّاياتُ سوداً تيَقَّنَت نفوسُ الوَرَى أنْ لا سَبَيلَ إِلَى الرّشْدِ" [2].

حيث تحول اللون الأبيض والذي كان يدل على الدولة الأموية إلى لون أسود دلالة على الدولة العباسية ، حيث يظهر ما يجد في نفسه من الغيظ نتيجة هذا التحول .

أهمية اللون في الدراسة الأدبية

يعطي اللون النص الشعري أبعادًا جمالية ، وقيما فنية عالية فاللون " يمنح الحياة والوجود قيمة لا يمكن إغفالها ، فهل نتخيل أنفسنا نرى لونا واحدا ؟ هل نشعر بلذة الجمال لو اختفت الألوان من الأرض ، وأصبحت ترى بلا ألوان ؟ عالما مخيفا يبدو لك كالصحراء الممتدة أطرافها بلا ماء أو شجر أو ظل أو نهاية ؟ إن هذا التخيل يدفع النفس إلى النفور والملل، فلا حياة بلا لون "[3] .

وتكمن أهمية اللون في إثارة العاطفة وتهدئة النفس ، إذ إن اللون " يوقظ الأحاسيس وينمي الشعور ، ويبهر النظر ، وهو إما أن يكون مثيرا للعاطفة أو مهدئا للنفس ، ويظهر ذلك من خلال ما نفضل من ألوان عندما نقوم بتزيين مسكن أو اختيار ملبس " [4].

والاهتمام باللون قديم قدم الإنسان وظهر ذلك في اختياره للألوان ، وفي العمل الإبداعي انعكس هذا الاهتمام من خلال النحت والرسم والتصوير وفي جانب القصيدة الشعرية جعل المبدع

---

[1] ابن حزم ، طوق الحمام في الألفة والألاف (ص 23).
[2] المرجع السابق، ص 24 .
[3] الزواهرة ، اللون ودلالاته في الشعر – الشعر الأردني نموذجا (ص 13) .
[4] طالو ، اللون علما وعملا (ص 5).

القديم للألوان دورا مهما من حيث بنائها وانسجامها ، وعلى ذات النهج اهتمت القصيدة الحديثة باللون حيث صار اللون " لغة رمزية ولم يقف عند حدود الدلالات البسيطة بل تجاوزها إلى لغة الإشارة اللونية ، وقد قصد اللون فيها ، ووظف على نحو جعل ازدحاما وكثرة حتى في القصيدة الواحدة وإلى التوسع في توظيف اللون وقلبه "[1].

واللون في رأي بعض النقاد " مظهر من مظاهر الحياة الجمالية المعنوية والحسية التي لها أثرها في مشاعر الإنسان وحياته النفسية ، وإحساسه باللذة في الحياة حيث ينعش فيها العاطفة ، ويوقظ المشاعر ويثير الخيال " [2]، فهو في عرف نقاد الأدب " سر من الأسرار ووسيلة للتعبير والفهم ، وإن كان عرضا لا يقوم بذاته ، ولا بدله من مكان وزمان وشيء ، فإنه من أسرار الوجود ... وهو قوة موحية جذابة تؤثر في جهازنا العصبي وللنفس فرحة لا يستهان بها عند النظر إليه " [3]، "فاللون قوة موحية جذابة تؤثر في جهازنا العصبي " [4].

كما يحمل اللون دلالات متعددة مهمة تكتسب من خلال السياق الفني التي وردت فيه ، ومن هذه الدلالات ما يتعلق بالفكر أو السياسة أو الدين .

تعبيرية اللون

من المعلوم الدور البارز للون في إبراز خبايا النفس البشرية ، فله صلة وطيدة تربطه بالحالة النفسية للكاتب والمتلقي على حد سواء ، ولأن اللون يعد وسيلة للتعبير عن العاطفة الإنسانية فإن كل لون يحمل دلالة ورمزية تكشف عن خبايا النفس ، وقد يحمل اللون الواحد أكثر من ركيزة ، فدلالات اللون الواحد قد تكون متعارضة فمثلا اللون الأحمر قد يحمل دلالة الحب ، وقد يحمل دلالة الموت ، أو الملل أو الحزن ، وتختلف هذه المعاني باختلاف البيئة النفسية والسياق الذي يذكر فيه اللون؛ فاللون " يحمل قدرا كبيرا من العناصر الجمالية ،

---

[1] الزواهرة ، اللون ودلالاته في الشعر (ص 18-19) .

[2] ويس ، الصورة اللونية في الشعر الأندلسي (ص 12) .

[3] الزواهرة ، اللون ودلالاته في الشعر (ص 14) .

[4] حمدان ، الضوء واللون في القرآن الكريم (ص 29).

وإضاءات دالة تعطي أبعادا فنية في العمل الأدبي "[1] ، ومن هنا أضحت دقة التعبير عن تداخل الألوان الأصلية ، "وتمازجها ، وما ينشأ من تموجات دقيقة في مدلولاتها وطبيعة وجودها هو ما يميز النص الجيد " [2] .

فاللغات الإنسانية تستخدم " ألفاظ الألوان استخدامات مجازية ، قد يشيع بعضها ويجري مجري الأمثال ، كما أنها عن طريق المعاني الرمزية والإيحائية للألوان ، تستعمل ألفاظها في تعبيرات لغوية لا يفهم معناها بمجرد مفرداتها ، فتصبح تركيبا موحدا ذا معنى خاص " [3] .

فالكاتب المبدع هو الذي يتفنن في زركشة نصه باللون كأنه يلهو به معبرا عن مكنوناته الداخلية، وتجربته الخاصة ، يقول ابن طباطبا العلوي " النقاش الحاذق هو الذي يصنع الأصباغ في أحسن تقاسيم نقشه ، ويشبع كل صبغة منها حتى يتضاعف حسنه للعيان " [4].

لقد امتزج اللون بلغة الإنسان اليومية ، فعمل على استغلال طبيعة الألوان ، ووظفها في حياته العملية لذا " فهو كثير الاهتمام بملاحظة الألوان ، وتحليل تلك التي تحيط به ، ويجد لها في نفسه وقعا واستجابة لتأثيرها النفسي " [5].

لذا وجب على الكاتب أن يقوم بمراعاة هذا الشرط واستخدام اللون بطريقة تخدم النص ، وتزيده جمالا ، ودقة في التعبير، لا بد أن يحاول الكاتب المبدع أن يمزج بين الدلالة اللونية والأبعاد الأخرى المحيطة به والتي تشكل رمزية مهمة تدلنا على وظيفة النص وفكرته .

---

[1] الزواهرة ، اللون ودلالاته في الشعر (ص 77) .

[2] الصفار ، جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم (ص 67).

[3] عمر ، اللغة واللون (ص 69).

[4] ويس ، الصورة اللونية في الشعر الأندلسي(ص 15).

[5] بن حويلي ، الفيض الفني في سيميائية الألوان عند نزار قباني (ص113) .

اللون في التراث الشعري عند العرب

دلالة الألوان في العربية عميقة الجذور ، تواكبها في بيئاتها المختلفة عبر التاريخ الطويل لها ، وعلى الرغم من افتقار الصحراء للألوان ، إلا أن نصوص الشعر كانت مليئة بالدلالات اللونية ، وقد أقدم الكثير من الدارسين على معالجة هذه الظاهرة والتصدي لها .

لقد كان للألوان مفاهيم خاصة عند العرب الأوائل حيث ربطوا بينها وبين كل من الدين والخرافة والعادات والتقاليد [1] ، حيث شكل اللون حيزا كبيرا في تكوين الصورة التي طغت على وسائل الإعلام المختلفة في عصرنا الحالي كشاشات التلفزيون والحواسيب ، والمجلات ، والجرائد ، والمسرح ، والسينما ، والرسوم المختلفة والهواتف النقالة .

وقد تعددت صيغ الألوان في الاستعمال العربي القديم سواء أكان التعبير بالصيغة أو بالفعل ، ولم يكن تعداد الصيغ أمرا جزافيا أو اعتباطيا ، وإنما كان يهدف إلى تحقيق الدقة في التعبير ، وإضافة معنى جديد على مجرد اللون ، مثل تجدد اللون أو ثباته ، أو لمح معنى التشبيه فيه أو المبالغة ... او غير ذلك "[2]، حيث شكل اللون للعرب القدامى المكون المحوري للعالم البصري " [3].

ويفهم مما سبق أن الرؤية الحسية للألوان كانت مصدر إلهام العرب الأوائل ، حيث عايشوا اللون بطبيعتهم الصحراوية ، فوظفوا في أشعارهم ما يدل على ألفاظ الألوان إما بالأفعال أو صياغات مختلفة بأساليب بلاغية راقية .

ولعل من الجيد أن نتعرض لدلالة الألوان عند الشعراء القدماء ، لتمثل هذه الدلالات نقطة البداية في الكشف عن أصول الدلالة اللونية لكل لون من الألوان بشكل محدد ، حيث ستدرس هذه الألوان بشكل مفصل في فصل خاص بهذه الرسالة .

---

[1] ينظر: عمر ، اللغة واللون (ص 161-164).

[2] المرجع نفسه، (ص 59) .

[3] جكيب : إشكاليات مقاربة النص الموازي وتعدد قراءته – عتبة العنوان نموذجا (ص 577).

أولا: اللون الأسود

الألفاظ العربية الدالة على اللون الأسود بشكل عام تتعلق بالنظرة السلبية القائمة على كونه ضد الجمال ، حيث يلمح الباحث أن النظرة إليه نظرة تشاؤمية ، وصف به العرب كل شيء سيء .

وقد ظهرت دلالة اللون الأسود في القرآن الكريم في مواطن متعددة من ذلك قوله تعالى : **{يوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ}**[1]

ففي الآية السابقة إشارة إلى العاقبة السيئة للمكذبين بدين الله سبحانه وتعالى البعيدين عن منهجه الذي شرعه ، وقد عبر عن العقوبة والخذلان باللون الأسود .

أما في الشعر فإن الشاعر العربي لم ينزع نفسه عن هذا المعني فصورة الأثافي في سوادها ، وصورة الغراب الأسحم لم تبتعد عن جو الغربة والارتحال ، حيث كان هذا الجو مصدر الأرق والتعب .

هذا وقد كانت قبيلة عك تقدم غلامين من غلمانها السود في مقدمة الركب ليتحملا عنها الشرور المحيطة بها في الطريق فكما يري ابن السائب الكلبي " كانت قبيلة عك إذا خرجوا حجاجا ، قدموا أمامهم غلامين أسودين من غلمانهم ، فكانا أمام ركبهم فيقولان نحن غرابا عك " [2] ، وكانت العرب تقول هذا يوم أسود " كناية عن التشاؤم به وتوقع الشر"[3] .

وكانت دلالة الثياب السود دلالة موت وحزن ، يقول أبو تمام :

سُودُ الثِّيَابِ كَأَنَّمَا نَسَجَت لَهُمْ أَيْدي السَّمومِ مدَارِعَاً مِن قَارِ [4] .

---

[1] [آل عمران: 106]

[2] ابن السائب الكلبي ، كتاب الأصنام (ص 23).

[3] الثعالبي ، فقه اللغة (ص 120) .

[4] أبو تمام ، الديوان (ج 198/2).

وذكر الشعراء ما يشابه هذا المعنى في الحروب يقول الحلي :

بِيضٌ صنائِعُنَا خُضرٌ مَرَابِعُنَا سُوْدٌ وقَائِعُنَا حُمرٌ مَوَاضِيْنَا [1]

في البيت السابق مزج بين الألوان الرئيسية الأربعة ، وتعلق لكل لون منها بمزية خاصة به ، تتناسب مع جو الفخر فدلت الألوان جميعا على أشياء محببة للنفس في ضوء سياق العرض ، وقد ارتبط هذا اللون الأسود بالحرب حيث تكون العاقبة سوادا على كل من يقاتل الشاعر وقبيلته التي افتخر بها .

وفي الجانب الآخر نجد اللون الأسود محببا في أوصاف خاصة كوصف الشعر وشدة سواد العين ، واللثة ، حيث تغني الشاعر العربي القديم بها كثيرا يقول امرؤ القيس :

وَفرْع يَزِينُ المتْنَ أَسوَدَ فَاحِمٍ أَثِيْثٌ كَقِنْوِ النَّخلَةِ المُتَعَثْكِلِ [2]

فهو هنا يصف شعر المحبوبة بشدة السواد ، وهي صفة جمالية محببة لديه ، كما هي دلالة على عنفوان الشباب وقوته وحيويته ، وفي مثل هذا القول يقول عبيد بن الأبرص :

دَرْدَر الشبابُ والشَّعْرُ الأَسْوَدُ والرَّاتِكَاتُ تَحْتَ الرِّجَال [3]

فهنا يتذكر الشباب بدلالة لون الشعر الأسود ، وكون الشباب موطن القوة فإنه ذكر الرائكات من الإبل وهي السريعة القوية ، تأكيدا لمعناه الذي أراد .

وقد وصف جرير العين الحوراء وهي شديدة السواد والبياض بقوله :

إنَّ العُيُونَ الّتِي فِي طَرْفِهَا حَوَرٌ قَتَلْنَنَا ثُمَّ لَمْ يُحْيِينَ قَتْلَانَا [4]

---

[1] الهاشمي ، جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب (ج 274/2) .

[2] الزوزني ، شرح المعلقات السبع (ص 32).

[3] عبيد بن الأبرص : الديوان (ص 97).

[4] جرير : شرح ديوان جرير (ص 452).

ومن هنا ظهرت جماليات اللون الأسود في عرف الشعراء العربي القدامى ، حيث استخدموه بدلالاته المختلفة سواء في باب التشاؤم أو الشعور بالراحة والجمال .

لكن السمرة عند العرب ليست كالسواد يقول الدارمي :

أنَا مِسْكِينٌ لِمَن يَعْرِفُنِي لونِي السُّمْرةُ أَلْوَانَ العَرَبْ [1]

الشاعر هنا يفتخر بنسبته العربية ، حيث كان من أشراف تميم وشجعانهم ، فمعروف عن العرب أن ألوان بشرتهم كانت تميل إلى الأدمة ، وهذا يعني أن الشاعر يريد أنه من خالص العرب وصميمهم .

كما ارتبط اللون الأسود بالحواس المختلفة ، فظهر لدى الشعراء شعور بالاستمتاع بريح المسك الذي يتميز بسواد لونه يقول عنترة :

لئِن أَكُ أَسْوَدَاً فالمِسْكُ لَوْنِي ومَا لِسَوَادِ جِلْدِي مِنْ دَوَاءِ
ولَكن تَبْعد الفَحْشاءُ عنِّي كبُعدِ الأَرضِ عَنْ جَوِّ السَّمَاءِ [2]

حيث استخدم السواد كمعادل نفساني ترتاح به نفسه دفاعا عن من اتهموه بسواد البشرة.

كما ظهرت دلالات اجتماعية للون الأسود فكما نرى في قول جحظة البرمكي :

ورضيتُ مِنْ أكْلِ السَّمِيْذِ بأَكْلِ مُسْوَدّ الدَّقِيقِ [3]

ولا يخفى ما في البيت السابق من دلالة اجتماعية ، حيث يقوى بالدقيق الأسود على ذلك الفقر الذي ساد خلال العصر العباسي الثاني ، وعانى منه المسلمون آنذاك .

كما نجد تعلق اللون الأسود بأغراض شعرية لعل من أهمها الهجاء يقول الشاعر الحماني :

---

[1] ابن منظور : لسان العرب ، (ج243/4) .
[2] عنترة ، الديوان (ص 8).
[3] ضيف : العصر العباسي الثاني (ص 245) .

فِي وَجْهِ ذَاْكَ أخَاطِيطٌ مسوَدَّة وفِيْ مَضَاحِكِ هَذَا الدُّرُّ منْثُورُ [1]

ومن الأغراض أيضا غرض الغربة يقول ابن زيدون :

حَالَتْ لفَقْدِكم أيَّامَنَا فغَدَتْ سُوْدَاً وكَانَتْ بِكُمْ بِيْضَاً لَيَالِيْنَا [2] .

فالغربة هنا جعلت من أيامه سوداً مليئة بالهموم والمآسي ، وقد كانت من قبل بيضاً مليئة بالخير والنعمى .

ثانيا: اللَّون الأبيض

كان اللون الأبيض مقدسا منذ العصور القديمة ، ومكرسا لإله الرومان ، وكان يضحى له بحيوانات بيض ، والبياض أفضل الألوان عند العرب ،كما قيل " البياض أفضل والسواد أهول ، والحمرة أجمل ، والصفرة أشكل ، وعبروا عن الفضل والكرم بالبياض ، حتى قيل لمن لم يتدنس بمعاب : هو أبيض اللون " [3] .

ويعد امرؤ القيس نموذجا جيدا للشعراء القدماء الذين تعاملوا مع اللون الأبيض وأحسنوا توظيفه حيث يقول واصفا لون بشرة حبيبته :

وَبَيْضَةُ خِدْرٍ لَا يُرَامُ خِبَاؤُهَا تمَتَّعَت مِن لَهْوٍ بِهَا غير مُعَجَّلِ[4]

حيث يشبه بياض المرأة بالبيض في صفاء اللون ونقائه ، ويقول أيضا :

مهَفْهَفَةٌ بَيْضَاءُ غَيْرُ مُفَاضَةٍ تَرَائِبُهَا مَصْقُولَةٌ كالسَّجَنْجَلِ
كبَقَرِ المُقَانَاةِ البيَاضِ بِصُفْرَةٍ غذاها نَميرُ المَاءِ غير المُحَلَّلِ

---

[1] المرجع السابق ، ص 184 .

[2] ابن زيدون ، الديوان (ص 10) .

[3] الأصفهاني ، مفردات ألفاظ القرآن الكريم (ص 164).

[4] امرؤ القيس ، الديوان (ص 111) .

فصدر المحبوبة براق اللون متلألئ الصفاء كتلألئ المرآة ، وفيه أنها بيضاء جميلة يشوب بياضها شيء من الصفرة ، وهو أحسن ألوان الحسن عند العرب ، وأضاف إلى ذلك انها كريمة حيث لم يكثر حلول الناس عليها كما في دلالة قوله (غذاها نمير الماء) .

ويشير إلى اللون الأبيض إشارات خاصة من خلال إدراكه للمحسوسات حوله فمثلا اشتق اللون الأبيض من الآرام ، أو البقر الوحشي أو الفرس الأغر ، أو السيف ناصعة البياض كما في وصفه لجيد محبوبته :

وَجِيْدٍ كجِيْدِ الرِّئْمِ لَيْسَ بِفَاحِشٍ إِذَا هِيَ نصته وَلَا بِمُعَطَّلِ

ومن هنا كان اللون ابن بيئة الشاعر ،استعار منه جماله الفني ، فالألفاظ اللونية أخذت دلالات متغايرة حسب السياقات المختلفة التي عرضت من خلالها .

ثالثا: اللون الأحمر

ارتبط اللون الأحمر بلون الدم وقد تغنى الشعراء كثيرا بلونه الذي خضب سيوفهم من دماء أعدائهم يقول عنترة :

هَزَمتُ تَميمَاً ثُمَّ جَنْدَلتُ كبْشَهُم وَعُدْتُ وَسَيْفِي مِنْ دَمِ القَوْمِ أَحْمَرُ [1]

فهو هنا يستحضر الكلمات الدالة على الفخر مثل: (جندلت وهزمت) وأكد هذه المعاني بذكره للون الأحمر الذي لا يزال يقطر من دماء قتلى أعداه .

ويقول جرير في ذات المعنى :

هُمُ تَرَكُوا قَيْسَا وَعَمْرَاً كِلَاهُمَا يَمُجُّ نَجِيْعَاً مِنْ دَمِ الجَوْفِ أَحْمَرَاً [2]

وفي البيت يفخر الشاعر بأن ممدوحيه قاموا بقتل أعدائهم حيث تركوا الأعداء وهم ينزفون الدماء التي تسيل احمرارا حتى صبغت دروعهم بلون الحمزة من كثرة النزيف والقتل .

---

[1] عنترة ، الديوان (ص 79).

[2] جرير ، الديوان (ص 189).

وفي المقابل فقد نفر العرب من دلالة الحمرة في مواطن كثيرة منها ما يتعلق بلون البشرة يقول عبيد بن الأبرص :

جَوانِبُها تَغْشَي المَتَالِفَ أَشْرَفَتْ عليْهِنَّ صُهْبٌ مِنْ يَهُود جنُوْحُ [1]

والصهب هنا لون الحمرة التي يعلوها سواد ، وهي مختصة بالشعر دون غيره ؟

ويؤكد المعنى السابق الشاعر ذو الرمة حيث يهجو رجلا أصهب الشارب أحمر اللحية فيقول :

تسَمَّى امرؤ القيْسِ بنَ سَعْدٍ إذا اعتَزَّتْ وتَأْبَى السِّبَالُ الصُّهْبُ والآنِفُ الحُمْرُ
ولَكِنَّمَا أَصْلُ امرئِ القَيْسِ معشَرٌ يحِلُّ لَهُمْ لَحْمُ الخَنَازِيرِ والخَمْرِ [2]

وفي هذا إشارة بأن العرب كانت تميز الأجنبي الغريب من خلال لون بشرته واتهم ذو الرمة هذا الرجل المهجو بأنه ليس عربي أصيل واستدل على ذلك بتلك الصفة المذمومة فيه وهي حمرة شاربه ولحيته .

كما وصف الشعراء القدامي الوحوش في لحظة شدتها وتهيئها للشر بأن عيونها حمراء قال ذو الرمة :

مَا هُنَّ مِنْ ثَأْجٍ فَأَزْمَعْنَ وِرْدَه أو الأَصْهَبِيَّاتِ للْعُيُونِ السَّوَائِحِ [3]

فهنا إشارة إلى ظهور الشر من تلك السباع المترصدة للأغنام وتهم أن تبطش بها ، ويظهر ذلك من خلال ثؤاج الغنم أي صياحها .

بذلك تنوعت الدلالة الموضوعية للون الأحمر بين كونه لونا دل على القتل والدماء وبين كونه دلالة على الغلبة والتمكين وبين دلالته على صفة النضارة والجمال كحمرة خدود النساء .

---

[1] عبيد بن الأبرص (الديوان ، ص 106).
[2] ذو الرمة ، الديوان (ص 106).
[3] ذو الرمة ، الديوان (ص 54).

رابعا: اللون الأصفر

يحمل اللون الأصفر دلالات الدفء والحيوية والسطوع والنورانية، كما يحمل صفات الحقد والحسد والضغينة والخيانة والغيرة ، إضافة إلى الشحوب والمرض والقحط .

يصور الشاعر الجاهلي سلاحه بألوان ساطعة مشرقة ليستمد منها القوة والبركة ، حيث يرى بأن صفرة الشمس تعطيه القوى الإلهية الكبيرة ضد الأعداء يقول ثعلبة بن عمرو العبدي:

وَصَفْراء مِنْ نَبْعٍ سِلَاحِي أَعُدّها وأَبْيَضَ قصَّالُ الضَّرِيْبَة جَائِفُ [1]

فسيفه قصال أي : قطاع ، وضربته تبلغ الجوف ، ورد هذا إلى صفرة لون ، وفي المقابل يشير الشاعر المتنخل الهذلي إلى دلالة اللون الأصفر المتمثلة في الخوف والقلق الشديد يقول :

والتَّارِكُ القَرْنَ مُصْفَرٌّ أنَامِلَهُ كأنَّهُ مِنْ عَقَارٍ قَهْوةُ ثُمَّلِ [2]

حيث يمدح شجاعة ابنه في صورة أظهرت لون عدوه المكافئ له في الشجاعة ، حيث ظهر عدوه مصفرا من شدة الخوف ، فأصبح مرتعدا كفعل الخمر في شاربها لا تجعله يسيطر على نفسه .

أما ابن الرومي فيرد دلالة هذا اللون موحية نحو الموت وقرب الأجل يقول في رثاء ابنه:

أَلَحَّ عَلَيْهِ النَّزْفُ حَتَّى أَحَالَهُ إِلَى صُفْرَةِ الجَادِي عنْ حُمْرَةِ الوَرْدِ [3]

فمن كثرة النزف تغير لون الوجه إلى الصفرة بعد أن كان ورديا محمرا بكامل صحته وقوته .

---

[1] المعيني ، شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي (ص 175) .

[2] ديوان الهذليين (ص 34).

[3] ابن الرومي ، الديوان (ص 400).

خامسا: اللون الأخضر

يعد اللون الأخضر من أكثر الألوان حبا إلى النفس حيث يقترن بشكل كبير بالبيئة والطبيعة التي يهرب لها الإنسان آملا أن يفرغ فيها ما يعاني من هم أو ألم ، فهو يرى أن الأخضر رمز للحياة والنضارة والخصوبة والنماء والشباب والغيث .

يقول سلامة بن جندل :

يُحَاضِرُ الجُوْنَ مُخْضَرَّاً جَحَافِلَهَا وَتَسْبِقُ الإِلْفَ عَفْوَاً غيْر مضْرُوْبِ [1]

يشير إلى الحمر الوحشية التي صارت مخضرة الجحافل ، فأضحت قوية نشيطة لا يمكن أن تسبق ، لكن خيل الشاعر القوية تسبقها ، وبهذا أشار إلى أن القوة والنشاط والسرعة إحدى دلالات اللون الأخضر .

وقد اقترن اللون الأخضر بخضرة النبات التي تدل على الراحة والحيوية والحياة والنماء ، يقول ابن الرومي :

وَغَيْثٌ أَظَلَّ الأَرْضَ شَرْقَاً وَمَغْرِبَاً فَقِيَانُهُ خُضْرُ النَّبَاتِ أَثَائِثُهْ

حيث يصور ما يحيط بالأرض من الزخرف والخصوبة كان بسبب الغيث المتساقط شرقا وغربا ، فترتب عليه الحياة الخصبة النضرة المتمثلة في الأثائث الكثيرة الملتفة من شدة غزارتها .

سادسا: اللون الأزرق.

تتعدد الرؤى الدلالية للون الأزرق فبينما يكون علامة من علامات الصفاء والتجدد والأمل ، يمكن له أن يحمل جوال الخمول والكسل والتضرع أو ربما يحمله بعض الشعراء دلالة اللؤم .

يقول اليشكري :

---

[1] ابن جندل ، الديوان (ص 107).

لَقَدْ زَرُقَتْ عَيْنَاكَ يَا ابْنَ مُكَعْبَرٍ كمَا كُلّ ضَبْيٍ مِنَ اللُّؤْمِ أَزْرَقُ [1]

فالشاعر هنا رد كل معاني العداوة في مستهل بيته إلى الفعل (زرقت) ، وعمق هذا المعنى حيث جعله صفة أساسية لكل أفراد القبيلة ، والزرقة هنا تتعدى مفهوم اللؤم إلى التشاؤم ، حيث تصبح لعنة تخرج صاحبها عن الأعراف الدينية المتوارثة .

وكما تقدم فإن اللون الأزرق يحمل دلالة الصفاء والنقاء خاصة إذا وصف الشعراء الماء أو السماء يقول زهير :

فَلَمَّا وَرَدْنَ المَاءَ زُرْقَاً جِمَامَه وَضَعْنَ عِصِيِّ الحَاضِرِ المُتَخَيِّمِ [2]

والمعنى فلما وصلن الماء صافيا كثيرا غزيرا ، أقمن عنده وخيمت الرائحة الطيبة الزاكية بالمكان .

فمن خلال عرض الباحث للدلالة اللونية في الشعر القديم اتضح أن " اللون يحمل قدرا كبيرا من العناصر الجمالية ، ويعطي إضاءات دالة تعطي أبعادا فنية في العمل الأدبي " [3] .

لذا على الكاتب أن يراعي استخدام الألوان بطريقته الخاصة التي من شأنها أن تخدم النص بشكل يزيده جمالا فاللون عنصر أساسي في تذوقنا للقيم الجمالية في النص فـ" إن دفء اللون كدفء الإيقاع ، كدفء المعنى ، كلها تخلق في العمل الفني طاقة خاصة ، وتؤسس صورة جديدة وجميلة ، وتكون لها طاقة مميزة ، ذات مدلولات متغيرة ، تصبها في قالب جديد " [4].

---

[1] اليشكري ، الديوان (ص 57).

[2] ابن أبي سلمى ، الديوان (ص 105).

[3] الزواهرة ، اللون ودلالاته في الشعر (ص 77).

[4] المقالح، إيقاع الأزرق والأحمر في موسيقا القصيدة الجديدة (ص 284).

الفصل الأول

أغراض شعر الحروب والفتن في الأندلس

المبحث الأول : رثاء المدن الأندلسية

الرثاء هو تأبين الميت ، وإن كان المدح يتمثل في الثناء على الإنسان في حياته فالرثاء هو البكاء عليه بعد موته ، ويقال للتعبير عن الفجيعة ووفاء للميت بعد دفنه وتعديداً لمآثره، وغالبا ما يتصل هذا البكاء بالدموع والحسرات وإظهار لوعة البين والفراق[1] .

ورثاء المدن يقال للتعبير عن ذلك الجوى ، وتلك الحسرة الكبيرة التي يجسدها الشاعر في الحديث عن دياره التي كان يقطنها وسقطت في أيادي الأعداء ، فيصور الشاعر عظم المصيبة الواقعة ، ويعدد مآثرها ومميزاتها ، واتصل هذا الأدب غالباً بالحنين إلى تلك الديار ، وصاحبه دعوات إلى الجهاد ، وهجر اللذائذ في سبيل الله لإعادة تلك المدن .

ويُعد رثاء المدن من الأغراض الأدبية المحدثة في الأدب العربي، ذلك أن الشاعر الجاهلي لم تكن له مدنٌ يبكي على خرابها، إذ يتنقل في الصحراء الواسعة من مكان إلى آخر، وإن ألم بمدن المناذرة والغساسنة فهو إلمام عابر في ديوانه الشعري.

عرف المشرق قدراً من هذا الرثاء شعرًا، عندما تعرضت عاصمة الخلافة العباسية للتدمير والخراب خلال الفتنة التي وقعت بين الأمين والمأمون، فنهبت بغداد وهتكت أعراض أهلها واقتحمت دورهم، ووجد السّفلة والأوباش مناخًا صالحا ليعيثوا فسادا ودماراً.

وأكثر الشعراء العباسيون من بكائهم على مدينتهم بغداد التي تعرضت لأحداث دامية إبان احتلال المغول لها يقول الشاعر شمس الدين محمد الكوفي معبرا عما جرى لبغداد من حرق وتدمير :

إِنْ لَمْ تَقَرَحْ أَدْمُعِي أَجْفَانِي مِنْ بَعْد بُعْدِكم فَمَا أَجْفانِيْ [2]

---

[1] ينظر: عتيق : الأدب العربي في الأندلس (ص 194).

[2] أمين : مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني (ص 56).

فهو في هذا البيت يكرر كلمة أجفاني التي ترتبط بالدمع وبالبعد ، ويوضح ما يقصده حيث يقول :

وَلَقَدْ قَصَدتُ الدَّارَ بَعْدَ رَحِيْلِكُم ... ووَقَفْتُ فِيْهَا وَقْفَةَ الحَيْرَانِ
وسَأَلْتُهَا ، لَكِنْ بِغَيْرِ تَكَلُّمٍ ... فَتَكَلَّمَت ، لَكِنْ بِغَيْرِ لِسَانِ
نَادَيْتُهَا: يَا دَارُ مَاْ فَعَلَ الأُلَى ... كَانُوا هُمُ الأوطَانُ فِي الأَوطَانِ
أَينَ الّذِينَ عَهِدْتُهُم وَلِعِزِّهِمْ ... ذُلٌّ تَخِرُّ لَهُ مَعَاقِلُ التِّيْجَانِ
قَالَتْ غَدَوْا لَمَّا تَبَدَّدَ شَمْلُهُم ... وتَبَدَّلُوا مِنْ عِزِّهِم بِهَوَانِ

فهنا يحاور الشاعر مدينة بغداد ليجلي لنا ما حل بمدينة العلم والنور والحضارة ، بل ويفصح عن صورة حالته النفسية المكللة بالأسى والحسرة تجاه ما حل بهذه المدينة .

وقد عبر الشاعر ابن الرومي عن تلك النكبة التي تعرضت لها البصرة إبان ثورة الزنوج الذين دخلوا المدينة على حين غفلة من اهلها ، وهم ينعمون بطيب العيش ،فعاثوا فيها فساداً ، وقلبوا الأمور رأسا على عقب ، يقول في رثائه للبصرة:

كَمْ أَخٍ قَدْ رَأَى أَخَاهُ صَرِيْعَاً ... تَرِبَ الخَدِّ بَيْنَ صَرْعَى كِرَامِ
كَمْ مُفدَّى فِي أَهْلِهِ أَسْلَمُوهُ ... حيْنَ لمْ يحْمِهِ هنَالِكَ حَامِي[1]

وبالإضافة إلى هاتين المرثيتين، حفل ديوان رثاء المدن في المشرق، بطائفة من القصائد تتحدث عن تلك المدن التي أسقطها هولاكو وتيمور لنك.

ولكن هذا اللون في المشرق لم يزدهر ازدهاره في الأندلس، ويعزى ذلك إلى أن طبيعة التقلبات السياسية في الأندلس كانت أشد حدة وأسرع جرياناً، حيث عاش الأندلسيون الفتن متلاحقة متتالية ، فلا يكادون يصحون من ملمة إلا وظهرت أختها.

لقد كان هذا الغرض في الأندلس من أهم الأغراض الشعرية، إذ كان مواكبًا للحركة السياسية ، إضافة إلى تميزه بنضج التجربة الفنية للمعاناة التي كانت الديمومة أهم خصائصها وسماتها .

---

[1] ابن الرومي ، الديوان (ص 50) .

" وبشكل عام فالأندلسيون لا يختلفون في مراثيهم عن المشارقة ، إلا أنهم قد تفردوا في رثاء المدن التي اختلطت دماؤهم بترابها وأنفاسهم بهوائها ، وعبروا عن نكبة سكانها وشعورهم بالندم أحيانا ، وبالدمع والاستجداء أحيانا أخرى " [1].

حتى صار رثاء المدن الممالك الأندلسية بسبب كثرة ما قاله الشعراء الأندلسيون في بكائياتهم على مدنهم الزائلة فنا شعريا خاصا قائما بذاته [2]

وقد تعددت المحاور التي تناولها الشعراء الأندلسيون في رثائهم للمدن ما بين تصوير للمحن التي خربت بفعل فساد نظام الحكم ، واشتداد المحنة ، وانتشار الفتنة ، فكان الخراب بما كسبت أيدي الحكام وأيدي الناس ،وخاصة في عصر الفتنة ما بين عامي (399–422) هـ [3] ،وبين تصوير ما تعرضت له هذه المدن من هجمة شرسة من قبل الأسبان الصليبيين حيث سقطت في أياديهم .

كانت قرطبة حاضرة الأندلس ، حيث رثاها كثير من الشعراء منهم ابن شهيد وابن حزم ، والإلبيري وغيرهم من الشعراء .

يقول ابن شهيد في رثائه لقرطبة التي وصلها الخراب في عصر الفتنة ، فنظر إلى معالم قرطبة، فرأى كيف حالت عن حالها، وخربت دورها، وانقضت معاهد صبوته فيها، وانطفأت فيها شمس بني أمية والنجوم العامرية:

مَا فِي الطُّلُولِ مِن الأَحِبَّة مخْبِرُ فمَن الَّذِي عَن حَالِهَا نَسْتَخبِرُ
لا تسْأَلَنَّ سِوَى الفِرَاقِ فَإِنَّهُ يَنْبِيْكَ عنْهُم أَنْجَدُوا أَمْ أَغْوَرُوا
فلِمِثْلِ قُرْطُبة يَقِلُّ بُكَاءُ مَنْ يبْكِي بِعَيْنٍ دَمْعُهَـــا مُتَفَجِّرُ
دَارٌ أَقَالَ اللهُ عثْرَةُ أَهْلِهَا فتبَربَـــــرُوا وَتَغَرّبَوُا وَتَمَصّرُوا
فِي كُلّ نَاحِيَةِ فَرِيقٌ مِنْهُم متَفَطِّـــرٌ لِفِرَاقهـــا مُتَحَيِّـرُ

---

[1] عيسى ، الشعر الأندلسي في عصر الموحدين (ص181) .
[2] ينظر : عتيق ، الأدب العربي في الأندلس (ص 319).
[3] ينظر: بهجت ، الأدب الأندلسي (ص 306) .

عَهْدِي بِهَا وَالشَّملُ فِيْها جَامِعٌ ... منْ أَهْلِهَا وَالعَيْشُ فِيْهَا أَخْضَرُ

وَرِيَاحُ زَهْرَتِهَا تَفُوحُ عَلَيْهِم ... بروائحٍ يَفْتَرُّ مِنْهَا العَنْبَرُ

...

يَا جَنَّةً عَصَفَتْ بِهَا وَبِأَهْلِهَا ... ريحُ النَّوَى فَتَدَمَّرَتْ وتدمروا[1]

ورثاها ابن حزم بعدما رأي الخراب حالاً بها ، حينما وقف على منازل أهله ورآها فقال :

سَلامٌ عَلَى دَارٍ رَحَلْنَا وَغُودِرَتْ ... خلاءً من الأَهلِينَ موحشَةٌ قَفْرَا

ترَاها كَأَنْ لَمْ تغْنَ بِالأَمسِ بَلْقَعَا ... ولاْ عَمَرت مِن أَهْلِهَا قبْلَنَا دَهْرَا

فيا دارُ لَمْ يقفرِكِ مِنَّا اختِيَارَنَا ... ولَو أَنّنَا نستطِيعُ كنتِ لنَا قَبرَا

ولكنَّ أَقْداراً من اللهِ أنفذَتْ ... تدمرنا طوعَاً لما حلَّ أو قهرَا

فيَا خيرَ دَارٍ قد تركتِ حميدةً ... سقَتْكِ الغوادِي مَا أَجَلَّ ومَا أَسْرَى

ويا دهرنا فيها متى أنت عائد ... فنحمد منك العود إن عدت والكرا

سأندِبُ ذاكَ العهْد مَا قامتِ الخضْرَا ... على النَّاسِ سقْفَا بِنَا الغَبْرَا[2]

ويلاحظ أن ابن حزم متأثر بشكل كبير بالقرآن الكريم في قوله (كأن لم تغن بالأمس) واستحضاره لهذه الآية الكريمة جاء ليمثل انطلاقا مهما لتصوير حالة التبدل والتحول التي أصابت المدينة حيث غدت صحراء موحشة لا أنيس بها ، ولا حبيب .

ورثاها آخر وجعل خرابها مسببا عن تهاون أهلها وتقصيرهم في تدبير أمرهم فقال :

أَضَعتم الحزْمَ في تدبِيْر أمْرِكُم ... ستعلَمُون معًا عقْبَى البَوَارِ غَدَا

لكِنَّ العَمَى أعمَتْ بَصَائِرِكُم ... فألبَسَتْكم ثِيَابًا للبِلَى جُدَدَا

يأْ أمةً هتَّكَت مَسْتورَ سَوءتِهَا ... ما كُل مَن ذَلَّ أعطَى بالصَّغَار يَدَا[3]

---

[1] ابن الخطيب : أعمال الأعلام (ص 108).

[2] المرجع السابق ، ص 107 .

[3] ابن عذاري : البيان المغرب (ج3 / 110).

وتعد مدينة بربشتر من أوائل المدن التي سقطت عام (456هـ) حيث رثاها جمع من الأدباء منهم ابن عسال فيقول :

وَلقد رَمَانا المُشركِون بِأَسْهُمٍ ... لم تُخطِ لكِنْ شَأنُها الصَّمَّاءُ
هتكوا بِخَيلهم قصور حَريمِهَا ... لمْ يَبْقَ لا جبَلٌ ولا بطْحَاءُ
جاسُوا خِلال دِيارِهم فلَهُم بِهَا ... في كُلِّ يَوْمٍ غارَةٌ شَعْرَاء
باتَت قلوبُ المُسلمِينَ بِرُعبِهِم ... فحُمَاتُنَا في حَرْبِهِم جُبَنَاء
كَم مَوضعٍ غَنِموه لمْ يُرحم به ... طفلٌ ولا شيخٌ ولا عَذْرَاءُ
ولَكَمْ رضيعٍ فرَّقُوا مِن أُمِّهِ ... فلَهُ إليها ضجَّةٌ وبُغَـــــاءُ
ولربَّ مولودٍ أبُوْهُ مجدَّل ... فوقَ التُّرَاب وَفرْشه البيْدَاءُ
ومصونةٌ في خِدرها مَحجُوبَةٌ ... قد أبْرزُوهَا مَا لَـــها استخْفَاءُ [1]

فالشاعر هنا صور تلك الفاجع التي عصفت بالمسلمين ، عندما جاست خيول الأعداء فسادا وتدميرا لهذه المدينة ، ويركز الشاعر على بيان الآثار الاجتماعية لانكسار المسلمين حيث الفرقة والخلاف ، وفقدان الأطفال لآبائهم والأمهات ، علاوة على استحلال الأعراض وانتهاك المحرمات ، التي لم يرعها العدو ، حيث إنه لم يرقب في مؤمن إلا ولا ذمة .

وعلى إثر هذه الحادثة نجد من الشعراء من وجّه خطابه مباشرة إلى ملوك الأندلس يشعرهم بالخطر المحدق بهم، كالهوزني الذي خاطب المعتضد مرارا يحثّه على الجهاد منبّها إياه بخطورة الوضع:

أَعَبَّادُ حَلَّ الرَّزْءُ وَالقَوْمُ هُجَّعُ ... عَلَى حَالَةٍ من مثْلُها يُتَوَقَّعُ
فَلَقِّ كِتَابِي مِنْ فَرَاغِكَ سَاعَةً ... وَإِنْ طَالَ فَالمَوْصُوفُ للطُّولِ

---

[1] الحميري ، الروض المعطار (ص 90).

[2] المغربي ، المغرب في حلى المغرب (ج 1 / 240).

وهكذا صورت لنا هذه الأشعار والمراسلات الأثر العميق الذي تركته نكبة بربشتر في أوساط المجتمع الأندلسي، ولعلّها أوّل محنة حركت المشاعر حيث عرف أن علماء الاندلس جيشوا الجيوش وعادوا مخلصين لهذه المدينة فحرروها بعد جهاد طويل مع النصارى .

وذكر الشعراء أن أسباب الهزيمة تكمن في البعد عن الدين الحق يقول ابن عسال :

لولا ذُنُوبُ المسلمينَ وأنَّهم ... ركِبُوا الكبائِرَ مَا لَهُنَّ خَفَاءُ
مَا كان يُنصَرُ للنصارى فارسٌ ... أبداً عليهِم فالذُّنوبُ الداءُ
فَشِرارُهم لا يخْتَفُون بشرِّهم ... وصَلَاحُ منْتَحلِي الصَّلاح ريَاءُ[1]

فهذا وهن كبير أصاب الناس في الأندلس وتخاذل واضح من أمرائها بحيث وقعت مثل هذه المذابح الكبيرة والشنيعة وهم غارقون في ملذاتهم وشهواتهم الشخصية .

ولقد جاءت ثورة الشعر في نهاية دولة الموحدين حيث أثار سقوط إشبيلية بيد الأسبان (664هـ) موجة غضب كبيرة في صدور الشعراء ولعل أشهر ما وصلنا من هذه القصائد قصيدة ابي البقاء الرندي التي يذكر فيها ذلك العيش الرغيد بشجون المتألم على فقدان موطنه الذي عاش فيه ، حيث يستغل القصيدة في الحديث عن حكم الأحوال الزمانية فيفتتح القصيدة بتذكيره أن العيش الرغيد لا يدوم ، وأن مصير كل شيء إلى زوال يقول :

لِكُلِّ شَيءٍ إذا ما تَمّ نُقصانُ ... فَلا يُغَرَّ بِطِيبِ الْعَيْشِ إنسانُ
هِيَ الأُمُورُ كَما شاهَدْتَهَا دُوَلٌ ... مَنْ سَرَّهُ زَمَنٌ سَاءَتْهُ أَزْمَانُ
وَهَذِهِ الدَّارُ لَا تُبْقِي عَلَى أَحَدٍ ... وَلا يَدُومُ عَلَى حَالٍ لَهَا شَانُ
أَيْنَ المُلُوكُ ذَوُو التِّيجَانِ مِنْ يَمَنٍ ... وَأَيْنَ مِنْهُمْ أَكَالِيلٌ وَتِيجَانُ
وَأَيْنَ مَا شَادَهُ شَدّادُ فِي إرَمٍ ... وَأينَ مَا سَاسَهُ فِي الفُرْسِ سَاسَانُ
وَأَيْنَ مَا حَازَهُ قَارُونُ مِنْ ذَهَبٍ ... وَأَيْنَ عَادٌ وَشَدَّادٌ وَقَحْطَانُ
أَتَى عَلَى الْكُلِّ أَمرٌ لا مَرَدَّ لَهُ ... حَتَّى قَضَوْا فَكَأنّ الْقَوْمَ مَا كَانُوا[2]

---

[1] الحميري ، الروض المعطار (ص 90) .

[2] المقري ، نفح الطيب (ج6 / 232).

ومن ذلك أيضا رثاء أبو المطرف بن عميرة لمدينة بلنسية حيث يفتتح قصيدته ببيان مواضع العظة الاعتبار من صروف الدهر حيث يقول :

أقِلَّا ملامِي أو فقُولَا وأكثِرُوا ... ملومكم عمَّا بِهِ ليْسَ يُقْصَرُ
يَحِن وَمَا يُجْدي عليْهِ حنِينَه ... إلى أربعٍ معْرُوفُهَا متنكَّرُ
ويَنْدب عهدًا بالمُشَقَّر فاللِّوى ... وأين اللّوى مِنْهُ وأيْن المُشقَّرُ
تغيَّرَ ذاكَ العهدُ بعدِي وَأَهلُه ... ومَن ذَا عَلَى الأَيَّامِ لا يَتَغَيَّرُ [1]

فهلاك الأمم والدول أمر مفروغ منه ، ولكن وقته مجهول بالنسبة لنا ، ومتعلق بتقدير الواحد الأحد فالدول كالأعمار البشرية تمضي إلى نهايتها .

وقد ركز الشعراء على قضية التحول العقدي حيث انقلبت المدينة من حال الإسلام إلى الكفر وهذا واضح من خلال الأوصاف الحزينة من قبل الشاعر ابن الأبار في رثائه لبلنسية حيث ذكر تحول المساجد إلى كنائس تقرع فيها أجراس النصارى يقول باكيا :

يا للمسَاجِد عادَت للعِدا بِيَعَاً ... وللنِّداءِ غَدَا أَثْنَاءَهَا جَرَسَا
لهَفِي علَيْها إلَى استِرْجَاع فَائِتِهَا ... مَدَارساً للمَثَانِي أَصبَحَتْ دَرَسَا [2]

وإلى نفس الصورة يشير الشاعر أبوعمران المرابط فيقول :

كَمْ جَامِعٍ أعيدَ كنيسة ... فاهْلَكْ علَيْهِ أسًى فَلا تَتَجَلَّدِ
القِسُّ والنَّاقُوسُ فَوْقَ منارةٍ ... والخَمْرُ والخِنْزِيْر وَسْطَ المَسْجِدِ
وتعوضت منْهُم بِكُلِّ مُعَانِدٍ ... مسْتَكْبِرٍ مُذْ كانَ لَهُمْ يَشْهَد [3]

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج4 / 494) .
[2] المرجع السابق ، (ج 6 / 216) .
[3] ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (ج7 / 195).

لم يكتف الشعراء برثاء المدن التي تسقط بل قاموا بتصوير صورة مأساوية للفظائع والجرائم المرتكبة يقول الرندي في نونيته :

يَا مَنْ لِذِلَّة قومٍ بعدَ عزّهم أحَالَ حَالَهُم كُفْرٌ وَطُغْيَانُ
بالأَمسِ كانوا مُلُوكًا في مَنَازِلِهم واليومَ هُمْ فِي بِلَادِ الكُفْرِ عُبْدَانُ
فلو تراهم حيارى لا دليل لهم عليهم من ثيابِ الذُّل ألوانُ
كَم من أَسِيْرٍ بحَبْلِ الذُّلِّ معتقَلٌ كأنَّهُ ميتٌ والذُّلُّ أكْفَانُ [1]

في الأبيات السابقة حديث عن تحولات العزة إلى الذلة ، وصار للكفر جولة على الحق ، بل إنه ينبه أن الملوك الذين كان لهم مكانة في قلوب العالمين أصبحوا عبيدا للكفار ، قد كسوا ثياب الذلة والهوان ، حيث وقعوا أسارى في أيادي الأعداء .

ومنهم ابن عميرة الذي رثى بلنسية فقد وصف حزنه الشديد على فقدان هذه المدينة بشيء فيه يأس ، ويعد ابن عميرة من الشعراء اليائسين إذ لا يرى جدوى من القتال للأعداء بعد سقوط المدينة لشدة ضعف المسلمين ، يقول :

ألا أيُّها القَلْب المصرِّحُ بالوَجْدِ أما لَكَ مِنْ بادِيَ الصَّبَابَة من بُدِّ
يَحِنُّ إلَى نَجْدٍ ، وهيهات حَرَّمَت صُرُوفُ اللَّيَالِي أَنْ يعودَ إلَى نَجْدِ
فَيَا جَبلَ الدَّيَّان ، لا رَيَّ بعدَمَا عَدَت غيْر الأَيَّامِ عن ذلك الوِرْدِ
ويَا أَهْلَ وُدِّي والحوادثُ تَقْتَضِى خلوِّي عَنْ أهْلٍ يُضافُ إلَى الوُدِّ [2].

فالشاعر كثير البكاء على أطلال بلنسية ، يذكرنا حنينه وذكره لتلك البلاد التي سقطت في أيدي العدو حنين الجاهليين لديارهم التي تركوها ، حيث دقق الشاعر في بيان عظيم وجده، وشكى من صروف الليالي التي حرمته من العودة إلى بلاده .

وفي رثاء مدينة طليطلة أورد صاحب نفح الطيب قصيدة جميلة من روائع الرثاء الأندلسي قال فيها: " ومن ذلك قول بعضهم يندب طليطلة أعادها الله للإسلام :

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج 6 ، ص 244) .
[2] المرجع السابق (ج1، ص 293).

لثكِلك كيْفَ تَبتَسِمُ الثُّغُورُ ... سُرُورَا بعدَما سُبِيَت ثُغُورُ

أمَا وَأَبِي مُصابٌ هُدَّ منْهُ ... ثبِيْرُ الدِّيْنِ فاتَّصَلَ الثَّبُورُ

لقَدْ قُصِمَت ظهورٌ حِيْنَ قَالُوا ... أميْرُ الكَافِرِينَ لَهُ ظُهُورُ

تَرَى في الدَّهرِ مسرُوراً بِعَيْشٍ ... مَضَى عَنَّا لطيته السُّرورُ

أَليسَ بهَا أبِيَّ النَّفسِ شَهمٌ ... يُديْرُ على الدَّوَائِرِ إِذْ تَدُوْرُ

لقَدْ خضَعَتْ رقابٌ كنَّ غُلْباً ... وَزَالَ عُتُوُّهَا ومَضَى النُّفُوْرُ

وهان على عزيز القوم ذل ... وسامح في الحريم فتى غيور [1] .

هذه القصيدة من أمهات القصائد في رثاء المدن حيث تظهر العاطفة الصادقة ، والتجربة الحية ، لدى الشاعر ، حيث يصور ما حل بهذه المدينة من خراب على الناحيتين الروحية والمادية ، حيث ينادي مستصرخا مستغيثا أصحاب الشهامة والنخوة أن يعودوا إليها فاتحين ، مذكرا لهم بتلك الأيام الخالية ، والتي شهدت عزا كبيرا للمسلمين ، ورغدا عظيما في العيش بكرامة الإسلام .

ومن شعر بكاء الدور والقصور قول السميسر :

وَقَفْتُ بالزَّهرَاءِ مُسْتعْبِرَاً ... معتَبِرَاً أنْدبُ أَشْتَاتَا

فقُلْتُ يَا زَهْرَا ألا فارْجِعِي ... قَالَتْ وَهَلْ يَرْجِعُ مَنْ مَاتَا

فَلَم أَزَلْ أَبْكِي بِهَا ... هيهَاتَ يغْنِي الدَّمْعُ هيهَاتَا

كأنما آثارُ مَنْ قَدْ مضَى ... نوَادبٌ يَنْدِبْنَ أَمْوَاتَاً [2]

يصف الشاعر وقفته أمام مدينة الزهراء التي بناها أمير المؤمنين عبد الرحمن الناصر ، وكانت دار ملكه وعزه وسلطانه ، ثم خلت من الساكن وخربت ، ويتخيل الشاعر أن المدينة تحاوره فيسألها أن ترجع إليه كما كانت لكنها تجيبه أن الرجوع محال ، فيبكي الشاعر ويبكي المتلقي وكأن آثار المدينة تشاركه النواح ، وتندب ملوكها الذين مضوا .

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج4 / 479).

[2] المرجع السابق (ج2 / 68).

وهذا أبو الحسن بن جهور يقف على قصور الأمويين المهدمة ، والتي انقلبت بعد العمار إلى الخراب ، ويحاكيها متسائلا أين سكانك الذين كانوا يعمرونك بحركتهم الدائبة ؟، وأين تلك الحركة المستمرة في ربوعك ؟

وتكرار مثل هذه التساؤلات يفيد في الدلالة على عظيم الخراب الحال في المدينة المتمثل في قصورها بصورة مركزة ، وكأن السنوات الجميلة التي عاش فيها سكانها قد انقضت بسرعة يقول في هذا المعني :

قلتُ يومَاً لِدَارِ قَوْمٍ تَفَانَوا أيْنَ سُكَّانك العِزَازِ علَيْنَا
فأجَابَتْ ههنا أَقَامُوا قَلِيلاً ثمَّ صَارُوا ولسْتُ أعْلَمُ أَيْنَا [1]

لقد عرضنا فيما سبق بعضا من الأمثلة على رثاء المدن الأندلسية حيث بكى شعراء الأندلس المدن التي خربت واحتلت ، إذ بكى بعضهم ملوك الدول الذاهبة حين وقف على أطلال مدنهم التي كانت عامرة بهم مثل مدينة الزهراء ، وطليطلة وغيرها.

ومنهم من بكى المدن التي دخلها النصارى مثل مدينة طليطلة وبلنسية وبربشتر فوصفوا ما كانت تتمتع به من حضارة وعمران في ربيع الإسلام العظيم ، فبكوا دار الإسلام وانقلابها إلى دار كفر ، حيث عطلت شرائعها ، وحولت مساجدها إلى كنائس .

كما رد الكثير من الشعراء ما حل بالمدن الأندلسية الخربة لما فعله بها أهلها من تقاعس عن نصرتها والدفاع عنها ، وبعد عن دين الله وارتكاب للمعاصي ، ورأى هذا الخراب عقوبة من الله تعالى على الفجور والمعصية .

وقد كانت السمة الغالبة على هذا النوع من الشعر رقة الكلمات ، وصدق العاطفة ، وطغى على معجمها الشعري مفردات التحسر والحزن الشديدين ، وزخرت هذه الأشعار بالحكمة والدعوة إلى الاعتبار بمن ذهب من ملوك الأرض ودولها كما رأينا في نونية الرندي .

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج2 / 66).

المبحث الثاني : شعر الاستصراخ والاستغاثة

تأتي على الناس كوارث وأزمات ، يعانون من خلالها بالجزع والويلات ، فيستنصرون بمن هم أقوى منهم، يستصرخونهم للدفاع عن حقهم ، وهذا حال البشرية منذ خلقها الله ، وكانت النجدة مبنية في الجاهلية على العصبية القبلية ، وكريم الشيم العربية ، لكن عندما جاء الإسلام اختلفت الموازين فكان الدين أساسا مهما في رفع الظلم عن الناس ، بل صار المسلمون كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعي له سائر الجسد بالسهر والحمى ، فالمسلمون يسعى بذمتهم أدناهم فكيف إذا وقع عليهم ضيم أو اعتداء من عدو لهم ، لن يكون إلا ما قام به المعتصم عند فتح عمورية استجابة لصرخة امرأة قالت (وامعتصماه) .

لقد دهى الأندلس بعد انتهاء حكم الأمويين خطوب كثيرة ، بدأت رياحها في تلك الخصومات السياسية بين الأشقاء ، حيث اتجه الحكام ناحية الترف والمجون والمتعة ، وفكروا في ذواتهم فقط ، دون أن يكون لديهم أدنى تفكير فيما يصير إليه حال الأندلس فيما بعد .

استغل الإسبان تلك الحالة وجهزوا جيوشهم لقتال المسلمين ، بعد أن استجمعوا قواهم ، وأخذوا يهاجمون المدن الإسلامية واحدة تلو الأخرى بعد أن شرع الإخوان أسلحتهم لا إلى أعدائهم بل إلى بعضهم البعض ، وتساقطت المدن الأندلسية إبان عصر الطوائف مدينة تلو الأخرى حتى انحسر المسلمون في مدن قليلة ، ما أثار قريحة الشعراء للاستصراخ والنداء على القواد والحكام عسى يكون بقية باقية من النخوة والإيمان في صدورهم ، فيستثيرون بهم معاني الجهاد ونصرة أهل الإسلام [1] .

ولعل من أهم النماذج التي وصلت لنا في هذا الغرض استصراخ القاضي العباس بن ناصح للحكم بن هشام ، حيث كان المحرك له صرخة سمعها من امرأة تقول :(واغوثاه بك يا حكم ، لقد أهملتنا حتى كلب العدو علينا ، فأيمنا وأيتمنا) فسألها القاضي عن شانها ، فقالت كنت مقبلة من البادية في رفقة ، فخرجت علينا خيل العدو فقتلت وأسرت ، فصنع قصيدته التي أولها :

---

[1] ينظر : عيسى ، الأدب العربي في الأندلس (ص 150-151) .

تمَلمَلْت فِي وَادِي الحِجَارَةِ مسْهِرَا ... أُراعِي نُجُوماً ما يُرِدْن تَغَوُّرَا
إليْكَ أبَا العَاصِي نَضَيْتُ مَطِيَّتِي ... تَسِيرُ بِهِم ريَّا مُهَجَّرَا
تدَارَكْ نِسَاءُ العَالمِيْنَ بِنُصْرَةٍ ... فإنَّكَ أّحْرَى أَنْ تُغيْثَ وَتَنْصُرَا [1]

فلما دخل القاضي على الحكم نادي بالجهاد وغزا ناحيتهم وفتح الحصون وخرب الديار ، وقتل عددا كبيرا من الصليبيين ، وأسر منهم وضرب رقابهم أمام ناظري المرأة .

وقال للعباس: سلها: هل أغاثها الحكم؟ فقالت المرأة، وكانت نبيلة: والله لقد شفى الصدور، وأنكى العدوّ، وأغاث الملهوف، فأغاثه الله، وأعزّ نصره؛ فارتاح لقولها، وبدا السرور في وجهه وقال:

ألَم تَرَ يَا عَبّاسُ أنِّي أَجَبْتُهَا ... على البُعْدِ أَقْتَادُ الخَمِيْسَ المظفّرا
فأدركت أوطاراً وبرّدت غلّةً ... ونفّست مكروباً وأغنيت معسرا

فقال عبّاس: نعم، جزاك الله خيراً عن المسلمين، وقبّل يده.

وبقيت الاستغاثة والاستصراخ على هذه الشاكلة حيث يستغيث الأندلسيون بإخوانهم ممن سكنوا الجزيرة لكن بعدما وهنت قوتهم خاصة في عصور الطوائف والموحدين بدؤوا يفكرون بالاستنصار بإخوانهم في شمال إفريقيا إذ تولد عندهم أن هذه الدول لم تكن قادرة على نصرتهم في نهاياتها ، ففي خواتيم دولة الموحدين استنجد الأندلسيون بالحفصيين الذين يقطنون تونس ، حيث خاطبهم ابن الأبار أثناء حصار بلنسية دعاهم فيها للعبور والجهاد لإنقاذ المدينة المحاصرة فيقول :

أَدرِكْ بِخَيْلِك خيلِ اللهِ أَنْدَلُسَا ... إنَّ السَّبِيْلَ إلى منَاجَاتِها دَرَسَا
وهَبْ لَهَا مِنْ عَزِيْزِ النَّصرِ ما التَمَسَتْ ... فلَمْ يَزَلْ مِنْكَ عزُّ النَّصْرِ ملتَمَسَا
صِلْ حَبْلَهَا أيُّهَا المَولَى الرَّحيمُ فمَا ... أَبْقَى المِرَاس لَهَا حَبْلَا ولَا مَرَسَا
وَأَحْيِ ما طَمَسَتْ مِنْهَا العداة كَمَا ... أحْيَيْتَ مِنْ دَعْوَةِ المَهْدِيِّ ما طُمِسَا

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج343/1).

أيام صرت لنصر الحق مستبقا وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا [1]

فالشاعر هنا يوجه النداء إلى أبي زكريا الحفصي طالبا منه أن يعيد البلاد إلى عزها ومجدها ، وأن يحقق النصر على العدو بخيله ، ويفك حصار مدينته ، ويتخلل هذه القصيدة عاطفة الحزن والأسى على ما حل بالمدينة ، التي صارت منعزلة عن اخواتها من المدن الإسلامية ، ويستغل الشاعر تلك الألقاب التي أسقطها على القائد الإفريقي من أجل الظفر بتحقيق رغبته في نصرة المظلومين من أهل الأندلس المحاصرين في منهم من قبل عدو جائر .

ويوجه أبو المطرف بن عميرة نداءه إلى الحفصي بقوله مستغيثا :

تدَارَكْ أَمِيْرَ المؤمنين دِمَاءَنَا فإنَّكَ للإِسْلَامِ والدِّينِ ناصِرُ
ووَجِّهْ إلى استِنْقاذِنَا بِكَتِيبَةٍ يهابُ مِنْهَا الرَّدَى المُحَاصِرُ
تنَفَّسْ مِنْ ضِيْقِ الخِنَاقِ بقطْرِنَا فتدرك آمالٌ وترْعَى أَوَاصِرُ [2]

فالشاعر هنا يخاطب الحفصي حاثا له أن يرسل بالكتائب المقاتلة لتفك الحصار عن مدينته (بلنسية) ويدفع عنها ما لفها من البلاء ،وقد استخدم هذا الشاعر عنصر المبالغة في تهويل ما يحدث في المدينة لعله يظفر بتحقيق استثارة عاطفية ودينية مسئولة من هذا الأمير .

ولعل اشبيلية من أكبر المدن التي تعرضت لحملات الغزو النصراني ، حيث كان منها الصمود الكبير ، بعدما تعرضت لحملة قاسية مشتركة ما بين النصارى وابن الأحمر من جهة وبني العباد في مدينة اشبيلية ، وصبرت هذه المدينة ما يزيد عن ثمانية عشر شهرا حتى نفذ الطعام والسلاح ولم تجد بدا من الاستسلام فكتب شاعرها إبراهيم بن سهل الإشبيلي مستنهضاً همم المسلمين مستصرخاً :

نَادَى الجِهَادُ بِكُم بِنَصْرٍ مُضْمَرِ يبدو لكم بيْنَ القَنَا والضُّمَّرِ
يا معشَرَ العُربِ الذِّين تَوَارثُوا شِيَمَ الحَمِيَّةَ كابرًا عَنْ أَكْبَرِ

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج6/ 215).

[2] ابن الأبار البلنسي ، الحلة السيراء (ج2 / 269).

إن الإله قد اشترى أرواحكم بيعوا ويهنئكم وفاء المشتري [1]

لقد زين هذا الشاعر قصيدته بفكرة الجهاد الإسلامي حيث يحفز العرب الذين يتحلون بالنخوة والشجاعة التي يضرب فيها المثل على الثورة وتقديم المهج والأرواح رخيصة في سبيل الله تعالى حيث يذكرهم ببيعتهم التي بايعوا فيها ربهم ، وبعقد الشراء مع الله تعالى في إشارة إلى قوله تعالى : {إِنَّ اللَّهَ اشْتَرَى مِنَ الْمُؤْمِنِينَ أَنْفُسَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ بِأَنَّ لَهُمُ الْجَنَّةَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِي التَّوْرَاةِ وَالْإِنْجِيلِ وَالْقُرْآنِ وَمَنْ أَوْفَى بِعَهْدِهِ مِنَ اللَّهِ فَاسْتَبْشِرُوا بِبَيْعِكُمُ الَّذِي بَايَعْتُمْ بِهِ وَذَلِكَ هُوَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ } .

وقد ارتفع أسلوبه إلى " مقام القول المجاهد والشعر المحارب ،والدعوة إلى القتال ، ابتغاء النصر أو بلوغ الشهادة مستغلا إيقاظ العاطفة الدينية والنخوة الإسلامية " [2] .

لقد أكثر شعراء الأندلس من استخدام حروف النداء في استصراخهم واستغاثتهم تعبيرا عن ذلك اليأس الذي تسلل إلى قلوبهم بعد سقوط العديد من المدن الأندلسية في أيدي الأعداء يقول الرندي في نونيته :

يَا رَاكِبِيْـنَ عتَاقَ الخَيْلَ ضَامِرَةً كأَنَّهَا في مَجَالِ السَّبْقِ عقْبَانُ
وَحَامِلِيْنَ سُيُوفَ الهِنْدِ مُرْهَفَةً كأَنَّهَا في ظَلَامِ النَّقعِ نِيْرَانُ
أعندكم نَبَأٌ مِنْ أَهْلِ أَنْدَلسٍ فَقَد سَرَى بِحَدِيْثِ القَوْمِ رُكْبَانُ
كم يستَغِيْثُ بِنَا المُسْتَضْعفون وَهُمْ أسْرَى وَقَتْلَى فَلَا يَهْتَزّ إنْسَانُ [3]

وفي هذه الأبيات استخدم الشاعر كم التكثيرية للتعبير عن ديمومة طلب النجدة والمساندة والمساعدة من كل من وصلت له هذه الرسالة من قادة المسلمين وحكامهم.

---

[1] البستاني ، ديوان ابن سهل (ص 38) .
[2] الشكعة ، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنون (ص530).
[3] المقري ، نفح الطيب (ج6/ 244) .

وفي قصيدة أخرى يستدر لسان الدين بن الخطيب عطف المسلمين من حول الأندلس ، يبصرهم بما حل بالأندلس من دمار وتكالب من الأعداء عليهم فيقول :

أإخواننا لا تنسوا الفضل والعطفا فقد كاد نور الله بالكفر أن يطفا
إذ بلغ الماء الزبى فتداركوا فقد بسط الدين الحنيف لكم كفا
تحكم في سكان أندلس العدى فلها على الإسلام ما بينهم لهفا

يدرك لسان الدين بن الخطيب ذلك الترابط الأخوي بين المسلمين ، فيوازي بين نداء القريب والبعيد مستخدما الهمزة كحرف من حروف النداء للقريب ، ويستخدم الشاعر العاطفة الدينية لتحقيق الاستجابة من المستغاثين .

وقد استخدم الشعراء معاني المجاورة وحق الجوار وأنه من واجبات الجار أن يذود عن حمى جاره يقول ابن المرابط مستغيثا :

أَبَنِي مُرِّينَ أنتُمُ جِيْرَانُنَا وَأَحَقُّ مَنْ في صَرْخَةٍ بهِم أَبْتَدِي
فالجَارُ كَانَ بِهِ يُوَصِّى المصطفى جبرِيلُ حقًّا في الصَّحيحِ المُسْنَدِ
أبني مرين والقَبَائِلُ كُلّها في المَغْرِبِ الأَدْنَى لنَا والأَبْعَدِ
كُتِبَ الجِهَادُ فتبادروا منه إلى فَرْضِ الأَحَقِّ الأَوْكَدِ [2]

وهو هنا يوضح أن الجهاد في حقهم واجب ، ويأثم كل من يتخلف عن نصرة إخوانه من المسلمين إذا ما احتلت أرضهم وسلبت .

لعل من أبرز الظواهر الموضوعية في هذا النوع من الشعر لجوء الشعراء إلى الله تعالى ، وتأكيد أملهم بأن الله تعالى هو نعم النصير والمجير والمعين يقول الشاعر:

يَا رَبُّ وَفِّقْنَا وألهِمْنَا لِمَا فيْهِ لَنَا الخَيْرَ فأَنْتَ المُلْهِم
يا رب أصْلِحْ حَالَنَا وبَالَنَا أنتَ بِمَا فيْهِ الصَّلَاح أَعْلمُ

---

[1] ابن الخطيب ، الديوان (ج2/ 677) .

[2] ابن خلدون ، تاريخ ابن خلدون (ج7 /412).

يَا ربُّ وانْصُرْنَا على أعْدَائِنَا يا ربُّ فاعصمنا فإنَّكَ تَعْصِمُ [1]

وفي الأبيات السابقة معنى الرجاء والتوسل بالله سبحانه وتعالى ، ربما هذا يشي بمدى اليأس الذي أصاب الشعراء بعد طول استجداء بمن جاورهم من القادة والمسلمين ، حيث الألفاظ تدل على نفس جريحة كسيرة ، حيث يستدعي الشاعر الدعاء بعد أن فقد الأمل في كل من حوله ، فأضحى أن لا ملجأ إلا الله تعالى .

وفي مثل هذا المعنى شكى لسان الدين بم الخطيب إلى رسول الله (صلى الله عليه وسلم) ما جرى لمدن الأندلس المختلفة من نهب وسلب وضياع على يد أعداء الإسلام فقال :

ألا يَا رَسُولَ اللهِ نَادَاكَ ضَارِعٌ عَلَى البُعدِ محفوظُ الوِدَادِ سَلِيْمُه
مشُوقٌ إِذَا مَاْ اللَّيلُ حَدَّ رُوَاقُه تهتم بِهِ تَحتَ الظَّلَامِ هُمُومُه
إذا مَاْ حَدِيثٌ عَنْكَ جاءتْ بِهِ الصَّبَا شجَاهُ مِنَ الشَّوقِ الحَثِيْثِ قَدِيْمُه [2]

وقد صدر هذه الأبيات في قصيدة كلفه بها السلطان أبي الحجاج بن يوسف بن نصر ، يحكي فيها عن تلك الملمات التي حلت ببلاد الأندلس .

كما لجأ العديد من الشعراء إلى الأولياء والصالحين واستغاثوا بهم وتوسلوا بهم إلى الله تعالى أن يصرف عن بلادهم ما تعاني من ألم يقول ابن الخطيب :

يَا وَلِيَّ الإلَهِ أنْتَ جَوَادٌ وَقَصَدْنَا إلى حِمَاكَ المَنِيْعِ
راعَنَا الجَهْرُ بالخُطُوبِ فَجِئْنَا نرْتَجِي مِنْ علَاكَ حُسْنَ الصَّنِيْعِ
فمددنا لك الأكف نرجي عودة العز تحت شمل الجميع
قَدْ جَعَلْنَا وَسِيْلَة تُرْبِكَ الزَّاكِيْ وزلفَى إِلَى العَلِيْمِ السَّمِيْعِ [3]

---

[1] ابن أبي زرع ، الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية (ص 100) .
[2] ابن الخطيب ، الديوان (ج1 / 468).
[3] ابن الخطيب : الديوان(ج2 /658).

حيث يخاطب الشاعر ضريح الولي أبي العباس السبتي بمراكش ، شاكيا له ما مرت به البلاد من ملمات ومصائب على لسان الأمير محمد بن يوسف ، حيث اعتقد في ساكن الضريح مخلصا للبلاد من الشقاء الذي مرت فيه ، وهذا فيه نوع من المغالاة المذمومة ، ولا شك أن المحرك إلى هذه المغالاة ذلك الاحباط واليأس الكبير الذي تملك قلب الشاعر .

وارتبط شعر الاستغاثة عند الشعراء الأندلسيين بالتجسيد والتجسيم والتشخيص من أجل تصوير المعاناة الخاصة بالأندلسيين يقول ابن سهل الأندلسي :

أنْتُم أحقُّ بِنَصْرِ دِيْنِ نَبِيِّكُم ... وبكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتم ركنه فلتدعموا ... ذَاكَ البِنَاءُ بِكُلِّ أَلْعَسَ أسْمَرِ
أضْحَى الهُدَى يَشْكو الظَّما ولأَنْتُم ... ظلٌّ وَرَيٌّ كالرَّبِيعِ المُمْطِرِ
الّدين نَادَاكم وَفوقَ سُرُوجَكُم ... غوثٌ الصَّريخِ وبُغْيةُ المُسْتَنْصِرِ
لَمْ يَبْقَ للإسْلَامِ غَيْرَ بَقِيَّةٍ ... قد وُطِّنَت للحَادِثِ المتنكَرِ
والكفْرُ ممتدٌ المطالِعِ وَالهُدَى ... متَمَسك بذِنَاب عَيْشٍ أَغْيَرِ
لو صوَّرَ الإسْلامُ شخْصَاً جاءَكُم ... عمْدَاً بِنَفْسِ الوَامِقِ المتحير
لَو أنَّهُ نَادَى لِنَصْرٍ خَصَّكم ... ودعاكُمُ يَا أُسْرَتِي يَا مَعْشَرِي [1]

حيث يستصرخ الشاعر مستعينا على بيان المعضلات والمصائب التي تعرضت لها الأندلس بتقانات التجسيم والتجسيد فالتجسيد يتمثل في كونه جعل الإسلام بناء ، وبناته هم العرب ، ثم في كونه جعل الهدى يظمأ ويشكو العطش ، وهو من صفات الكائن الحي عموما .

وأما التجسيم ففي كونه جعل الهدى متمسكا بذناب عيش أغبر فقد نقل شيئا معنويا في مرتبة الإنسان القادر على التمسك ، ثم جعل الاسلام شخصا قادرا على التحرك فبث فيه القدرة والاستطاعة .

---

[1] ابن سهل الأندلسي ، الديوان (ص 142).

وبهذا استطاع أن يصل إلى قلوب وعقول السامعين من خلال نجاحه في جعل الإسلام واقعا ذاتيا ، فوصل إلى مخاطبة معاناة الأندلسيين ونقل الدين من كونه مبادئ وأفكار إلى كونه عملا.

وفي نفس المعنى يقول ابن المرابط :

هَذِي الثُّغور بكُم إلَيْكم تَشْتَكِي شَكْوَى العَدِيمِ إلَى الغَنِيِّ الأَوْجَدِ
مَا بَالُ شملُ المسلمينَ مُبَدَّدٌ فيْهَا وشَمْلُ الكُفْرِ غير مبدَّدِ

حيث جعل من الثغور إنسانا يشكو حاله ويئن ، فهي تبث الأحزان من هول ما رأت من تبدد للشمل وفرقة وخلاف ، حيث أضفى الشاعر عليها صفات حركية فجعلها كالإنسان تماماً.

وكون الشاعر صرح بأن الثغور تشكتي فهذه إشارة منه بليغة على شكوى بلاد الأندلس قاطبة ، وهي صورة معمقة توحي بالموقف الخاص من الشاعر الذي لم يرقه المشهد حيث عقد مفارقة بين ثغور المسلمين وثغور أعدائهم ، ويقصد الشاعر من هذه المفارقة أن يستحث المسلمين على رص الصفوف لمواجهة الأخطار المحدقة .

أما على صعيد إجابة الدعوات فانبرى العديد من الشعراء ليوضحوا أنهم كانوا عند حسن الظن ، وسجلوا بأحرف من نور صفحات من الجهاد المغاربي على أرض الأندلس لعل ابن المرحل كان أحدهم حيث قال :

شهدَ الإلهُ وأنتِ يا أرْضُ اشهَدِي أنَّا أَجَبْنَا صَرْخَةَ المُسْتَنِجد
لما دعَا الدَّاعِي وَرَدَّدَ صَوتَه قُمْنَا لنُصْرَتِه وَلَمْ نَتَرَدَّدِ [1]

فالشاعر مرتبط بعقيدته الإسلامية كون الله سيكون شهيدا وكفى به شهيدا على عظيم الاستجابة لنداء الجهاد في الأندلس ، وكذلك يضفي على الأرض صفة الشخصانية حيث تتكلم وتشهد بإجابة الداعي وقومه لاستصراخ الأندلسيين إياهم .

---

[1] ابن خلدون ، العبر (ج7 / 413).

وفي أبيات لاحقة بالقصيدة يسعى الشاعر لإبراز تلك القوة التي أعدها عبر وصفه لحركة الجيوش تحت جنح الظلام ، حيث يريد الجيش مباغتة الأعداء ، فالفرسان متجهزون على خيولهم كأنهم الشهب .

وبهذا ظل غرض الاستغاثة والاستنجاد ملازما للكوارث التي حدثت بأهل الأندلس ، وارتبط هذا الغرض بسقوط المدن في أيدي الأعداء ، وقد استحث الشعراء إخوانهم وجيرانهم من المسلمين ، حتى يهبوا في نصرتهم .

ويظهر في شعر الاستغاثة التأثر الكبير بالقرآن الكريم ودعائم الإسلام الحنيف ، حيث شكل الدين أحد اهم المنطلقات الموضوعية في شعر الاستنجاد واستنهاض الهمم .

كما لجأ الشعراء إلى استخدام التجسيد والتجسيم في صورهم البلاغية من أجل إتاحة وصف دقيق لما حل بالمسلمين ، ولإثارة شجون المستنصرين ليهبوا مدافعين عن إخوانهم .

وسجل الشعراء الأندلسيون شكرهم العظيم لكل من ساندهم ، وخلدوه في أشعارهم ، وهتفوا له بالمحامد والمدائح .

المبحث الثالث : تصوير الانتصارات في الشعر الأندلسي

لعل معركة الزلاقة التي كانت على يد القائد المسلم الكبير يوسف بن تاشفين كانت من أهم المعارك في التاريخ الإسلامي إذ إنها حافظت على الأندلس من السقوط في نهايات حكم الطوائف ، وقد كان يوما حسنا على المسلمين حتى سمي هذا اليوم بيوم العروبة لحسنه على العرب والمسلمين [1] .

وكانت الأندلس آنذاك تئن من كثرة الضربات التي تلقتها من النصارى الذين أوشكوا على القضاء نهائيا على دولة الإسلام ، حيث استغاث المسلمون بإخوانهم في المغرب العربي من المرابطين فما إن وصل كتاب الاستغاثة إلى يوسف بن تاشفين حتى " أمر الكاتب أبا بكر ابن القصيرة أن يجاوبه– وكان كاتبا مجيدا– فكتب وأطال وبالغ، فلما قرأه على يوسف استطاله وكتب على ظهر كتابه" الذى يكون ستراه

وَلَا كُتُبٌ إلَّا المَشْرِفِيّة وَالقَنَا ولا رُسْلٌ إلاَّ بالخَمِيْسِ العَرَمْرَمِ"[2]

ولما حدث القتال ودارت الواقعة قتل " من شجعان النصارى ثلاثون ألف فارس ومن الرجالة ما لا يحصى، وبعيد أن يستقصي؛ وفر أذفونش ليلاً وهو يدعو حرباً وويلا" [3] وفي ذلك يقول أبو محمد عبد الجليل بن وهبون:

نضَا أدرعه واجْتَابَ ليلاً يودّ لو أنَّه في الطّول عَامُ[4]

وكان الشاعر قد كتب هذه القصيدة في مدح ابن عباد حيث رأى شجاعته وبسالته وإقدامه في حربه ضد النصارى ، فيصور شدة بأس ممدوحه بقوله :

---

[1] ينظر :النويري ، نهاية الأرب (ج 23 / 458).

[2] النويري ، نهاية الأرب (ج23/ 456).

[3] ابن دحية الكلبي ، المطرب من أشعار أهل المغرب(ص 26).

[4] المرجع السابق ، ص 26 .

ولم يَثْبت من الأشياعِ إلا شقيقُك وهو صارمُك الحُسَامُ
يَمانٍ في يدَيْ ماضٍ يَمَانٍ فلا نابِي الغِرَارِ ولا كَهَام
ولم يحمْلك طِرفُك بل فؤاد تعَّود أن يُخاض به الحِمَام
ثَبتّ به ثَباتَ القُطْب لمّا أدَار رَحاه خَطْبٌ لا يُرام[1]

يبدأ الشاعر مدحه لابن عباد بأن وصف تلك الرابطة ما بينه وبين السيف حيث جعلها رابطة الأخوة الحميمة ، فالممدوح والسيف يعودان إلى أصل واحد كريم وهو اليمن ، ومن المعروف أصالة النسبة اليمانية للعرب ، إضافة إلى كون السيف اليماني من أمضى السيوف وأشهرها عند العرب ، أضف إلى ذلك كون صاحبه يتمتع بقلب يطير أينما سمع هيعة لقتال المشركين ، فلا نجد منه إلا الثبات ، في حيت قلوب أعدائه مرتعدة ، ووجوههم صفراء من شدة الخوف .

وفي القصيدة يواصل الشاعر الحديث حول مكر النصارى حيث عرضوا على المسلمين تحديد يوم الاثنين للقتال لكنهم أقدموا في ليل الجمعة فما وجودا إلى سيوف المسلمين تجز رقابهم وتحصدها ، ما أوقع فيهم الكثير من القتلى والأسرى ، ولم ينج منهم إلا القليل النادر ليخبروا من وراءهم بهذا الحدث الكبير الذي تساقطت فيه هاماتهم وأجسادهم كأنها أمطار سقطت برق ورعد ، وفي هذا المشهد يقول :

مضَوْا في أمرِهم سَحَراً ودارتْ بما عَقدُوا من الحَلفِ المُدامُ
فردّوها عَلَى الشَّفرات بيضاً وجدَّدَ في تعاطيها النِّدام
وما أخذتهمُ الأسياف لكن صواعقُ لا يبوخُ لها ضِرام
إذا ما برقةٌ برقَت عليهم فإنّ القَطْر أعضادٌ وهامُ[2]

---

[1] المرجع نفسه ، ص26.

[2] ابن دحية الكلبي ، المطرب من أشعار أهل المغرب(ص 26).

ومنها يصف انهزام أذفونش تحت الظلام بجيشه منهم، وإلقاء الدروع عنه وعنهم:

ستسألك النّساءُ ولا رجالٌ فحدِّث ما وراَءكَ يا عصامُ
وراقبها بأرضك طالعاتٍ كما تُهدِي صَواعقَها الغمامُ

وقد أرخ الشاعر الأندلسي أبو طالب عبد الجبار المعروف بمتنبي الأندلس لهذه الموقعة في أرجوزته التي لخص فيها تاريخ الاندلس حيث يقول :

وإذْ أَرَادَ اللهَ نصرَ الدِّين استَصْرَخَ النَاس ابن تَاشِفِيْنِ
فجاءهم كالصُّبح في إثْر غَسَق مبتدراً كالماء ينفي في رَنَق
وافى أبو يعقوب كالعقاب فجرّد السيف عن القِراب
وواصل السير الى الزلاّقة وساقه ليومها ما ساقه
لله درّ مثلها من وقْعة قامت بنصر الدين يوم الجمعة
وثلّ للشرك هناك عَرْشَهْ لم يُغْنِ عنه يومه إذْفونْشَهْ
فوجب الخلع لذي الجماعة وصرّحوا ليوسفٍ بالطاعة
فاتّصل الأمـر على النظام وامتدّ ظلّ الله للإسلام[1]

وتعد معركة الأرك من أمهات المعارك التي ضاهت الزلاقة أيضا في شدة إثخانها في النصارى حيث كانت على يد القائد المسلم يعقوب المنصور ، وأسر في المعركة الكثير من الأسرى ، وألحق بالعدو خسائر كبيرة ، حيث مكث شهرا يوزع الغنائم ، وقد جاءته رسل قائد النصارى تطلب الصلح [2] ، وفي هذا يقول أحد شعرائه :

أهلٌ بأن يسعى إليه ويرتجى ويزار من أقصى البلاد على الرّجا
من قد غدا بالمكرمات مقلّداً وموشّحاً ومختّماً ومتوّجا
عمرت مقامات الملوك بذكره وتعطّرت منه الرّياح تأرّجا[3]

---

[1] الأصبهاني، خريدة القصر وجريدة العصر(ج 2 / 215).

[2] ينظر : المقري ، نفح الطيب(ج1 / 443) .

[3] المرجع السابق (ج1 /444).

وفي هذه الأبيات يظهر الشاعر مكانة ممدوحه ، وشدة إثخانه في الأعداء ، حيث جاء العدو يرجو أن يظفر منه بقبول الصلح .

ومن الجدير ذكره أن صلاح الدين الأيوبي قد أرسل له مستعينا به على قتال النصارى من ناحية شواطئ فلسطين وأرسل له الشاعر أسامة بن منقذ على رأس وفد وخاطبه بأمير المؤمنين [1].

وكان المنصور كثير الخروج للغزو في سبيل الله ، وكان يغزو طيلة العام فيما عرف بالصوائف والشواتي يقول الشاعر مهنئا المنصور وقد غزا سنة 390 في صائفة، وكانت من أشد غزواته وأصعبها مقاما، وتعرف بغزوة جربيرة :

جَدَدتُ شكْرِي للْهَوى المُتَجَدِّدِ وعَهِدتُ عنْدَكَ مِنْهُ مَا لَم يُعْهَدِ
اليَوم عاشَ الدِّيْنُ وابتدَأَ الهُدَى غضاً وَعَادَ المُلكُ عذْبَ المورِدِ
ووقَفْتُ فِي ثَانِي حَنِينٍ وَقْفَةً فرأَيْتُ صُنْعَ اللهِ يُؤْخَذُ بِاليَدِ
مَنْ فَاتَهُ بَدرٌ وَأَدرَكَ عُمرَهُ جربير فَهُوَ مِنَ الرَّعيلِ الأَسْعَدِ
فوددت لو حتم القضاء بأنني في القوم أول طالع مستشهد
مَا أسْتَكِينُ لِرَوعةٍ، ومحمدٌ وبنُوهُ أَنْصَارُ النَّبِيِّ محمدِ
عَهْدي بِهِ، واللهُ ينظرُ صبرَهُ والموْتُ بَيْنَ مُصَوّبٍ وَمُصَعَّدِ
غطى عليه المشركون فلم يكن في القوم إلا صخرة في فدفد
حتَّى تَحَصَّنَ بالمَلائكَة التِّي حفَّتهُ بَيْنَ مُعفَّرٍ وَمُرَدَّدِ[2]

ومن تلك الغزوات التي ذكرها شعراء الأندلس ، وخلجوا فيها انتصاراتهم غزوة وادي سليط وهي من أمهات الوقائع في أيام الأمير محمد وفيها يقول عباس بن فرناس :

وَمؤتَلِفَ الأَصوَاتِ مخْتَلفَ الزَّحفِ لهوم الفَلَا عَبْل القَبَائِلِ مُلْتَفِّ
إذَا أَومضَت فِيْهِ الصَّوَارِمُ خِلْتَهَا بروْقَاً تَرَاءَى فِي الغَمَامِ وتَسْتَخفِي
كأَنَّ ذُرَى الأَعلاَم فِي مِيْلانِهَا قراقِيْرُ فِي يَمٍّ عجَزْنَ عَنِ القَذْفِ[1]

---

[1] ينظر: المقري ، نفح الطيب (ج 1 / 446).

[2] ابن الخطيب ، أعمال الأعلام(ص 72 – 73).

وفيها يقول العتبي :

سَائل عَن الثَّغرِ الصَّوَارِم تصدُق ... واسْتَنْطِق السُّمرَ العَوالِي تَنْطِق
تركَتَ وقَائعَ في الثُّغُورِ وَقَد غَدَت ... مَثَلاً بِكُلِّ مُغَرِّبٍ وَمُشَرِّق
وأَدَاخَ أَهلَ المشركِينَ بِوَقْعَة ... تَركَتْهُم مِثْلَ الأَشَاء المُحَرَّق
جاءت علَيْهِم حَرْبه بِصَوَاعِقٍ ... تَرَكَتْهُم مثل الرَّمَادِ الأَزْرَق[2]

وتناول الشعراء موضوع الحفاظ على الثغور ، وتحقيق الأمن للممالك لعل منهم الحكم بن هشام وكان ملكا من ملوك الأندلس يقول :

رَأَبْتَ صُدُوعَ الأَرْضِ بالسَّيفِ راقِعَاً ... وقدماً لأمت الشّعب مُذْ كُنْتَ يافِعَا
فَسَائِل ثُغُورِي هَلْ بِهَا اليومَ ثغرةٌ ... أُبادِرُها مستَنْضِيَ السَّيفِ دارِعا
تنبّيك أني لم أكن في قراعهم ... بوانٍ، وقدماً كنت بالسيف قارعا
وهَلْ زِدْتَ أنْ وفّيتهم صَاع قِرضهم ... فوَافَوا مَنَايَا قُدِّرت وَمَصَارِعَا
فَهذِي بِلَادِي، إنَّني قَدْ تَرَكْتُها ... مهاداً، وَلَم أَترُك عَلَيها مُنَازِعا[3]

وقد قال هذه الأبيات إثر قتاله لأهل الربض ، وهدمه لديارها ، وقد كان لهذه الحادثة أثرا كبيرا في توطين الملك لعقبه من بعده .

كما سجل الشعراء خروجهم للجهاد في سبيل الله ، وسجلوا انتصاراتهم ، فهذا عبد الرحمن بن الحكم يراسل جاريته وقد خرج غازياً إلى جليقية بعد أن طالت غيبته كاتباً:

عداني عنك مزار العدا ... وقودي إليهم سهاماً مصيبا
فكم قد تخطّيت من سبسبٍ ... ولاقيت بعد دروبٍ دروبا
ألاقي بوجهي سموم الهجير ... إذ كاد منه الحصى أن يذوبا

---

[1] ابن عذاري ، البيان المغرب(ج2/ 166).
[2] المرجع السابق(ج2/ 169).
[3] المقري ، نفح الطيب (ج1 / 342).

تدَارَكَ بِي اللهُ دِينُ الهُدى فأحيَيْتُه وَأَمتّ الصَّلِيْبَا
وسرت إلى الشّرك في جَحْفَلٍ ملَأْتُ الحَزُونَ بِهِ والسُّهُوبَا[1]

الشاعر الامير هنا يسجل خروجه للجهاد ، وانشغاله عن امور الحياة الأخرى بالانتصارات التي يحققها على الأعداء حيث يطاردهم في كل درب يسلكونه ، ويتعذر من محبوبته طروب التي كتب إليها هذه المقطوعة الشعرية معبرا عن شوقه للقياها .

أما الأمير هشام بن الحكم فقد كان يفخر بنفسه أنه كان حاميا ذائدا عن حياض المسلمين ، وقد كان هذا الفخر الذاتي يحمل الطابع الجماعي إذ لا يتحقق التمكين ولا الإثخان في العدو بشكل متفرد يقول :

رميت بنفسي هول كلّ عظيمة وخاطرت والحرّ الكريم يخاطر
وما صاحبي إلا جنانٌ مشيّعٌ وأسمر خطّيٌّ وأبيض باتر
فسدت بنفسي أهل كلّ سيادة وفاخرت حتى لم أجد من أفاخر
وما شدت بنياناً ولكن زيادة على ما بنى عبد المليك وعامر
رفعنا المعالي بالعوالي حديثة وأورثناها في القديم معافر[2]

فهو هنا يفخر بركوبه الأهوال ويخاطر بنفسه ، ويبذل روحه من أجل الحفاظ على كرامة المؤمنين وملكهم في الأندلس ، ويذكر دوام استعداده لمواجهة الخطوب حيث لا يفارق السيف والرماح التي تربطه بها علاقة الصحبة والمجاورة التي لا تنفك أبدا .

ويواصل حديثه في إطار الفخر لذاتي بإشارة إلى كونه سيد السادة الذي لا يجارى ولا يبارى فليس له في مكانته مثيل أو بديل ، فهذه الصفة ملازمة له قدما وحداثة .

لقد شكل شعر وصف الانتصارات ملمحا بارزا في الشعر السياسي في الأندلس ، وذلك يرجع إلى كثرة الوقائع التي حدثت في الأندلس والتي كانت في معظمها بين المسلمين والنصارى ،

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج 349/1) .
[2] المقري ، نفح الطيب (ج 400/1).

الذين لم يفتروا في خوض الحروب على المسلمين في كل الحقب الزمانية التي حكم فيها المسلمون الأندلس .

ولعل هذه الحروب الكثيرة أدت إلى ظهور هذا النوع من الشعر ، حيث ذكر الشعراء الأندلسيون فروسيتهم ، وأرخوا لأبرز معاركهم التي خاضوها ضد النصارى ، وذكروا حسن بلائهم فيها ، وعبروا عن شجاعتهم .

ومما قيل في ذلك ما أشاد به الشاعر الأندلسي ابن زمرك مشيدا بشجاعة المقاتل الأندلسي وبراعته أثناء القتال :

يَا آلَ نَصرٍ سرْجُ الهُدَى فِي كُلِّ خَطْبٍ قَد تجَهْتُم مُظْلِم
الفاتِحُونَ لكُلِّ صَعْبٍ مُقْفَلٍ والفَارجُونَ لِكُلِّ خَطْبٍ مُبْهَمِ
الباسِمُونَ إذا الـكُماةُ عوابسٌ والمُقْدِمون على السَّوَادِ الأَعْظَمِ
أبنَاءُ أنْصارِ النَّبِيِّ وحزبه وذوي السَّوَابِقِ والجِوَارِ الأعظَمِ [1]

فالشاعر هنا يتحدث مخاطبا آل نصر الذين لهم حكم في الأندلس بانهم أصحاب شجاعة وإقدام وبسالة بما يقدمون عليه من خوض أصعب المعارك في أقسى الظروف ، فيتحقق لهم الفتح لكل مقفل مغلق دونهم ، ويواصل نعتهم بأن الفرج يأتي على أياديهم وإن عظمت الخطوب والدواهي ، وعلى الرغم من هذه الشدة الكبيرة والعبوس الشديد غير أنهم لا يهابون الإقدام ولا يرتعدون من هول المصيبة بل هم الباسمون الذين تحل بهم العقد ، وتيسر بهم الأمور ، كيف لا ؟ وهذا حال ملازم لهم منذ أن كانوا خدما لرسول الله صلى الله عليه وسلم ، ويعد الشاعر من مناقبهم الانتصارات الملازمة لهم وحسن إجارتهم الكريمة للمسلمين .

ويأتي هذا النوع من الشعر في إطار المديح السياسي لآل نصر تأييدا لهم على من دونهم من حكام الأندلس في ذلك الزمان .

---

[1] ابن زمرك الغرناطي ، الديوان (ص112).

ومن المدح السياسي أيضا ما أشار إليه ابن الأبار من انتصارات خالدة لأبي زكريا الحفصي يوم أن استنجد به لنصرة بلنسية إثر محاصرة القشتاليون لها حيث قال :

أيام صرت لنصر الحق مستبقا وبت من نور ذاك الهدى مقتبسا
وقمت فيها بأمر الله منتصرا كالصارم اهتز أو كالعارض انبجسا
تمحو الذي كتب التجسيم من ظلم والصبح ماحية أنواره الغلسا [1]

وفي الأبيات إشادة بشجاعة الممدوح بصورة بليغة ، فهو الصباح الذي يزيل العتمة والغلس ، وهو السيف البتار المنتصر بأمر الله ، وهو الماء الزلال المنبجس ليطهر الرجس ويزيل الظلم .

لقد مثلت الانتصارات على النصارى ومحاربتهم إحدى أهم موضوعات قصيدة المديح السياسي في الأدب الأندلسي فهذا لسان الدين بن الخطيب يشيد بأبي الحجاج فيقول :

وَلَمَّا أَبَى الأعدَاءُ إلا لجَاجَة نَهَضْتَ بِأَمرِ اللهِ أَحْسَنَ ما نَهَضْ
مقِيمَاً بما استرْعَاكَ فرض جِهَادِهِم ولَمْ تأْلُ في نَدْبٍ إليْهِ وفي حَض
وأعددت مِن غُرِّ الجِيَادِ صوافِنَاً مطهمة مِنْ كُلِّ أَجْرَدَ منقَضْ [2]

لقد أجاد الشاعر في استخدام كلمات النهوض والإعداد والتجهيز للحرب مع النصارى في معجمه الشعري ،في هذا إشادة بأبي الحجاج النصري ، الذي كان من أهم أعمدة الدفاع عن الأندلس في مرحلة الضعف والتوتر العام الذي شهدته هذه الدولة ، وفي إشادة الشاعر بهذه الميزة يقرر لدى المتلقي مفهوم الانتصار في المعارك ضد الأعداء .

ويقول أيضا في وصف انتصار آخر في إحدى المعارك مع النصارى :

هُوَ النَّصر بادٍ للعيونِ ، صبَاحُهُ فما عُذْر صدرٍ ليَس يَبْدُو انشِرَاحَه
حديثٌ تَهَادَاهُ الرَّكائِبُ في السُّرَى وتجلى عَلَى رَاحِ المَسرَّة رَاحه

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج6 / 216–217) .

[2] ابن الخطيب ،الديوان(ج1 / 33) .

وآيةُ بُشرى هزَّ معطفه الهُدَى لَهَا وتبدى للزَّمَانِ ارتياحه
وأَصبحَ دينُ الله قد عزَّ جاره بموقعه والكُفر هِيْضَ جناحه [1]

فالنصر متحقق كفلق الصبح ، وبتحققه يكمن الفخار للإسلام ، ففيه ترى البشرى والخير ، حيث يتناقل أنباء هذا النصر ركبان المسافرين ، يطلون به على العشائر والمجن والقبائل ويبثونه في ربوع الأندلس بشارة وهدية .

لقد تميز الأندلسيون بابتكار المعاني ، والافتنان في أساليب الخيال ، ولا سيما في وصف الجيوش والرماح والسيوف ، حيث جمعوا بين الجزالة المشرقية والعذوبة الأندلسية في أشعارهم [2]

فهذا ابن زمرك يصف أسطول السلطان المريني القادم لنصرة الجيوش الأندلسية فيقول:

أركبته فِي المُنشَآت كَأنَّما جهزتــه فِي وَجْهِهِ كَمَزَار
من كل خافقة الشراع مصفق منها الجناح تطير كل مطار
أَلْقَتْ بأيْدِي الرِّيْح فضلَ عنَانها فَتَكادُ تَسْبِق لَمْحَة الأبصار
مثلَ الجيادِ تدَافَعَت وَتَسَابَقَت مِن طافِحِ الأَمواجِ فِي مِضْمَار
لله مِنْها فِي المَجَازِ سَوَابِح وَقَفَت عَلَيْك الفَخْرُ وهْيَ جَوَارِي
لما قصدت بها مراسي سبتة عطفت على الأسوار عطف سوار [3]

فالسلطان يسر في عرض البحر ، وأسطوله كالطائر القوي المحلق بعزة في وسط السماء متحديا الرياح الهوجاء القوية ، لكنها لا تؤثر عليه لقوته وسرعته حيث طار كلمح البصر ، فالسفن كالجياد المضمرة القوية التي تسير بثبات وجدة بسباق الفائزين .

---

[1] ابن الخطيب، الديوان(ج 1 /105) .
[2] ينظر : يوسف الطويل ، مدخل إلى الأدب الأندلسي (ص 37) .
[3] المقري ، أزهار الرياض (ج2 / 29) .

لقد كانت ملامح الوصف كبيرة في هذه المقطوعة ، ويظهر ذلك من خلال تتابع الأفعال المختلفة التي تصف حركة السفينة (تطير – تدافعت – ألفت – تسابقت) وبهذا نجح في وصف قوة السلطان وشدة بأس جيشه ، في صورة تعبيرية جميلة .

نلاحظ مما سبق أن الشاعر الأندلسي واكب تسجيل الانتصارات وتصويرها منطلقا إما من إحساس ذاتي بقيمة هذه الانتصارات ، وخاصة فئة الشعراء الأمراء الذين كان لهم دور مهم بارز في تحقيق الغلبة على الأعداء ، وإما من جانب المديح والثناء للقادة والولاة طلبا للتكسب والحظوة .

وقد سجل الشعراء في هذه الانتصارات مظاهر التغلب على الأعداء حيث ذكروا ما آل إليه حال الأعداء من المهانة والذلة والهرب والقتل والأسر ... إلخ .

واستعان الشعراء في تصويرهم لمظاهر النصر بالصورة الكلية حيث استخدموا صورا معتمدة على الحركة واللون والصوت إضافة إلى استخدام الصور الجزئية المليئة بالتجسيم والتشخيص .

المبحث الرابع : تصوير الهزائم في الشعر الأندلسي

تداخل هذا الغرض مع موضوع رثاء المدن التي سقطت في براثن النصارى ، ولعل صدى النكبات بدأ في الأندلس من لحظة سقوط مدينة بربشتر على يد الاردمانيين ، وقد أثارت تلك الحادثة مشاعر الشعراء والفقهاء والعامة ، ومنهم الفقيه الزاهد ابن العسال، الذي صور في إحدى قصائده ما حل يومئذ تصويراً عاما من النوع المألوف المكرر في ذكر ضروب الفواجع التي نزلت بالناس:

ولقد رمانا المشركون بأسهم ... لم تخط لكن شأنها الصماء
هتكوا بخيلهم قصور حريمها ... لم يبق لا جبل ولا بطحاء
جاسوا خلال ديارهم فلهم بها ... في كل يوم غارة شعراء
باتت قلوب المسلمين برعبهم ... فحماتنا في حربهم جبناء
كم موضع غنموه لم يرحم به ... طفل ولا شيخ ولا عذراء
ولكم رضيع فرّقوا من أمه ... فله إليها ضجة وبغـــــاء
ولرب مولود أبوه مجدل ... فوق التراب وفرشه البيداء
ومصونة في خدرها محجوبة ... قد أبرزوها ما لـــها استخفاء [1]

وقد كثرت استغاثة الشعراء إثر سقوط هذه المدينة وجاهروا ببكائهم عليها وطلبوا النصرة من ملوك الأندلس ، فهذا الهوزني صديق العباد اخذ يراسل عبادا ويحثه على الجهاد والتنبيه للأمر الداهم. ومن رسائله إليه في هذا الشأن:

أَعَبَّادُ حَلَّ الرَّزْءُ وَالقَوْمُ هُجَّعُ ... عَلَى حَالَةٍ من مثْلُها يُتَوَقَّعُ
فَلَقِّ كِتَابِي مِنْ فَرَاغِكَ سَاعَةً ... وَإِنْ طَالَ فَالمَوْصُوفُ للطُّولِ موضعُ [2]

وكتابي عن حالة يشيب لشهودها مفرق الوليد، كما يغبر لورودها وجه الصعيد، بدؤها ينسف الطريف والتليد، ويستأصل الوالد والوليد، تذر النساء أيامي، والأطفال يتامى؟ طمت حتى خيف على عروة الإيمان الانتقاض، وطغت حتى خشي على عمود الإسلام منها الانتقاض،

---

[1] الحميري ، الروض المعطار (ص 90) .

[2] المغربي : المغرب في حلى المغرب(ج 1 / 240).

وسمت حتى توقع على جناح الدين الانهياض؟ كأن الجميع في رقدة أهل الكهف، أو على وعد صادق من الصرف والكشف" [1].

ومن الكوارث العظيمة أيضاً سقوط طليطلة (478) وهي من حيث نتائجها أعظم خطرا من سابقتها بكثير، وبها يرتبط التحول الخطير الذي تم في التاريخ الأندلسي فأدى إلى دخول المرابطين ثم إلى سقوط دول الطوائف واندثارها[2].

وفي هذه الكارثة أكثر الشعراء من النحيب والبكاء لا سيما ابن عسال الذي تعتبر هذه المدينة مسقط رأسه ، يذكر لنا هذه الكارثة بصوت انهزامي لهول ما رأى من سقوط تلك المدينة الكبيرة ، ما حدا به أن يدعو الأندلسيين إلى الرحيل " ولكن هذا اللون السلبي من التعبير عن الحقيقة كان يومئذ مبالغة في التنبيه والتذكير"[3] ، فيقول :

يَا أَهْل أَنْدلسٍ حُثُّوا مُطِيكم فمَا المُقَامُ بِهَا مِن الغلط
الثَّوب يَنْسَل مِن أطْرَافِه وأَرَى ثَوْبَ الجَزِيْرَةِ منْسُولاً مِنَ الوَسَطِ
ونَحنُ بينَ عَدُوٍ لا يُفَارِقنا كيفَ الحَيَاةُ معَ الحَيَّات فِي سَفَطِ[4]

وقد روي الشطر الأول من البيت الأخير بقوله: **(ومن جاور الشر لا يأمن بوائقه)** .

وقال شاعر آخر في ذات المعنى :

يا أهل أندلس ردوا المعار فما في العرف عارية إلا مردات
ألم تروا بيدق الكفار فرزنه وشاهنا آخر الأبيات شهمات[5]

---

[1] عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين (ص 179) .
[2] ينظر: المرجع السابق ، ص 183 .
[3] المرجع نفسه ، ص 183 .
[4] المقري ، نفح الطيب ، (ج4 /352).
[5] المقري ، نفح الطيب (ج4 /352).

لكن المتابع لهذه الأصوات التي يظن للوهلة الأولى أنها انهزامية يجدها تهدف إلى التحذير والتوعية وإيقاظ الهمم ، إضافة إلى تحديد المسئولية ، فيغلب عليها صوت الجماعة لا الفرد يقول لسان الدين بن الخطيب :

فَقُوموا بِرَسْمِ الحَقِّ فينَا فَقَد عَفَا وهُبُّوا لِنَصْرِ الدِّيْنِ فيْنَا فَقَدْ أَشْفَا
وهَا نَحْنُ قَدْ لُذْنَا بِعِز حِمَاُكم ونَرجُو من اللهِ الإِدَالَة واللُّطْفَا

فالشاعر هنا استخدم أسلوبا تحريضيا ، وهذا إنما يدل على عظم حجم المأساة ، إضافة إلى حالتي الضعف والذل التي وصل إليها الشاعر ، حيث لا يجد كفيلا إلا لطف الله ، وقد كان الشاعر عجولا في رغبته للتغيير والخلاص .

هذا وقد توقع بعض الشعراء أن تزول هذه المدينة ، وردوا ذلك إلى سياسة الحكام ، ذلك أن المأمون يحيى بن ذي النون صاحب طليطلة بنى بها قصراً تأنق في بنائه، وأنفق فيه مالاً كثيراً، وصنع فيه بحيرة، وبنى في وسطها قبة، وسيق الماء إلى رأس القبة على تدبير أحكمه المهندسون، فكان الماء ينزل من أعلى القبة حواليها محيطاً بها متصلاً بعضه ببعض، فكانت القبة في غلالة من ماء سكب لا يفتر، والمأمون بن ذي النون قاعد فيها لا يمسه من الماء شيء، ولو شاء أن يوقد فيها الشمع لفعل، فبينما هو فيها إذ سمع منشداً ينشد:

أتبني بناء الخالدين، وإنما بقاؤك فيها، لو علمت، قليل
لقد كان في ظل الأراك كفاية لمن كل يوم يعتريه رحيل[1]

وفي هذه الكارثة احتفظ لنا المقري بقصيدة بكائية طويلة مجهولة القائل تصف ألم ما وقع فيها من إبادة وتهجير قسري لسكانها من المسلمين يقول فيها :

لِثَكلِكَ كَيْفَ تَبْتَسمُ الثُّغُورُ سروراً بَعْدَما سُبِيَتْ ثُغُور
أمَا وَأَبِي مُصابٌ هُدَّ منْهُ ثبِيْرُ الدِّيْنِ فاتَّصَلَ الثُّبُورُ
لقَدْ قُصِمَت ظهورٌ حِيْنَ قَالُوا أميْرُ الكَافِرِينَ لَهُ ظُهُورُ
تَرَى في الدَّهرِ مسرُوراً بِعَيْشٍ مَضَى عَنَّا لطيته السُّرورُ

---

[1] المرجع نفسه (ج4 /353).

أَلَيسَ بهَا أَبِيَّ النَّفسِ شَهمٌ يُديْرُ على الدَّوَائِرِ إِذْ تَدُوْرُ
لقَدْ خضَعَتْ رقابٌ كنَّ غُلْبَاً وَزَالَ عُتُوُّهَا ومَضَى النُّفُوْرُ
وهان على عزيز القوم ذل وسامح في الحريم فتى غيور
طليطلة أباح الكفر منها حماها، إن ذا نبأ كبير[1]

وهي قصيدة طويلة زادت عن السبعين بيتاً ، وأورد الشاعر فيها ما كان من تبديل حال هذه المدينة من حال الإسلام إلى الكفر ، ومن الأمن إلى الحرب ، ومن الهناء إلى الشقاء .

ومن الكوارث التي حدثت في الأندلس كذلك سقوط بلنسية ، وكانت من كبريات المدن الأندلسية وقد وصف ابن خفاجة صورة الهزيمة الواقعة فيها بقوله :

عَاثَتْ بسَاحَتِك العدى يَا دَارُ ومحَا مَحَاسِنِك البِلَى والنَّأْرُ
فَإِذَا تَرَدَّد في جَنَاحِك نَاظِر طَالَ اعتِبَار فيْكِ واستِعْبَارُ
أَرْضٌ تَقَاذَفَت الخُطُوبُ بأَهْلِهَا وتَمَخَّضَت بِخَرِابَها الأَقْدَارُ
كتبت يدُ الحَدَثَان فِي عَرَصَاتِها " لا أُنتِ أَنْت وَلَا الدِّيَارُ دِيَارُ[2]

وفي هذه الأبيات يشكو الشاعر تبدل أحوال هذه المدينة ، حيث كانت جزءا جميلا من حياته إذ نشأ فيها وترعرع ، وقد سار ابن خفاجة بشعره إلى الملوك والأمراء والعلماء يشكو إليهم ما حل ببلنسية ما حدا ببعضهم أن يجهز لنصرة تلك المدينة وقد سجل خبر انتصار البلنسيين على الإسبان بقوله :

الآن سح غمام النصر فانهملا وقام صغو عمود الدين فاعتدلا
ولاح للسعد نجم قد خوى فهوى وكر للنصر عصر قد مضى فخلا[3]

---

[1] المقري ، نفح الطيب(ج483/4).

[2] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين (ص 187) .

[3] ابن خفاجة ، الديوان (ص 208) .

وفيها قال ابن الأبار قصيدته الطويلة المشهورة التي مطلعها :

أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها درسا [1]

ولعل المعتمد بن عباد كان من أكثر الشعراء الذين صوروا الهزيمة لأنه كوي بنارها ، حيث تبدل حاله وأهله فأضحى خادماً بعد أن كان ملكا يقول في تصوير حال أهل بيته :

فيما مَضَى كنتُ بالأَعيَادِ مسْرورَا فسَاءَك العيْد في أَغْمَاتَ مأْسُورَا
تَرى بَنَاتَك فِي الأَطمارِ جَائِعةً يَغزِلْنَ للنَّاسِ مَا يَمْلكن قِطْمِيْرا
برزْنَ نَحْوَك للتَّسْليمِ خَاشِعَة أبْصَارَهُنَّ حَسِيْرَات مَكَاسِيْرَا
يَطَأنَ فِي الطِّين والأقدامُ حَافِيَةٌ كأنَّهَا لَم تَطَأْ مِسْكَاً وَكَافُورَا
لا خد إلا تشكى الجدب ظاهره وليس مع الأنفاس ممطورا
أفطرتُ فِي العِيْدِ لا عادَت مسَاءَتَه فكَان فِطرك للأَكبادِ تَفْطِيْرَا
قَدْ كانَ دَهرُكَ إن تَأْمُرْهُ ممتثلاً فردك الدَّهر منهياً ومَأْمُورَا
من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا[2]

وقد قال هذه القصيدة في يوم العيد ، وكان قد تذكر حاله أيام الأعياد في دار الملك ، واضحى اليوم أسيرا ، ويشكو جوع بناته ، اللاتي جئن ليسلمن عليه منكسرات ، لا يجدن ما يكسوهن كسوة تليق بهن ، ولا حتى أحذية يلبسنها إذ يمشين على الطين وقد كن يمشين على الكافور والفراش الممسك .

وبهذا ينجح الشاعر في تصوير ما آلت إليه حاله ، وما شعر به من مهانة الإنهزام ، وفاجعة التراجع والخذلان .

فلا غرو أنه أكسب نكبته طبيعة المأساة الحزينة بما نظمه حولها من شعر، وقد أتاحت له هذه الكارثة رؤية من وفوا له وطلب منهم أن يستمدوا من الحادثة عبرة كبرى عن تقلب الأيام.

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج4 /457) .

[2] المرجع السابق (ج4 / 274).

وفي رحى هذه النكبة تطل ابنته تشكو حالها الذي صارت إليه فتقول :

لا تنْكِرُوا أنِّي سُبِيْتُ وأنَّنِي بنْتٌ لملِكٍ مِنْ بَنِي عَبَّاد
ملكٌ عظيمٌ قدْ تَوَلَّى عَصْرَهُ وكَذَا الزَّمَان يَؤُوْلُ للإفْسَاد
لما أرادَ اللهُ فرقَةَ شَمْلَنَا وأذاقَنَا طعْمَ الأَسَى عَنْ زَادِ
قَام النِّفاقُ عَلَى أَبِي في مُلْكِهِ فدَنَا الفراق وَلَم يَكُن بِمُرَاد[1]

وقد كان ابن اللبانة من أكثر الشعراء الذين تتبعوا المعتمد بن العباد ، وكانوا اوفياء له ، فاختلط الحزن في شعره كثيرا على انكسار دولته ، حيث بات لا يرى جمالا ولا هناء ولا سعادة بعد فقد أغمات وحاكمها يقول :

انْفِضْ يديْكَ مِنَ الدُّنيا وساكِنَهَا فالأرْضُ قد أقْفَرَت والنَّاسُ قدْ ماتُوا
وَقُل لِعَالِمِهَا قَدْ كتمت سريرة العالَمِ العُلْوِيِّ أَغْمَات
طَوَت مظَلَّتَهَا لا بَلْ مَذَلَّتَها من لَمْ تَزَل فَوقَهُ للعز رايات
مَنْ كَانَ بينَ النَّدَى والبأسِ أَنصلَه هنديةٌ، وَعَطَاياهُ هُنَيْدَاتُ[2]

وقد رثاه ابن عبد الصمد بعد موته عندما وقف على قبره فقال :

ملك الملوك، أسامع فأنادي أم قد عدتك عن السماع عوادي
لما خلت منك القصور فلم تكن فيها كما قد كنت في الأعياد
قبلت في هذا الثرى لك خاضعاً وتخذت قبرك موضع الإنشاد[3]

لم يقف الشعر أمام المأساة بل راح يسجل نهايات المأساة بصورة دامية ، وعبارة قاسية.

أما مأساة سقوط غرناطة فقد كانت مثيرة للأشجان خاصة أنه طال حصارها من قبل الأسبان يقول العقيلي في وصف حال سكانها المحاصرين :

بالطَبْـــلِ في كلِّ يـــومٍ وبالنَّفيْـــرِ نـــــُـــ رَاع

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج 4 / 284).
[2] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين (ص 187) .
[3] المقري، نفح الطيب (ج4 / 224) .

وليـــْس مِنْ بَعْـــد هَذَا وذاك إلا القِـــــــرَاع
يـَا رَب جيـْـــرُك يرجـو مَن هِيـــْـــضَ منْه الذِّراع
لا تَسْلبنـــــي صَبـْـرَا منه لقِلَّتـــِي ادِّراع [1]

وقد اتصل بهذا النوع من الشعر معان مقاربة لمعاني رثاء المدن ، حيث قامت على اعتبار ديني فبعضهم مثلا يرى ما يحدث للمسلمين من باب القضاء والقدر يقول العقيلي :

وَلَا تُعَاتِب على أَشْياءَ قَدْ قدرت وَخُطَّ مَسْطُورها في اللَّوحِ بالقَلَمِ
حِكَمٌ مِنَ اللهِ لا مَرَدَّ لَهُ وهَلْ مرد لحُكْمٍ منه منحتم [2]

وفي الأبيات السابقة يظهر استسلام الشاعر ، وتعليقه ما حل بالمسلمين في غرناطة من باب القضاء والقدر .

ويرد بعضهم ما حصل للمسلمين بسبب ذنوب ومعاص ارتكبت منهم ، لعل من أهمها التغافل عن فرض الجهاد في سبيل الله تعالى وتعطيله :

عدتْنِي بأقصَى الغَرْبِ عن تُرْبك العِدَا جلالقَة الثَّغر الغَرِيبِ ورومُهُ
أجَاهِد منهم في سبِيْلك أمَّة هي البَحْرُ يعيي أمْرُهَا مَنْ يرُومُه
فلولا اعتناء منك يا ملجأ الورى لريع حماه واستبيح حريمه
فلَا تَقطع الحَبْلَ الذِّي قد وَصَلته فَمَجْدُك موفُوْر النَّوَالِ عميمه[3]

لذا فمن الملاحظ أن مثل هذه الأشعار جاءت مملوءة بالانفعالات الذاتية ، فالشاعر يتحدث بقلبه قبل أن ينشد شعره إذ إنه كان يشعر بمرارة الخسارة والضياع للبلاد الإسلامية في الأندلس يقول ابن الخطيب إثر وقيعة طريف :

لا كَانَ يَومكَ يَا طَرِيفُ فَطَالَمَا أَطْلعْت للآمَالِ بَرقَاً خَلبا
ورَميْت دِينَ اللهِ مِنْكَ بِفَادِحٍ عمَّ البَسيط مُشَرقاً وَمغربا

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج 6 /304).
[2] المقري ، نفح الطيب (ج 6 / 283-284) .
[3] ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة (ج4/ 460).

وخصصتني بالزرء والثكل الذي أوهى القوى مني وهد المنكبا
لاْ حسن للدُّنيَا لدي وَلَا أَرَى للعَيْشِ بَعْد أبِي وَصنوِي مأْرِبَا
لَولَا التَّعَلُّل بالرَّحيْلِ وَأنَّنا ننْضِي مِنَ الأَعمَار فيْها مرْكِبا

...

وإذا اعتمدت الله يوماً مفزعاً لَمْ تُلفِ منْهُ سوَى إلَيْهِ المَهْرَبا[1]

ويتضح من خلال الأبيات السابقة التفجع على الهزيمة التي مني بها الأندلسيون في هذه الموقعة ، فيوضح هول الصدمة التي تلقاها من هذا النبأ الحزين ، وتظهر ملامح الإحباط والقلق كسمت عام لهذه القصيدة حيث إن النكبة لم تكن خاصة بل كانت عامة تعلقت بمستقبل الدين.

وقاد هذا الشعور المنهزم ابن هود الجذامي إلى إعلان تذمره من الزمان والشكوى منه حيث يقول :

ضَللتُم جَميعَا آلَ هُودٍ عَن الهُدى وضيَّعتُم الرَّأي الموفَّق أَجْمَعَا
وَشئتُم يَمين الملك بيْ فَقَطَعْتُم بِأَيديكُم مِنْهَا – وبالغدر – إِصْبَعَا
وَلَا تَقْطَعُوا الأَسْبَابَ بَيْنِي وَبَيْنَكُم فأنفكُمْ مِنْكُم وَإِنْ كَانَ أَجْدَعَا [2]

حيث يختم أبياته بازدراء وسخرية عالية تتمثل في كنايته (**فأنفكم منكم وإن كان أجدعا**) وفي الأبيات إحالة للمصائب إلى الزمن .

ففي هذا النوع من الشعر تتجسد النكبات العامة التي حصلت لبلاد الأندلس ، سواء أكانت تتمثل بزوال المدن أم بذهاب الممالك، وقد حاول الشعراء أن يصوروا مظاهر القلق والتشاؤم التي أحاطت بالأندلسيين جراء الهزائم المتلاحقة .

---

[1] ابن الخطيب ، الديوان (ج1 / 107) .

[2] ابن الأبار ، الحلة السيراء (ج2 / 165) .

كما تميز هذا النوع بالاستدعاءات التاريخية ، واعتبار أن الزمن يمر بالدولة فتتآكل مع مروره كحال الإنسان كلما زاد عمره قرب أجله .

وقد جاءت هذه الأشعار مملوءة بالانفعالات الذاتية المفعمة بالحزن والأسى على ما مضى وفات من أيام جميلة ، وتميزت هذه الانفعالات بالصدق العاطفي ، وقد ظهر التفجع كسمة بارزة في هذا الشعر .

المبحث الخامس : الهجاء السياسي في الأندلس

إن المتابع للحياة السياسية في الأندلس يشعر بأن الأندلسيين لم يقدر لهم الاستمتاع بحياة سياسية مستقرة " فعهد الولاة كان عهدا مضطربا ، قامت فيه من ناحية ثورات البرابرة ضد العرب ، واستحكم الشقاق والتنافس من ناحية أخرى بين مختلف الولاة القادمين من الشرق ، وانتقلت معهم العصبية القبلية ، وبدأ نزاعها ظاهرا بين القيسية واليمنية " [1] .

هذا وقد أخذت عوامل الضعف تفت في عضد الدولة الأندلسية وخاصة في نهايات الحكم الأموي ، حيث ضعف الخلفاء ، وأضحت البلاد نهبا لفتنة عاتية قضت على الخلافة ، وزقت أركان الأندلس ، وانقسمت الأندلس إلى دويلات وطوائف ، يستأثر بها حكامها ، وأنفق الحكام الأموال الطائلة في سبيل الحفاظ على ملكهم ، واستعانوا بالنصارى على إخوانهم ، وأخذت المدن الأندلسية تتهاوى تحت حكم النصارى .

وقد كانت هذه الفتن المدلهمة أحد أهم أسباب ظهور الهجاء السياسي في الأندلس ، وهو متعلق بكل ما يتصل بشئون الحكم وأمور سياسة الدولة ، وفيه يعبر الشاعر عن رأيه تجاه القبيلة أو الإقليم أو الحزب أو الدين فالشاعر في هذا اللون " يعبر عن جماعة هو أحدها ، ولا يكاد يحس بشخصه إلا في حدود هذه المجموعة " [2] .

ظل الهجاء السياسي بارزا في الشعر الأندلسي ،حيث ظهر في أكثر من صورة توزعت بين هجاء الملوك والحكام ، والهجاء القبلي، وهجاء البربر والروم واليهود ، وسنتناول في هذا المبحث طرفا من هذه الأنواع على سبيل الذكر لا الحصر بما يتم الفائدة إن شاء الله تعالى .

ولعل هجاء الحكام كان من أكثر ألوان الهجاء السياسي كثرة فيما وصل لنا من أشعار ، وقد كثر هذا اللون من الهجاء في الأندلس نظرا لأسباب سياسية ، حيث كان الشعراء يصورون في هذا اللون من الشعر استبداد الحكام بالسلطة ، وتقاعسهم عن الجهاد ، وإهمال شئون الرعية .

---

[1] الركابي ، في الأدب الأندلسي (ص 14).

[2] حسين، الهجاء والهجاؤون في الجاهلية (ص 114).

والملاحظ أن " أغلب قصائد هذا الضرب من الهجاء لا تنسب لقائل بعينه ، وذلك لخشية الشعراء من بطش الحكام " [1].

ربما كان هجاء المنصور بن أبي عامر يعد من بواكير الهجاء السياسي في الأندلس ، وذلك لما فعله بأمراء بني أمية من تشريد وقتل حتى استأثر بالسلطة والحكم ظلما وزورا ، ومما يروى في ذلك أنه قام بالحجر على الخليفة هشام المؤيد ، ولم يأذن لأحد بالدخول عليه منذ ولي الخلافة ، وكان هذا الفعل بداية لنهاية حكم بني أمية في الأندلس يقول أحد الشعراء في وصف هذه الحالة :

أَبَنِي أُمَيَّة أَيْنَ أَقْمَار الدُّجَي ... منْكُم ؟ وَأَيْن نُجُومُهَا والكَوكَبُ
غابَت أُسُود منْكُمُ عَنْ غَابِهَا ... فلذاك حَازَ الملكَ هَذَا الثَّعْلَبُ [2]

ويصف ابن عذاري هشام بن عبد الجبار بأبشع الصفات حيث بدا منه الفجور والخلاعة ، وبدا منه من أفعال المجان ما لا يظهر من أهل الدعارة المتهتكين فيها ، حيث لم يزل طول فترته مشتهرا بالفسق ، مظهرا للخلاعة ، لا يفيق من سكر ، ولا يرع عن منكر بالنساء والصقالبة والملاهي يقول الشاعر :

أَميرُ النَّاسِ سخنَةُ كُل عَيْنٍ ... يَبِيت اللَّيل بَيْنَ مُخَنَّثِيْن
يَجشمُ ذَا ويَلثِم خَدَّ هَذَا ... وَيَسكرُ كُلَّ يَوْمٍ سَكْرتَينِ
لقَدْ وَلوا خِلَافتهم سَفِيْهَا ... ضَعِيف العَقْل شَيْئا غَيْرَ زَيْن [3]

وقال فيه بعضهم :

أَشْأم خَلقٍ عَلَى العِبَادِ ... والنَّاسُ من حاضِرٍ وباد
أبو الوليد الَّذِي اقْشَعَرَّت ... لِنَحْسِه شعْرَة البِلَادِ

---

[1] عيسى ، الهجاء في الأدب الأندلسي (ص34).
[2] المقري ، نفح الطيب (ج1 / 591) .
[3] ابن عذاري ، البيان المغرب (ص 79).

كان على قومه جميعا مزار عاد لقوم عاد[1]

ومن الهجاء السياسي ما عرض به ابن شرف بالمعتضد بن عباد وندد بما قيل عن بطشه بكثير من وزرائه وندمائه حيث يقول :

أأن تصديت غيري صيد طائرةٍ أوسعتها الحب حتى ضمنها القفص
حسبتني فرصة أخرى ظفرت بها هيهات ما كل حين تمكن الفرص
وظاهر حسن أيضاً لقصتها لكن لها باطن في طيه قصص
لك الموائد للقصاد مترعة تروي وتشبع لكن بعدها غصص
ولست أعجب من قوم بها انتشبوا لكنما عجبي من معشر خلصوا
ولم يطب قط لي من يلذ ولا سلوى إذا كان في عقباهما مغص[2]

وقد هجا ابن زيدون المعتضد بعد وفاته ووصمه بالطاغية حيث يقول :

لقَدْ سَرَّنا أَنَّ النَّعيَ موكَّلُ بطَاغِيَةٍ قَدْ حُمَّ منْهُ حُمام
تَجَانَف صوبَ الغيق عنْ ذلِكَ الصَّدَى وَمَرَّ علَيْه البَرْقُ وَهُوَ جِهَامُ [3]

ومن القصائد المشهورة في هجاء بني العباد قول ابن رشيق في سبب زهادته في أرض الأندلس :

ممَّا يُزهِّدنِي في أرْضِ أندلسٍ تلقيب معتضَدٍ فِيْهَا وَمُعْتَمد
ألقابُ مملكةٍ في غيرِ موضعها كالهِرِّ يحكي انتفَاخَاً صولَةَ الأَسَدِ [4]

---

[1] ابن عذاري ، البيان المغرب (ص 80).

[2] ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة(ج7 /182).

[3] ابن زيدون ، الديوان ، (ص 593) .

[4] المقري ، نفح الطيب (ج1 / 214) .

وقد عرض الشعراء بالمعتمد وبأهله وعياله ، ومن هذا القصيدة التي عرض فيها ابن عمار لهجاء الرميكية زوجة المعتمد والتي قال فيها :

تَخَيرتُها مِن بَنَاتِ الهِجَان رمَكَيَّة ما تساوي عِقَالَا
فَجَاءَت بِكُل قصيرِ العَذار لئيم النجارين عَمَّاً وَخَالَا
قِصَارُ القُدودِ وَلَكِنَّهُم أَقَامُوا علَيهَا قُرُوناً طِوَالَا
أَتَذْكُر أَيّامَنَا بالصِّبَا وَأَنْت إِذَا لُحْتَ كُنْتَ الهِلَالَا
أعانق منك القضيب الرطيب وأرشف من فيك ماءً زلالا
وَأَقْنَعُ مِنْكَ بِدونِ الحَرامِ فتقسِمُ جهدِكَ أَنْ لا حَلَالَا
سَأَهتِك عَرضِك شيئاً فَشَيئاً وأَكشِفُ سَترِك حالاً فحَالْا

....

فيا عَامِرِ الخَيْل يَا زَيْدَه أَمنَعت القرى وأَبَحْت العِيَالا[1]

وعلى نحو ما هجي به بنو العباد هجي العديد من أمراء الطوائف يقول عبد الملك بن حصن هاجيا المأمون بن ذي النون :

تلقبت بالمأمون ظلماً، وإنّني لآمن كلباً حيث لست مؤمّنه
حرامٌ عليه أَن يجُودَ ببِشْرِهِ وأَمَّا النَّدَى فاندبْ هنَالِكَ مدفَنَه
سُطورُ المَخَازِي دُونَ أبوابِ قصره بحجَّابِه للقَاصِديْن مُعَنْوَنَه[2]

هذا وقد نظم الشعراء الهجاء بغرض عام ، حيث اعترضوا على إساءة الأمراء والحكام إدارة شئون البلاد ، وتصاغرهم أمام أعدائهم ، يقول أحد الشعراء بعد خراب قرطبة :

أضَعتُم الحَزمَ في تَدبْيرِ أمرِكُم ستعلمُون معًا عُقْبَى البَوارِ غدَا
فلو رأيتم بعين الفكر حالكم بكيتم بدم إن دمتم بددا
لَكنَّ سبُلَ العَمَى أَعْمَتْ بَصَائِرَكُم فَأَلْبَسَتْكُم ثيابًا لِلْبِلَى جُدَدَا
يَا أمَّة هتَكتْ مسْتُور سَوْءَتِها مَا كُلّ ذُلَّ أَعْطَى بالصَّغَارِ يَدَا

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج 4/ 212).

[2] المقري ، نفح الطيب (ج 3/ 363) .

في سورة الحشر آياتٌ مفصَّلةٌ في شأْنِكُم أُنْزِلَتْ لم تَعُدَّكُم عَدَدَا
نَعَم وَفِي الكَهْفِ في العِشْرِين خاتمة تقضي عليكمْ بأَن لا تُفْلِحُوا أَبَدَا
فاستشعروا سوء عقباكم فقد شملت جميعكم محنة لا تنقضي أبدا[1]

ومن هذا النوع أيضا أشعار السميسر الذي كان ينتقد الحاكم واصفا إياهم بالخيانة ، مشيرا إلى تدني مكانتهم عند الناس حيث يقول :

خنتم فهنتم فكم أهنتم زمان كنتم بلا عيون
فانتم تحت كل تحت وأنتم دون كل دون
سكنتم يا رياح عاد وكل ريح إلى سكون [2]

ويقول أيضا :

وليتم فما أحسنتم مذ وليتم ولا صنتم عمن يصونكم عرضا
وكنتم سماء لا ينال منالها فصرتم لدى من لا يسائلكم أرضا
سترجع الأيام ما أقرضتكم ألا إنها تسترجع الدين والقرضا [3]

وما نقرؤه من هجاء السميسر يدل على أنه كان من اكثر الشعراء غيرة على الوطن ، فهجاؤه صادر من روح وثابة أحبت الوطن ، حيث تعدى الهجاء من الذاتية المتفردة إلى الجماعية العامة ، ولعل أشد ما كان يؤذي الشاعر مصانعة حكام الطوائف للنصارى حيث انتقد حاكم غرناطة الذي استوزر يهوديا وبعد أن هلك استوزر نصرانيا فكتب أبياتا في ذلك وفر إلى المرية معتصما بالمعتصم بن صمادح ، وقد وزع الأبيات بعد أن كتبها في طرقات المدينة فطارت في الآفاق يقول فيها :

صاحب غرناطة سفيه وأعلم الناس بالأمور
صانع أذفونش والنصارى فانظر إلى رأيه الدبير

---

[1] ابن عذاري، البيان المغرب (ص 110) .
[2] المقري ، نفح الطيب (ج4 / 180) .
[3] المقري ، نفح الطيب (ج4 / 108) .

وشاد بنيانه خلافا لطاعة الله والأمير
يبني على نفسه سفاها كأنه دودة الحرير
دعوه يبني فسوف يدري إذا أتت دورة القدير [1]

كما هُجي المرابطون يقول أحد الشعراء فيهم :

إن المرابط لا يكون مرابطا حتى تراه إذا تراه جبانا
تجلو الرعية من مخافة جوره لجلائه إذ يلتقي الأقرانا
إن تظلمونا ننتصف لنفوسنا يجني الرجال فنأخذ النسوانا[2]

وقد هجى الشاعر الأبيض أمير قرطبة في عهد المرابطين الزبير بن عمر اللمتوني على سوء خلقه وتصرفاته السلوكية التي لم تعجبه من عكوف على الغي واللهو والخلاعة والمجون حيث يقول :

عَكَفَ الزُّبَيْرُ عَلَى الضَلاَلَةِ جاهدا ووزيره الْمَشْهُور كلب النَّار
مَا زَالَ يَأْخُذ سَجْدَة فِي سَجْدَة بَين الكئوس ونغمة الأوتار[3]

وقال فيه :

قَالُوا الزُّبَيْرُ مُبَرَّصٌ فَأَجَبْتُهُمْ لَا تنكروه فداوه مِنْ عنْدِهِ
رَضِعَتْ مَبَاعِرُهُ فَأَكْثَرَتْ حَتَّى بَدَا رَشْحُ بِجِلْدِهِ [4]

وقد دارت رحى حرب هجائية كبيرة بين مكونات المجتمع الأندلسي ، فمثلا رمى السميسر البربر وهجاهم هجاء شديدا ، قلل من مكانتهم ، ورماهم بكل منقصة ، وعيرهم بمثالب الجنس يقول :

---

[1] عيسي ، الهجاء في الأدب الاندلسي (ص 46)
[2] ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب (ج 2 / 268) .
[3] المرجع السابق (ج127/2).
[4] ابن سعيد المغربي ، المغرب في حلى المغرب (ج 2 / 269).

رأيت آدم في نومي فقلت له أبا البرية إن الناس قد حكموا

أن البرابر نسل منك قال إذا حواء طالقة إن كان ما زعموا [1]

وقد كان هذا الهجاء ناجم عن الاختلاف السياسي كما نرى عند ابن حربون حيث وصفهم بالرعاع ، وأشاج بموقف الموحدين منهم عندما قادوا حركة العصيان ، وأشعلوا الفتنة جهة جبل سرت وأخمدوا فتنتهم حيث قال :

وماذا تؤمل هذي الرعاع وأنى لها عنكم مهرب

ستبرأ منهم إليك الشعاب ويسلمها البازل الأصهب

لقد ركبوا مركب الجاهلين وذلك من شر ما يركب

فمزقتم شملهم في البلاد كأنهم جمل أجرب [2]

كما هجي اليهود واعترض شعراء الأندلس على تحكمهم في شئون البلاد ، وخاصة عندما قويت شوكتهم في عهد ملوك الطوائف حيث قال ابن الجد :

تَحَكَّمت اليَهُودُ على الفُرُوجِ وتاهت بالبِغَالِ وبِالسُّروجِ

وقَامَت دَولَة الأَنذَالِ فينا وَصَارَ الحُكمُ فيهَا للعُلُوجِ

فَقُل للأعْوَرِ الدَّجَّالِ هَذَا زَمَانُك إنْ عَزَمْتَ عَلَى الخُرُوجِ [3]

ولعل أبو إسحاق الإلبيري كان من أكثر الشعراء الذين انتقدوا سياسة الحكام في الاستعانة باليهود ، واستوزارهم ، وجعلهم يتحكمون برقاب المسلمين ، حيث جعلهم حكام غرناطة على خزائن الدولة ، فآلت إليهم الأمور ، ووجد الشاعر نفسه يستثير الأندلسيين للخروج على الحاكم وتجريد اليهود من مناصبهم التي آلت إليهم فيقول في قصيدة طويلة :

أَلا قُلْ لِصِنْهَاجَةٍ أَجْمَعِينْ بُدُورِ الزَّمَانِ وَأُسْدِ العَرِينْ

لَقَدْ زَلَّ سَيِّدُكُمْ زَلَّةً أَقَرَّ بِهَا أَعْيُنَ الشَّامِتِينْ

تَخَيَّرَ كَاتِبَهُ كَافِراً وَلَوْ شَاءَ كَانَ مِنَ المُسْلِمِينْ

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج3 / 412).

[2] ابن صاحب الصلاة، المن بالإمامة (ص 361-362) .

[3] ابن بسام ، الذخيرة (ج 3 / 563) .

فَعَزَّ اليَهُودُ بِهِ وَانْتَخَوْا وَكَانُوا مِنَ العِتْرَةِ الأَرْذَلِينْ[1]

" فثارت إذ ذاك صنهاجة على اليهود، وقتلوا منهم مقتلة عظيمة، وفيهم الوزير المذكور – وعادة أهل الأندلس أن الوزير هو الكاتب – فأراح الله البلاد والعباد، ببركة هذا الشيخ الذي نور الحق على كلامه باد" [2] .

وأمام ما سبق فقد تميز الهجاء السياسي في الأندلس بزخارة النماذج وكثرتها ، وإنما يرجع هذا إلى كثرة الخلافات السياسية في الأندلس على مر العصور ، حيث تعاقب على حكم الأندلس طوائف كثيرة .

وقد كان لهذه الطوائف دور في إذكاء روح التعصب للقبيلة أو الجنسية أو الفكرة السياسية وغيرها.

أضف إلى ذلك ما تمتعت به الأندلس من اختلاف مكونات المجتمع بين العرب والبرابرة واليهود والصقالبة والإسبان والمولدين وغيرهم .

---

[1] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب (ج2/ 133).

[2] المقري ، نفح الطيب (ج4 / 323) .

الفصل الثاني

مواطن اللون في شعر الحروب والفتن

في الأندلس .

احتل اللون في شعر الحروب والفتن مساحة واسعة ، فقد أكثر الشعراء من ذكر الألوان حتى بدت صورهم لواحات رسمت بريشة فنان مبدع ، تمكن من استخدام الألوان بعناية فائقة ، ودقة متناهية ، حتى كأنه تاه في غياهب التأثير اللوني لتتمثل روحه المنتصرة تارة أو القلقة أو الحزينة أو المهمومة في أحايين أخرى .

حرص الشعراء أن ينتقوا ألوانهم بعيدا عن التسجيل الحسي المعروف بل كانوا يسيرون ضمن الإطار الجماعي المتصور والعقلية السائدة في المجتمع الأندلسي لذا نجد تقاربا كبيرا في أكثر صورهم اللونية التي تحمل دلالة عامة ، باستثناء بعض الدلالات الخاصة التي تميز بها بعض الشعراء .

لقد تنوعت استعمالات اللون الواحد عند الشعراء الأندلسيين ، نظرا لاختلاف السياق التعبيري الذي يساهم اللون في توسيع معناه ، وقد لجأ الشعراء لانتقاء ألوانهم من المواطن المحيطة المختلفة كالألوان المميزة التي وسم بها الإنسان ، والحيوان ، والطبيعة الخلابة التي كانت تحيط بالأندلس حيث تنوع تضاريسها ما بين سهل وجبل وصحراء وبحر ونهر وغيرها .

كما لجأ بعضهم إلى وسم المكونات المعنوية المختلفة ببعض الألوان ذات الدلالة الخاصة كلون الموت والحياة والحق والظلم والعدل ....، وفيما يلي عرض مفصل لمواطن الألوان الأساسية في شعر الحروب والفتن الأندلسي وتعامل الشعراء معها ، وقد أشار الباحث إلى الدلالة التعبيرية التي تركها اللون إثر استعماله في مواطنه المختلفة .

المبحث الأول : مواطن اللون الأبيض .

تعددت مواطن استعمال اللون الأبيض في الشعر العربي ، وقد تغيرت دلالته تبعا لموطنه الذي يذكر فيه ، فقد يحمل اللون الأبض دلالة إيجابية إذا استعمل في وصف المرأة مثلا فهو يشكل " دلالة الحسن والجمال عند المرأة "[1] ، وربما يحمل دلالة سلبية كأن يستعمل في الإشارة إلى الشيب المهيب الكئيب الذي ينذر بدنو غروب الحياة [2] .

وفيما يأتي حديث عن أهم مواطن استعمال اللون الأبيض في هذا الشعر موضوع الدراسة .

أولا: اللون الأبيض في الإنسان .

يسير ابن خفاجة على درب غيره من الشعراء ، إذ جعل للسيوف وجوها وهي بيضاء من شدة مضائها ولمعانها ، وعلامة حسن أن يجعل الوجه منيرا مشرقا.

أَبيَضُ وَضّاحُ جَبينِ العُلى جَذلانُ مَبسوطُ يَمينِ السَماح[3]

والشاعر هنا يصف وجه ممدوحه بالأبيض المنير كإنارة وجه الغزال في حال الحرب حيث تعبس الوجوه ، وهذا كناية عن الطمأنينة الحاصلة له جراء المعركة ، ويؤكد ذلك في البيت التالي فجبينه أبيض ناصع ، وضاح يورث في الناظرين راحة نفسية ، تورث الفرح وتأتي بالجود والسماح .

يبرع ابن خفاجة الأندلسي في استعمال اللون للدلالة على التحول المعنوي حيث تتبدل وجوه الروم المميزة ببياضها إلى اللون الأصفر في وصف دقيق لأحوالهم المتبدلة إلى الخوف والرعب والقلق والذعر يقول :

تَرى بَني الأَصفَرِ البيضَ الوُجوهِ بِه قَد راعَها السَيفُ فَاِصفَرَّت بِهِ وَجَلا[4]

---

[1] حمدان ، دلالات اللون عند نزار قباني (ص 39) .

[2] ينظر : اليظي ، البحتري بين نقاد عصره (ص 137).

[3] ابن خفاجة ، الديوان (ص 72).

[4] ابن خفاجة ، الديوان (ص 193).

ويقول ابن زيدون في مدح آل جهور عند إعادتهم أحد المدن المنكوبة حيث استعمل اللون الأبيض في الدلالة على الاستبشار والبرء من الأسقام :

هُمُ النَفَرُ البيضُ الَّذينَ وُجوهُهُم تَروقُ فَتَستَشفي بِها الأَعيُنُ الرُمدُ[1]

وسم آل جهور ببياض الوجه ، وهذا والسم كان معنويا حيث لهم الفضل في إعادة تلك المدينة المنكوبة إلى حاضنة الخلافة ، وبالتالي أشفى الله صدور قوم مؤمنين بهذه الوجوه المبشرة بالفتح ، وأبرأ الله العيون التي مرضت وأصابها الجهد والتعب جراء حسرتها وسهرها وجواها على فقدان المدينة المنكوبة .

في هجوم يحمل التعصب القبلي نجد أبا حيان الأندلسي يقف متهكما من الزنج حيث يقول :

إذا مالَ الفَتى للسودِ يَوماً فَلا رَأيي لَدَيهِ وَلا رَشادُ
أَتَهوى خُنفَساء كَأَن زِفتاً كَسا جلداً لَها وَهوَ السَوادُ
وَما السَوداءُ إلا قِدر فرنٍ وَكانونٌ وَفَحمٌ أَو مِدادُ
وَما البَيضاءُ إلا الشَمسُ لاحَت تُنير العَينُ مِنها وَالفُؤادُ
سَبيكةُ فِضَّةٍ حُشيَت بِوَردٍ يَلَذُّ السُهدُ مَعها وَالرُقادُ
وَبَينَ البيضِ وَالسودانِ فَرق لِذي عَقلٍ بِهِ اِتَّضَحَ المُرادُ
وجوهُ المُؤمنينَ لَها اِبيضاضٌ وَوَجهُ الكافِرينَ بِهِ اِسوِدادُ[2]

حيث أطلق في المقطوعة السابقة كل مظاهر الجمال والحسن والإضاءة والمكانة والرحمة على من تميزوا بألوانهم البيضاء ، والظاهر أنه قصد العرب ، بينما في المقابل يسقط مظاهر القبح والبشاعة وسوء الأفعال والمآل والمصير على من اسود جلده كما يفهم من النص السابق.

إلَى مِثْلِ هذَا اليومِ سرتَ لياليا كما اسودَّ من لَوْنِ الشَّبِيْبَةِ فَاْحِمه
وشهباً منَ الأَيَّامِ واصَلْتها بها كَمَا ابيَضَّ مِنْ لَوْنِ الكَبِيْرِمقادمه[3]

---

[1] ابن زيدون ، الديوان (ص 62) .
[2] المقري ، نفح الطيب (ج 2 / 571) .
[3] القرطاجني ، الديوان (ص111).

فالليالي التي سارها القرطاجني سوداء فاحمة لهول ما جاء فيه من مصاعب ، إذ هي حالكة كشدة سواد شعر الشاب ، حتى إذا انقضت هذه الأيام تحولت وانقلب لونها كلون الشيب في مفارق رأس الكبير ، والمعنى أنه لم يتحقق له الهناء حين كان شابا ، علاوة عن عجزه عن القيام بتحقيقه يوم أن صار شيخاً ، فكان بياض الشعر دليلا على تقلب الزمان .

وقد رمز اللون الأبيض إلى جمال المرأة في قول ابن حيوس :

سالٍ عَنِ البيضِ الحِسانِ فَما لَهُ إلّا هَوى البيضِ القَواضِبِ دابُ[1]

فالقائد المقاتل في سهو وبعد عن النساء الجميلات الحسان ، ودلل على جمالهن باستخدامه للون الأبيض كوسم لهن ، ويكمل المعنى حيث يرى أن هواه متعلق بالبيض القواضب .

وكذلك قول ابن دراج:

ومَنْ بَرَّحَ البيضُ الحِسان بوَجْدِهِ فبالبيضِ فِي الهَيجاءِ بَرَّحَ وَجْدُهُ

وقَرَّبَنا من رَحْمَةِ اللهِ هَدْيُهُ وَرَغَّبَنا فِي طاعَةِ الله زُهْدُهُ[2]

ففي تكرار قوله (برح) دليل على تفرغ الممدوح لشئون الجهاد ، وإعلاء راية الدولة التي يقف على رأسها ، فهو منشغل عن البيض الحسان بالسيوف الباترة في ميادين المعارك .

ومثله أيضا قول ابن هانئ :

قَلِيلِ لِقاءِ البِيضِ إلاّ منَ الظُّبَا قليلِ شَرَابِ الكَأسِ إلاّ منَ الدّم[3]

حيث لا يلاقي البيض من النساء بل هو دائما يلاقي بيض السيوف ، ولا يشرب الماء الزلال بل شربه من دماء الأعداء، فصار تنقله بين اللونين الأبيض والأحمر يحمل دلالة الشجاعة والقوة التي وسم الممدوح بها .

ويصور الشاعر الأندلسي ابن حمديس أسيرات الفرنج وهن يحملن إلى قصور الخلافة بقوله :

---

[1] ابن حيوس ، الديوان (ج1 /60) .

[2] ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ج1 / 82) .
ابن دراج ، الديوان (ص81) .

[3] ابن هانئ الأندلسي ، الديوان (ص325) .

وساقوا بِأَيدي السبيِ بيضاً حَواسِراً تَخَالُ عَلَيهِنَّ الشعورَ بَرانِسا[1]

يصف أشكالهن وهن يتميزن بالبياض، وقد جئن حاسرات عن رؤوسهن حيث شعرهن الأسود الطويل الذي يظنه الرائي برنسا يغطي جوانبها كلها ، وهذا يدل على انكسارهن وذلتهن إذ تغير بهن الحال من الحرية إلى الأسر .

واستعمل اللون الأبيض للإشارة إلى الهم والدلالة على المصائب يقول ابن حمديس :

كستني الخطوبُ السودُ بيضَ ذوائبٍ ففي خلّتي منها لدى البيض إخلالُ[2]

فهو يشكو من قسوة الأيام ، إذ تتوالي عليه الخطوب والصعاب ، حتى شاب شعر رأسه قبل أوانه في تنبيه إلى الوهن والضعف أمام هذه الملمات الكثيرة ، وقد وسم الخطوب باللون الأسود في إشارة إلى بشاعتها وصعوبتها عليه ، ورمز إلى أثرها باللون الأبيض الظاهر في الذوائب .

ويؤكد معناه السابق بتكريره لأمر يتعلق بالشيب حيث تسلو الفتاة الجميلة عن صاحب الشيب كونه كبيرا لا حاجة لها به ، في إشارة إلى حرمانه الكثير من أصناف المتعة في شبابه وهرمه نتيجة هذه الكروب .

وفي بكاء نجد نقف أمام بيت من روائع ابن خاتمة الأندلسي يقول فيه :

بحيثُ القِبابُ البِيضُ والسُّمْرُ والظُّبا سَماءٌ وأنوارٌ يُشَمْنَ على البُعْدِ

يتذكر الشاعر الأندلسي المغترب نجداً وما بها من جمال الطبيعة الساحر ، وقصور الحكم الخالدة ، والتي دلت على أصالة حكامها ، ورصانة بنيانها ، يستحضر شاعرنا القباب البيض التي تبقى علامة بارزة لمكان الحكم ، والأمان ، والصلاة ، يستدعي في خياله تلك الرماح والحراب والسيوف المنتشرة في أرجاء المدينة تمثل حصنا في وجه كل من فكر بالغدر أو الخيانة ، حتى رُسمت لنا زينة تلك القباب المتمثلة في ألوانها كالسماء المتلألئة بالزينة والأنوار حيث ترى عن بعد رفعة ومكانة .

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص 275).

[2] المرجع السابق، ص355 .

ومن مواطن اللون الأبيض أنه استعمل في الدلالة على الأخلاق الفاضلة حيث السمو والرفعة وهذا ما عناه الشاعر في قوله :

سَما فاشْتَرَى مَثْنى الوزارةِ سابقاً بمثنى الأَيادِي البِيضِ والخُلُقُ النَّدْبِ[1]

حيث توافر له أمران أولهما الرياسة ، وثانيهما أنه تميز ببياض اليد حيث العدل والبعد عن الجور والظلم إضافة إلى الكرم ، وسادت خصاله الحميدة فصارت موسومة به يعرفها الناس بذكره .

ومنه قول ابن زيدون في مدح أحد ملوك آل جهور :

مَليكٌ لَهُ مِنّا النَصيحَةُ وَالهَوى وَمِنهُ الأَيادي البيضُ وَالنِعَمُ الخُضرُ[2]

ثانيا: اللون الأبيض في الطبيعة .

يقول ابن حزم في إحدى حكم شعره :

كما صار لون الماء لون إنائه وفي الأصل لون الماء أبيض مفجب[3]

يدعو الشاعر إلى معاملة الخلق حسبما يبدون من خصال وسجايا ويؤكد هذا المعنى بالماء الذي يتغير بتغير لون الإناء الذي يوضع فيه لكنه في أصله أبيض صاف ليس مكدرا فلو تغير لونه يعرف بأنه شابه شيء .

وفي إطار الوصف يلجأ الشاعر للجمع بين صفتي الحياء والجمال فيطلقهما على الوجه حيث يقول :

فَيَجمَعُ بَينَ الماءِ أَبيَضَ سَلسَلاً يَسُحُّ وَبَينَ الجَمرِ أَحمَرَ حامِيا[4]

فالممدوح ذو وجه أبيض عذب كالماء الصافي ، لا يكدره شيء ، ولعل هذا البياض والإشراق عامل معنوي يكني به عن كريم خصاله وحسن اخلاقه ، لكن هذا الوجه به شيء من

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص 97).

[2] الكتاني : التشبيهات من أشعار أهل الأندلس (ص 88)؛ ابن زيدون ، الديوان (ص 84) .

[3] ابن حزم ، الديوان (ص74).

[4] ابن خفاجة ، الديوان (ص 241).

الحمرة الموردة التي تعد أحد أسباب الجمال إن وسم بها الخد ، وبهذا كون فكرة الحياء التي رافقته.

يرسم ابن عبدون صورة من المتناقضات اللونية في طباق مدبج رائع حيث قال :

فَإذا سَرَت فَاللَيلُ مِنهُم أَبيَضٌ وَإذا غَدَت فَالصُبحُ مِنها أَدهَمُ[1]

فالليل يتحول لونه من الظلمة إلى الإشراق إثر حلول الجيش فيه ، بينما تنقلب إشراقة الصبح إلى ظلام حالك إن لم يحلوا فيه ، وقد سبق الشاعر إلى مثل هذا التقابل اللوني حيث قال المتنبي :

فالليلُ مُنذُ قدمتَ فيها أبيضٌ والصُّبحُ منذُ رحلتَ عنها أسودُ[2]

وفي وصف الحال يلجأ لسان الدين بن الخطيب إلى الجانب القصصي في التعبير عن تلك الملمات التي أصابته حيث تتوافر دلالتان للون الأبيض عنده في المقطوعة التالية :

وَلَقَدْ سَهِرْتُ مُفكِّراً وَالْبَدْرِ فِي بَحْرِ السَّمَاءِ مَعَ النُّجُومِ يَعُومُ
فَحَسِبْتُ شكَلَ البدر أَبْيَضَ حَائِماً فَوْقِي يُحَلِّقُ طَيْرَهُ وَيَحُومُ[3]

يبدأ مقطوعته بالحديث عن التفكر والتأمل في جمال الكون والمتمثل في ذلك اللون الأبيض المعجون بلمعان نجوم الليل ، وكأن البدر الجميل طائر يحوم ويحلق أينما شاء بحرية وأمان لكنه يفاجأ بصدمة تحدث له تغير النمط التعبيري عنده فيقول :

حَجَرا رَمَاهُ الْمَنْجَنِيقُ فَشَأْنُهُ مُتَطَأطِئ مُتَدَافِعٌ مَلْمُومُ

حيث يفاجأ الشاعر بحجر لامع يحوم فوقه يشبه البدر لكنه متوهج ومضيء ، يمعن النظر فيه فتحدث الصدمة إذ يدرك أنه حجر المنجنيق رمي ليهدم المدينة ويحرق سكانها ، فيكرر النظر في النجوم التي رآها حول الحجر فيقول :

وَمِنَ النُّجُومِ أَسِنَّةٌ لِجُيُوشِهَا مِنْ كُلِّ مُطَّلَعٍ عَلَيَّ هجُومُ
زَحَفَتْ إِلى حَرْبِي وَعُمْرِيَ مَعْقِلٌ وَمُخَلّصِي مِنْ بَأسِهَا مَعْدُومُ

---

[1] ابن بسام ، الذخيرة (ج4 /684).

[2] ابن وكيع التنيسي ، المنصف للسارق والمسروق منه (ص 351).

[3] ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة (ج 4 / 424) .

فيفاجأ أنها أسنة الرماح والحراب التي تنزل عليه كالمطر حتى لا يكاد يدري أين المفر ، ولا يعرف من المخلص له من هذه المصيبة الكبيرة .

ففي النص كما سبق مفارقة بين مشهدين أحدهما في الكون بجماله وراحته ، ومشهد آخر في جو الحصار حيث يملك الرعب قلق المكان فجاءت دلالة اللون الأبيض متناقضة كما تبين ،ويتضح جليا معنى الخوف من قوله:

بَدَرَتْ لَهَا شُرُفَاتُ أَسْنَانِي تَهِي وَقُوَايَ تَقْعُدُ رَجْفَةً وَتَقُومُ
فَصَرَخْتُ يَا وَيْلِي أُصِيبَتْ غُرَّتِي مَاذا عَسَى هَذَا الْبِنَاءُ يَدُومُ

لا يزل النصر يلوح في الأفق ، يحيط ممدوح ابن شهيد حيث يقول :

وحَوْلَكَ أَسْيَافٌ مِن السَّعْدِ تُنتَضَى وفَوْقَكَ أَعْلامٌ مِن النّصْرِ تَخْفُقُ[1]

فالسيوف التي يمسكها تحمل له السعد أينما طاف وحل ، فأعلام النصر خفاقة تابعة له مع كل حركة وسكون ويستغل الشاعر المقابلة اللونية بين الأبيض والأسود حيث يقول :

بأَبْيَضَ مُسْوَدِّ الدِّلاصِ[2] كأَنَّهُ شهابٌ علَيْهِ مِن دُجَى اللَّيْلِ يَلْمَقُ[3]
وأَسْودَ مبيَضِّ القبَاءِ كأَنَّمَا يَطِيرُ به نَحْوَ الكَرِيهةِ عَقْعَقُ

هنا يصف الشاعر السيف بانه لامع لين مطيع كأنه الشهاب الذي يبدو وسط دجى الليل فلا يخطئ رميته حيث يحرق الشياطين ، وفي صورة أخرى يصف الرماح التي جعلها كطائر العقعق في اللون حيث هو طائر على قدر الحمامة وعلى شكل الغراب، وهو ذو لونين أبيض وأسود ، وقد قيل فيه الكثير من الأمثال منها : "ألص من عقعق"(4) لأن في طبعه شدة الاختطاف لما يراه من الحلي ، ولتقريب المعنى المراد مثل بهذا الطائر فدقة إصابته كبيرة لا تخطئ ، وقد عرف عنه شراسة طباعه لذا فهو يُعدّ من أشدّ الطَّير ضَررًا.

---

(1) ابن شهيد ، الديوان (ص 130).

(2) الدلاص : اللَّيِّنُ البَرَّاقُ الأَمْلسُ .

(3) يلمق : يرمي فيصيب .

(4) صفوت، جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة (ج2/ 313).

ثالثا: اللون الأبيض في الآلات .

ابن حمديس :

فتخافُ أذمارُ الكريهةِ فتكَهُ خَوْفَ البُغاثِ من العُقابِ الكاسِرِ
بسنانِ أسْمَرَ للحيازم ناظمٍ وغرارِ أبيضَ للجماجمِ ناثرِ[1]

يمثل ابن حمديس مشهدا حربيا تتمايز فيه الأسلحة بألوانها حيث السنان الأسمر الذي لا يصيب إلا القلوب والرقاب فتنتظم انتظام فصوص العقد ، إذ يسير مخترقا لها ولا يكتفي بقلب أو بجيد واحد فقط .

وكذلك أشار إلى حد السيف اللامع الأبيض الذي يقتلع الرؤوس فتغدو الجماجم منثورة في ساحة القتال .

كذلك استخدم ابن حمديس الألوان في الإشارة إلى عدة الحرب والقتال ففي مشهد آخر يصف شجاعة ممدوحه المجيد لاستخدام السيوف البيض والرماح السمر فيقول :

أخدودهُ في الرأسِ ضَرْبَةُ أبيضٍ وقلبيُه في القلب طعنةُ أَسمَرا
وإذا تَعَرّى للشجاع حُسَامُهُ بكريهةٍ قَتَلَ الشجاعةَ بالعَرا

ويتبعه ابن خفاجة فيقول :

مُتَقَدِّمٍ في صَدرِ كُلِّ كَتيبَةٍ شَهباءَ يَندى جانِباها بِالدَمِ
يَثني بِها عِطفَيهِ كُلُّ مُثَقَّفٍ لَدنٍ وَيَضحَكُ كُلُّ أَبيَضَ مِخذَمِ[2]

فالمقاتل شجاع علامة ذلك تقدمه في صدر الجيش ، وإن كثرت الدماء حوله فهو أحد أسباب إراقتها ، حتى شربت الرماح والحراب والسيوف من دماء أعدائه ، فضحكت سرورا وفرحا بسبب هذه السقيا وتحقيق الانتصار .

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص 210).

[2] ابن خفاجة ، الديوان (ص 214).

ويذهب ابن دراج لرسم إحدى الصور الحربية الجميلة حيث يقول :

لاقَيتَ فِيهَا المَوتَ أَسْوَدَ أَدْهَماً فَذَعَرْتَهُ بالسيفِ أَبيضَ أَحْمرا[1]

في البيت إشارة إلى صلابة وقوة ذلك المقاتل المجابه للموت الذي أحاط به من كل جانب فأخافه بسيفه الأبيض اللامع المختلط بدماء خصومه الحمراء .

ويقول ابن خفاجة :

يُسفِرُ عَن بيضِ وُجوهِ الظُبى بَأساً وَيَرنو عَن عُيونِ الرِماح[2]

يسير ابن خفاجة على درب غيره من الشعراء ، إذ جعل للسيوف وجوها وهي بيضاء من شدة مضائها ولمعانها ، وعلامة حسن أن يجعل الوجه منير مشرق.

تربط الشاعر علاقة تكاملية بالسلاح حيث لا يفارقه السلاح مطلقا فالسيف ذو البريق المتموج ملاصق له تحت حضنه ، الرمح لا يغادر كفه حيث هو لين شديد الاهتزاز بيده في تكنية عن إصابة الرماية ودقتها ، وأطلق لفظة (أبيض) إشارة إلى السيف

ومِن تَحْتِ حِضْني أَبْيضٌ ذُو سَفَاسِقٍ وفي الكَفِّ مِن عسّالةِ الخَطِّ أَسْمرُ[3]

ويؤكد هذه العلاقة حيث يصفهما بصاحبيه اللذين لم يغادراه أو يفارقاه مذ كان صبيا يافعا .

هُما صاحِباي مِن لَدُن كُنْتُ يافِعاً مُقِيلانِ مِن جدِّ الفَتَى حين يَعْثُرُ

ويجعل ابن دراج اللون الأبيض إشارة إلى الدرع الذي يشبه في لونه اللون الفضي وهو من أقرب الألوان إلى الأبيض حيث يصف قوة سيفه الطاعن بقوة هذه الأدرع حتى يصل إلى ما تحتها من الجسد في مشهد تعبيري دقيق مركز للطعن المتكرر بالأعداء حيث يقول :

وسَيفٌ يقُدُّ البَيْضَ والزَّغْف[4] **مقدِماً يروحُ بلا غِمْدٍ ويغدُو بلا صَقلِ**[1]

---

[1] ابن الخطيب : الإحاطة في أخبار غرناطة (ج3، ص215)؛ وابن دراج ، الديوان (ص127)

[2] ابن خفاجة ، الديوان (ص 72) .

[3] ابن شهيد ، الديوان (ص 108) .

[4] الطعن .

ويرى الشاعر الأندلسي أن الحرب تجارة إنها مع الله تعالى ، كيف لا والله يقول (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) فهو هنا يذكر بثمن الحرب حيث يقول :

تجارَةُ غَزْوٍ نَقْدُها البِيضُ والقنا قضاءَ حُقوقٍ واقتِضاءً لآجال
فللَّهِ كم أَغلَيْتَ من دَمِ مُسْلِمٍ وأَرخَصْتَ فِي أَعدائِهِ من دَمٍ غالِ
وأَسلَمْتَ للإِسلامِ فِيهَا بضاعَةً تعود بأَضعافٍ وتوفي بأَمثالِ[2]

فالنقد هنا هو السيوف والحراب الموجهة إلى صدور الأعداء والتي نتج عنها الإعلاء من قيمة المسلم ، والتقليل من قيمة الكافر .

رابعا : اللون الأبيض في مواطن أخرى .

يقول ابن الأبار البلنسي :

لِرَايَتِهِ السَّوْداءِ في كُلِّ مَشْهَدٍ قِيَامٌ بِنَصْرِ الحَقِّ أَبْيَضُ نَاصِعُ
ثُغُورُ ثُغُورِ المُسْلِمِين بَوَاسِمٌ بِهِ وَرِقَابُ المُشْرِكين خَواضِعُ[3]

اعتاد العرب أن يحملوا الرايات في المعركة ، ولعل أهم الرايات التي حملت في المعركة السوداء ، وكان النبي – صلى الله عليه وسلم – يحمل هذه الراية حيث ورد في صحيح البخاري أنه " كَانَت راية رَسُول الله– صلى الله عليه وسلم – سَوْدَاء وَلِوَاؤُهُ أَبيض" ، وقد جعلت الراية كإشارة للجيش وتيسير لسبل التواصل معه ، وقد اتخذت الدولة العباسية الراية السوداء شعارا للدولة ، وكذلك الموحدون والمرابطون في الأندلس ، تميزت جيوشهم بها .

والشاعر يقصد أن تلك الراية السوداء كانت علامة مميزة للجيش فهي إشارة للنصر أينما وجد، وقد وصف النصر بالأبيض للدلالة على صفائه من أي شوائب أو خسائر في الجيش المسلم ، وهذا قمة الانتصار ، ويشير إلى قوة الجيش ، والبياض صفة حسن في الوجوه عادة .

---

[1] ابن بسام ، الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة (ج1 /80). ؛ وابن دراج ، الديوان (ص 540).
[2] ابن دراج ، الديوان (ص 279).
[3] ابن الأبار ، الديوان (ص376) .

وأطلق بعض الشعراء على الدين لفظ الأبيض في إشارة إلى سماحته وبشراه لكل الخلق يقول **ابن دراج :**

حَتَّى أَعادَ الدِّينَ أَبيضَ مُشْرِقاً بسيوفِهِ والكُفْرَ أدْهَمَ أَسْوَدَا[1]

يستخدم الشاعر المتضادات اللونية الأبيض والأسود في طباق مدبج ليحمل دلالة صفاء الدين من المكدرات والمنغصات حيث الغلبة له فغدا جميلا مشرقا ، ودلالة الكدر والمساءة التي أصيب بها الكفر ، حيث حل السواد عليهم في إشارة للنكبة التي وقعت لهم جراء معاداتهم للمدافعين عن الدين .

ونمر سريعا على مطلع الرائية البديعة لابن عبدون والتي رثى فيها ملوك بني المظفر يقول في مطلعها :

الدَهرُ يُفجِعُ بَعدَ العَينِ بِالأَثَرِ فَما البُكاءُ عَلى الأَشباحِ وَالصُوَرِ
أَنهاكَ أَنهاكَ لا آلوكَ مَوعِظَةً عَن نَومَةٍ بَينَ ناب اللَيثِ وَالظُفُرِ
فَالدَهرُ حَربٌ وَإِن أَبدى مُسالَمَةً وَالبيضُ وَالسودُ مِثلُ البيضِ وَالسُمرِ[2]

يرثي هذا الشاعر الكبير ضياع الممالك الأندلسية المتعاقبة ، فقلبه موجوع مفجوع بها ، ويشكو في البيت الأخير من تقلبات الزمان حيث لا يثق فيه وإن أظهر المسالمة ، فأيامه جميعا متساوية في أخذ الملوك والأحباب وسلب الحسن والخير وقد كنى عن الأيام المتعاقبة بلفظ البيض والسود وهذا مشهور عند العرب حيث يسمون كل مجموعة من الأيام اسما : " ثَلاثٌ بِيْضٌ ، ثَلاثٌ ظُلَمٌ، وثَلاثٌ دُرَعٌ"[3] ، حيث الدهر يخوض بهذه الأيام الحروب على الإنسان كما تخاض المعارك بالسيوف والرماح .

وحمل اللون الأبيض دلالة الحداد على الموتى حيث يقول ابن زيدون :

يَبيَضَّ مُلتَحِماً وَيُظلِمُ وَحشَةً فَكَأَنَّما ذاكَ البَياضُ حِدادُ[4]

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص 453) .
[2] ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة (ج32/4).
[3] الزبيدي ، تاج العروس (ج20/ 541).
[4] ابن زيدون ، الديوان (ص 68).

وهو يشير إلى الكفن الذي يكون به آخر عهد الميت ، ومن المعروف أنه يعد رمزا دينيا على الحداد لفقد عزيز أو حبيب .

من هنا فقد مثلت العوامل المحيطة بالشعراء كالطبيعة والحيوان والآلات عامل إلهام مهم لهم ، فقد استعملوا اللون الأبيض في التعبير عن المعاني المشكلة لأشعارهم فاستخدموا الألوان المتعلقة بالإنسان وتعددت دلالاتها فالوجه الأبيض علامة جمال ، والقلب الأبيض علامة النقاء ، واليد البيضاء التي تعلقت بالسماح والكرم ، ولون المرأة الأبيض إشارة جمالها ، وقد وصفت الأسيرة الأوروبية بالبيضاء ، ومثل شعر الشيب دلالة الهم وصدى النكبة ، عرف اللباس الأبيض بأثواب الحداد.

أما الطبيعة فأطلقوا اللون الأبيض على الماء العذب الصافي ، والبدر المضيء الجميل الذي يوحي بالراحة والطمأنينة ، والفضة المسبوكة التي تشير إلى جمال المرأة ، وألبسوا الليل ثياب البياض كدليل على الفرح والطمأنينة ، واعتبروا بياض الغبار دليلا على كثرة الجيش تارة ، وشدة المعركة تارة أخرى .

وفي تناولهم لقضايا معنوية كالدين ، ومكارم الأخلاق ، وألبسوا اليوم سمة البياض إن كان فيه الخير ، وسمة السواد إن أظلمت عليهم الخطوب .

وأطلقوا على آلة الحرب ألفاظ اللون الأبيض فعنوا بها السيوف اللامعة ، والرماح المضيئة في الليالي الحربية ، والدروع القوية الواقية من ضربات السيوف وطعنات الحراب .

وقد أكثروا من التمثيل بوجه الغزال الأبيض ، أو الأعفر والذي يعده العرب علامة للإنارة يقول ابن نباتة المصري:

دَعُونِي فمَا عَيْن الغَزَالِ كحيْلَةٌ، بِعَيْنِيْ ولا وجْهُ الغَزَالَة نَيِّرُ[1]

وقد لقب الظبي العربي بالغزال الأَعفر لجمال وجهه وبياض فيه .

---

[1] ابن نباتة ، الديوان (ص 209).

المبحث الثاني : مواطن اللون الأسود

ارتبط اللون الأسود بالليل والظلام وجلبه لمشاعر الخوف والقلق ، وكان هذا " هو السبب الرئيسي للنفور منه " [1] ، وقد حكم عليه بعض النقاد والمهتمين بأنه لون " يشعر بالعدمية والفناء " [2] ؛ لذا فقد احتل اللون الأسود الدلالة السلبية في معظم الأشعار موطن الدراسة، غير أنه شكل جانبا إيجابيا في بعض المواضع كلون العين السوداء وكانت العرب تتشاءم من لونها الملون ، وكالشعر الأسود الذي يدل على الشبيبة والحيوية.

أولا : اللون الأسود في الإنسان .

استعان الشعراء باللون الأسود في الإنسان فعبروا عما يلوج في خواطرهم فاستعملوا هذا اللون في الوجوه ، والقلوب ، والعيون .

يشير ابن الأبار إلى المصائب حيث يعبر عنها بالسواد حيث يقول :

وَما اسْوَدَّ وَجْهُ الخَطْبِ إلا سَمَا بِهِ لِيَجْلُوَهُ طَلْقَ الأَسِرَّةِ مبيضًّا[3]

فعلامة صعوبة الخطب والمصيبة يعبر عنه الشاعر بعد لجوئه للتشخيص حيث يسمه بالوجه الأسود ، لكن هذا السواد يزول وينجلي بجهاد المؤمنين الصادقين حتى يصبح أبيض مستبشرا بالنصر والغلبة .

ويقول ابن دراج ذاكرا وجه المنايا الأسود فيصف حال الأطفال الذي صار مبكيا صعبا :

وجوه المنايا السود والحدق الحمر وكم بدلوا من وجه راع و حافظ[4]

وقد رسم ابن شهيد صورة مشهدية لنتائج إحدى المعارك حيث يقول :

أَجرَيْتَ للزَّنْجِ فَوقَ النَّهْرِ نَهْرَ دَمٍ حتَّى اسْتَحَالَ سَماءً جُلِّلَتْ شَفَقَا
وَساعَدَ الفَلَكُ الأَعْلَى بقَتْلِهِمُ حتَّى غَدا الفُلْكُ بالنَّاجِي به غَرِقَا
مِن كُلِّ أَسْوَدَ لم يَدْلِفْ على ثَبَجٍ وبانَ جَدُّكَ يجلُو صفْحَهُ يقَقَا

---

[1] عبده ، تاريخ الشرق القديم وحضارته (ص 150).
[2] علي ، اللون في الشعر العربي قبل الإسلام (ص 165).
[3] ابن الأبار ، الديوان (ص362).
[4] ابن دراج ، الديوان (ص 276) .

كأَنَّ هامتَهُ والرُّمحُ يحملُهَا غرابُ بَيْنٍ على بانِ النَّقا نَعَقَا[1]

فمن كثرة قتلى الأعداء تحول النهر الصافي إلى اللون الأحمر ، وتأكيدا لهذه الصورة يلجأ إلى الطبيعة مرة أخرى حيث صار لون النهر كلون الشفق في السماء ، وقد دل اللون الأسود في البيت الثالث على الجنس الزنجي الذي قصده وعناه الشاعر في أبياته السابقة .

ويلجأ إلى رسم صورة توضح الغلبة الكبيرة والقهر الشديد حيث كثرت مشاهدة رؤوس الأعداء محمولة على الأسنة والرماح ، وهذا المشهد مليء بالسواد كلون الغراب .

أدت الخلافات السياسية إلى النزعة العنصرية تجاه اللون فهذا ابن حزم يستخدم اللون الأسود في الدلالة على جهالة المهجويين وبعدهم عن سبل الخير والإيمان ، وفي هذا تعريض بالدولة العباسية التي اتخذت من الراية السوداء شعارا لها ، إضافة إلى كل من انتهج نهجها من المرابطين حيث يقول :

وأبعد خلق اللّه من كل حكمةٍ مفضل جرم فاحم اللون مسودٌ
به وصفت ألوان أهل جهنم ولبسة باكٍ مثكل الأهل محتد
ومذ لاحت الرايات سوداً تيقنت نفوس الورى أن لا سبيل إلى الرشد[2]

يتهم الشاعر الزنوج ، ومن يميزهم السواد بالجهل والبعد عن الحكمة ، ويرى أن السواد مشؤوم فهو وصف لنار جهنم السوداء الفاحمة ، وكذلك لباس الحداد .

ويوضح موقفه السياسي في البيت الأخير حيث يرى أن هذا اللون كان خبر سوء إذ رمز إلى بعد الحكام عن الهداية والرشد .

وقد اتخذ اللون الأسود جانبا من الحسن إذ أحبه العرب في العيون يقول ابن سهل :

وَلَو كُلُّ حُسنٍ رَاقَ في كلّ مَوضِعٍ إذَن حَسَدَت سُودَ العُيُونِ المَكَاحِلُ[3]

---

[1] ابن شهيد ، الديوان (ص 131) .
[2] ابن حزم ، طوق الحمامة (ص132).
[3] ابن سهل ، الديوان (ص 125).

وفي هذا الاستعمال إشارة إلى محاسن الأمير ، الذي يزدان الكون بهاء به ، وتعمر الدنيا بوجوده ، ويلجأ الشاعر لاستخدام التشبيهات المقلوبة فالحبر الأسود يزدان إن كتب باسمه ، والدجى الأسود من شدة ضيائه بوجود الامير فيه يرى الصبح قد تغير لونه وشحب وجهه فيقول :

كَسَوتُ سَوَادَ الحبرِ باسمِكَ رَونَقاً فَقَالَ الدُّجَى يا صُبحُ لَونُكَ حَائِلُ

ثانيا : اللون الأسود في الطبيعة

امتلأت الطبيعة باللون الأسود فنجده مثلا في سواد الليل ، والغربان ، والخسوف ، وغيرها ، وقد حضر اللون الأسود المقتبس من الطبيعة في شعر الحروب والفتن .

وصف الشعراء الليل بالظلمة والسواد ، وكانت مقاصدهم متعددة حيث الهم ، والوحشة ، والمصيبة ، والمكر ، والغدر وغيرها ، ومن أمثلة هذه المعاني قول الشاعر :

يَا أَيُّهَا القَمرانِ أَيْنَ سَناكُمَا عن مُطبِقٍ فِي ليلِ هَمٍّ أَسْوَدِ[1]

وصف ابن دراج الليل بالطول حيث جعله مليئا بالهموم والمصائب ، وهذا الليل وصف بشدة سواده ووحشته ولذلك كان اللون الأسود سمة شكوى وأنين .

ويقول ابن دراج في تصوير هول الشدائد في مزاج سوداوي لا يعزف إلا ألحانا قاتمة يغنيها نعيق غراب البين :

نَعَبَ الغُرَّابُ بِنَا فَطَارَ بأَهلِها سَرْبَا علَى مِثْلِ الغُرابِ النَّاعِبِ [2]

وفي الجانب المعنوي يستحضر الشعراء اللون الأسود في إشارة إلى الكفر والظلم والبعد عن الحق يقول الشاعر :

حَتَّى أَعادَ الدِّينَ أَبيضَ مُشْرِقاً بسيوفِهِ والكُفْرَ أدْهَمَ أَسْوَدَا[3]

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص72).

[2] ابن دراج ، الديوان (ص 91).

[3] المرجع السابق ، ص 453 .

فقد وصف الدين مع انتصار أهله أبيض مشرقا ينشر النور والهداية في ربوع العالمين ، وفي المقابل صار الكفر أسود بين كظلام الليل الحالك، حيث عاد إلى أصل نشأته .

يقول ابن عمار :

فأَرْمَلَها بالسَّيْف ثُمَّ أَعَارَها مِنَ النَّارِ أَثْوابَ الحِدَادِ علَى الفَقْدِ

وفي هذه الرؤية للمدينة المحترقة بألسنة اللهب السوداء صورة نموذجية للضحية التي تتخبط في دمائها الداكنة التي تحولت سوادا ، فلا تجد بدا من أن تلبس أثواب الحداد السوداء ندبا على سوء عاقبتها .

وفي إطار مدح ابن عبد ربه للأمير المنتصر في غزوة المنتلون :

تملأ بك الأرض عدلا مثلما ملئت جورا وتوضح للمعروف منهاجا
يا بدر ظلمتها يا شمس صبحتها يا ليث حومتها إن هائج هاجا [1]

حيث يرى في الأمير البدر المضيء في وجه الملمات ، والشمس التي تعطي الدفء والحيوية للناس في إشراقة الصباح ، والأسد الهصور المدافع عن الدولة والحامي لها إن تجرأ أحد على أذيتها .

يقول ابن عبد ربه في وصف ما حدث مع الثائر ابن حفصون من قبل الأمير عبد الله بن محمد :

رَكِبُوا الفِرَارَ بِعُصبةٍ قَدْ جَرَّبوا غب السُّرَى وَخَوَافِتَ الإِدْلَاج

وإِذَا سَأَلْتَهُم مَوَالِى مَنْ هُمُ ؟ قَالُوا مَوَالِي كُلَّ لَيْلٍ دَاجِ [2]

إن الشاعر ينعت ابن حفصون وقبيلته بالخوف والجبن وإلا كيف نفسر فرارهم إلى ملاجئ الجبال أثناء الليل ، إنهم أشبه بالخفاش الذي يتخذ الظلام مأوى له يصطاد فيه هوام العوام .

---

[1] ابن عذارى ، البيان المغرب (ج2 / 236) .

[2] ابن عبد ربه ، الديوان (ص 42).

وبالتالي كانت دلالة الحركة في سواد الليل هي الخيانة والغدر والجبن كما سبق .

يقول ابن عبد البر في وصفه لجماعة من الأشقياء قرروا الخروج عن الحاكم حيث اتخذوا جنح الظلام ستارا للتآمر والفتنة فكان الموت جزاءهم :

سَرَوا تَحتَ لَيْلٍ فِي الظَّلام بَهِيمٍ مكَلَّلَّ آفَاقٍ كَلَيْل نُجُومِ

...

كأنَّ المَنَايَا الحُمْرَ دَانَتْ نُفُوسُهُم فحلَّت عَلَى عُسْرٍ حُلوُلَ غَرِيمِ [1]

ويقول ابن عبد ربه في تخليد أحد انتصارات عبد الرحمن الناصر :

كتَائِبُ تَتَبَارَى حَولَ رَايَتِهِ وَجَحْفَلَ كَسَوَادِ اللَّيْلِ جَرَّار

فكم بساحتهم بشلو مطرح كأنه فوق ظهر الأرض إجار [2]

وفي الأبيات بيان لعظيم الانتصار الذي قام به الأمير حيث شكل قتلى العدو طبقة ثانية فوق الأرض ، وهي طريقة لابتزاز الآخر والنيل من عزائمهم .

وقد استعمل الشاعر لفظة (**سواد الليل**) للدلالة على كثرة الجيش ، فالليل يغطيه السواد من كل جوانبه ، وهو دليل على الإحاطة الكلية .

يقول عباس بن فرناس يسوغ هدم جسر طليطلة من قبل الأمير محمد فيقول :

أضْحَتْ طُلَيطِلة مُعَطَّلة مِنْ أَهْلِهَا في قَبْضَة القَصْرِ

تُرِكَتْ بِلَا أَهْلٍ تُؤَهلُها مهجُوْرَة الأَكْتَافِ كَالقَبْرِ

مَا كَانَ يَبْقَي قَنْطَرة نصبت لِحَمْل كَتَائِبِ الْكُفْرِ [3]

---

[1] ابن بسام ، الذخيرة (ص 46).

[2] ابن عبد ربه ، الديوان (ص73).

[3] إحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي (ص 99).

دلل الشاعر على الحصار ممثلا له بالقبر الذي يتميز بالسواد الشديد ، والناجم عن انغلاق كل ما هو متصل بالدنيا عن المدفون ، وهكذا حال أهل طليطلة فهم في انقطاع تام عن مقومات الحياة الإنسانية فتحولت حياتهم جحيما أسودا كسواد القبر .

وينتقد الغزال علماء الملوك الذي كان لهم دور في إذكاء روح الفتنة فيقول :

ذَهَبَ الزَّمَان بصفْوَةِ العُلَمَاءِ وبقيتِ فِي ظُلَمٍ وَفِي عَمْيَاءِ

وأَتَىَ طِغَامٌ رتَّعٌ من بَعْدِهِم لا فَرْقٍ بَيْنَهُم وَبَيْن الشَّاءِ [1]

بفقد العلماء تحولت الدنيا إلى الإظلام بعد إشراقها ، وإلى العمي بعد إبصارها ، في بيان مهم لدور العلماء العاملين المصلحين في هداية الناس إلى سبل الخير ، وطرق النجاة .

ويقول ابن زيدون في تصوير الملمات والمحن التي ألمت به :

مالي وللأيام لج مع الصبا عدوانها فكسى العذار مشيبا

ومحقت هلال السن قبل تمامه وذوى بها غصن الشباب رطيبا [2]

في الأبيات شكوى من تبدل الأحوال وتغيرها بسبب الفتن والمدلهمات المحيطة حيث غدت الحياة متحولة فصار الشاب شيخا وتحولت الصحة إلى مرض وسقم .

وقد عبر عن هذا بقوله (محقت هلال) حيث طمست كل الآمال وتحولت إلى آلام وأنين على ماض قد ذهب ، ولم يبق منه إلا بعض الذكريات .

ثالثا: اللون الأسود في الآلات

التصق اللون بوصف السلاح ، وكانت دلالته العامة الإشارة إلى قوة السلاح ، ونوعيته

يقول ابن حمديس في وصف قوة ساعد المقاتل وعظيم فعل الرماح في الأعداء :

متناوِلٌ قُمُحَ الكماة بأسمر لِدَمِ الأُسود سنانُه سَفّاحُ[3]

---

[1] هني ، مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي (ص 93).

[2] ابن زيدون ، الديوان (ص 34).

[3] ابن حمديس ، الديوان (ص 82) .

يشير الشاعر إلى الرماح التي دل عليها قوله (السمر) القوية التي تسفح دم الأسود الهائجة في الميدان ، وفي إطلاق هذا اللون على الرمح دلالة على صلابته وقوته .

ويقول ابن الأبار مشيرا إلى الرماح :

وَيُساقِي الصُّفْرَ حُمْرَ المَنايا بِالصّعادِ السمْر أو بِالصّفاح[1]

يرسم لنا صورة لونية مختلطة فالصفر هم الروم ، يسقون الموت بواسطة الرماح السمر المستقيمة ، وهي من أفضل أنواع الرماح الحربية في دقة إصابتها على بعد هدفها .

ويكرر ابن شهيد استخدامه للون الأسود في قوله :

مَضَى السَّلَفُ الوَضَّاحُ إلا بَقِيّةً كغُرّةِ مُسْوَدِّ القَمِيصِ بَهِيمِ[2]

فاللون الأسود في البيت السابق يدلل على قلة من تبقى من الكرماء والصالحين ، والذين تنار بهم الدروب ، وتهتدي بهم الحيارى .

يسجل العتبي حدث النصر في أحد فتوحات محمد بن عبد الرحمن حيث يقول :

سَائِلْ عَنِ الثَّغْرِ الصّوَارِم تَصدق واسْتَنْطِقِ السُّمر العَوَالِي تَنْطِق [3]

فهو هنا يشخص الرماح والحراب ، ويجعلها شاهدة على ما أحرز المسلمون في فتحهم من نصر وتمكين .

ومنه قول الشاعر :

لَعَمرِي لَقَدْ هانُوا وَكانُوا أَعِزَّةً وَمَنْ ذا يُقَاوِي السُّمْر والبيض والزُّرْقَا[4]

فالسمر هي الرماح والبيض والزرق هي السيوف والحراب كما تقدم .

وقال الأديب أَبُو مُحَمَّد الْقُرْطُبِيّ فِي ذمّ بني هود حِين خلعوا عَن إشبيلية

---

[1] ابن الأبار ، الديوان (ص135) .

[2] ابن شهيد ، الديوان (ص 147) .

[3] ابن عذارى ، البيان المغرب (ج2 / 113).

[4] ابن الأبار ، الديوان (ص 393).

كَأَنَّمَا الرَّايَةَ السَّوْدَاء قد نعبت لَهُم غراباً ببين الْأَهْل وَالْولد
مَاتَ الْهدى تحتهَا من فرط رَوْعَته فأظهر الدَّهْر مِنْهَا لبسة الكمد[1]

رابعا: اللون الأسود في الحيوان

أكثر ما وسم باللون الأسود الخيول العربية الأصيلة ، يطالعنا ابن عمار بصورة رائعة في وصف الخيول الدهماء وسرعتها فيقول :

من العابساتِ الدهم الا التـفافةٌ إلى غرةٍ أهدت لهُ ثغرَ باسم
طوى بي عرض البيد فوق قوائـمٍ توهمتني منهنَ فوق قـوادمِ
وخاض بيَ الظلماءَ حتى حسـبتهُ له مربطٌ بين النجومِ العـواتمِ

فقد تناول الشاعر في هذه الصورة أعضاء خيله وصور قوتها وذكائها وهي تقطع به الأرض المظلمة معرباً عن شغفه واعتزازه الذي كان يساوره تجاه هذا الفرس الأدهم المميز بالأصالة حيث الغرة البيضاء في وجنته .

ويبلغ منه أن يصف سرعته وصفا بديعا ، فهو يطوي الأرض طيا تحت أقدامه ، كان مربطه نجوم السماء .

ويقول أبو المخشى في تمجيد بطولات سليمان بن عبد الرحمن الداخل حيث يوظف سواد الليل وطلوع النهار في بيان نتائج معارك الأمير:

فالليل فيها للذئاب فرائس ونهارها وقع لنبش الأنسر [2]

فمن كثرة جثث الأعداء يتعاقب على التهامها الذئاب في الليل ، والنسور في النهار ، وهذا بعد نفسي ينبئ بمدى خسارة العدو وانكسارهم أمام جحافل الأمويين .

خامسا : اللون الأسود في مواطن أخرى

صبغ شعراء الأندلس الكثير من الأمور المعنوية باللون الأسود ، إمعانا في التنفير منها ، والتشاؤم كذلك حيث رسمت صورهم اللونية كل من الموت والكفر واليوم والساعة بالسواد .

---

[1] ابن سعيد المغربي، المغرب في حلى المغرب (ج1 / 120).
[2] هيكل ، الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة (ص 82) .

ومن صور رسم الموت باللون الأسود الفاحم قول الشاعر :

لاقَيتَ فِيهَا المَوتَ أَسْوَدَ أَدْهَماً فَذَعَرْتَهُ بالسيفِ أَبيضَ أَحْمرا[1]

فممدوحه كان جريئا قويا حيث وقف في وجه الموت المحقق الذي لا مجال لغلبته في نظر الناس ، لكن بفضل قوة ممدوحه وشجاعته جلا سواد هذا الموت وأرعبه من خلال وقوفه في وجهه بسيفه البتار الضارب الذي لا تفارق صفاحه دماء الأعداء القتلى وقد وسم هذا الموت باللون الأسود الأدهم أي الخالص في دلالة على حتمية وقوعه .

وإلى هذا المعنى يذهب ابن دراج بقوله :

وبِيضاً ردَدْنَ الليلَ أبيضَ مـشرقاً علينا وأيَّامَ المعانِدِ سُودا

يشير الشاعر إلى فعل السيوف بالأعداء حيث أزيلت ظلمة الليل والتي عنى بها سطوة العدو ، واحتلاله لمدينة طليطلة ، فصار مشرقا ، وانقلبت أيام الأعداء سودا .

يستذكر المعتمد بن عباد بعضا من أيامه الخوالي حيث يقول :

وَكَم لَيلَةٍ قَد بِتُّ أَنعَمُ جُنحَها بِمُخْصَبَة الأَرداف مُجدَبَة الخَصرِ
وَبيضٍ وَسُمرٍ فاعِلاتٌ بِمُهجَتي فِعال الصِفاح البيضِ وَالأسلِ السُمرِ[2]

يرثي هذا الشاعر الكبير ضياع مملكته ، فيشكو من تحول الزمان حتى غدا تعاقب الليل والنهار عليه مثيرا للشجون ، ومزيدا للهموم ،فهي تطعنه في مقتله كطعن السيوف والحراب في المعركة .

وهذا يدلل على عظيم الهم ، وشدة البلوى والوجد الذي يعاني منه هذا الشاعر الكبير .

يبكي ابن شهيد القادة العظام في قصيدة مطلعها :

أَفي كُلِّ عامٍ مَصْرَعٌ لعَظِيم أَصابَ المَنَايا حادِثِي وقَدِيمي[3]

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص127) .
[2] ابن عباد: المعتمد، الديوان (ص 11).
[3] ابن شهيد ، الديوان (ص 147) .

ويصف الخطوب والمصائب بالسواد حيث هي الدجى الذي يطمس عن العيون الرؤية فيقول :

وكَيْفَ اهْتِدائي في الخُطُوبِ إذا دَجَت وقد فَقَدَتْ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومِي

فبفقدهم فقد الهداية على الهدى ، وترك نعيم العيش والهناء به ، فالعيون فقدت النور الذي يعينها على الإبصار.

ويصف ابن هانئ الضمير بالأسود إذا ساء حيث يقول منتقدا الحكام المفرطين :

ما لي رأيتُ الدِّينَ قَلّ نَصيرُهُ بالمَشرِقَينِ وذلَّ حتى خُوِّفَا
هم صَيّرُوا خَدَماً تَسوسُ أمورَهم يا للزّمانِ السّوءِ كيْف تصرّفَا
من كلِّ مُسوَد الضّميرِ قد انطوَى للمسلمينَ على القِلى وتَلَفَّفا[1]

والشاهد هنا أن إضافة السواد إلى الضمير عنى بها الشاعر فساده ، وهذا هو سبب تراجع الأمة في تحقيق العزة والأنفة ، فقد صار هؤلاء خدما للأعداء ، فينفذون سياستهم ، وتقربون إليهم بظلم المسلمين ، وهنا يشكو من الزمان الذي أوجد أمثال هؤلاء ، وكذلك من فساد الضمائر الميتة التي لم تتحرك لنصرة الدين.

لقد ظهر اللون الأسود في مواطن مختلفة في شعر الحروب والفتن الأندلسي وتفصيل ذلك كما يأتي :

- ظهر استخدام اللون الأسود في الإنسان وكان في غالبه يدل على السلبية العامة فالوجه الأسود الدال على الخوف والذعر والهم والذل ، والقلب الأسود الدال على سوء النية وضياع الضمير ، والثوب الأسود الذي يدل على فقد الأحبة والحداد عليهم ، وقد كان له دلالة إيجابية إذ دل سواد العيون على جمالها ، وسود الجيش على كثرته ، وسواد الشعر على شباب صاحبه .

---

[1] ابن هانئ ، الديوان (ص203) .

- وقد استعمل اللون الأسود في الطبيعة بدلالات مختلفة فالليل الأسود دل على الهم ، والمكر ، والغدر ، والخيانة ،والعمى ؛ واستعمل سواد القبر للدلالة على الحصار والاحتلال .
- كما أطلق الشعراء الأندلسيون ألفاظ اللون الأسود (أسمر – أسود – أدهم) على أدوات الحرب والقتال في إشارة إلى قوتها ، ودقة إصابتها ، ومتانة تصميمها .
- افتخر الشعراء بخيولهم الدهماء القوية والجريئة ، وعدوا أفضلها من وسم باللون الأسود .
- في جانب المعنويات أطلقوا ألفاظ السواد على الموت والكفر والأيام والساعات في دلالات متعددة تتعلق بالخوف، والظلمة ، والعمى ، والمصائب ، والتعب ، والشقاء.

المبحث الثالث : مواطن اللون الأحمر

يعد اللون الأحمر أول لون عرفه الإنسان في الطبيعة ، ويعطي قدرا من النشاط والحيوية [1] ، كما ارتبط هذا اللون بلون الدم وما يعني من الصراع والقتل والموت والثورة والحرب وغير ذلك " [2] .

أحب العرب اللون الأحمر إذ اعتبروه لون الحياة [3]،أحبوه في الخدود فهو دال على الجمال والأنوثة ، وارتبط كذلك بالخضاب مما " منحه دلالة الزينة "[4] ، وكرهوه في بشرة الإنسان عامة [5] .

أولا: اللون الأحمر في الإنسان

أطلق الشعراء اللون الأحمر على عيون الإنسان دلالة على أرقه ، ولباسه دلالة على زركشتها وزينتها ، وشعره دلالة على جماله وخضابه ،و لون جسمه في إشارة إلى جنسه ، ودمه كعلامة للموت ، وفيما يأتي تفصيل لما ذكره الباحث .

في إطار المدح السياسي والتنظير لخليفة المسلمين نرى ابن دراج القسطلي يلبس الممدوح حلة جميلة كحلة أهل الجنة التي قال الله– سبحانه وتعالى – فيها : {وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ } [الكهف: 31] فيقول :

وأَصبحَ الدهرُ من كُساهُ فِي حُمْرِ إِسْتَبْرقٍ[6] وَخُضْرِ[7]

والشاعر هنا يتحدث عن أثر صنائع هذا الممدوح حيث يظهر ذلك في الزمان ، والذي له دلالة واقعية لدى الكثير من الشعراء حيث يرد معظمهم مصائب الدهر إليه – لكن شاعرنا يشير إلى جميل صنيع ممدوحه بالدهر حيث أبدله من حياة مملوءة بالعيشة النكدة ، والمتقشفة

---

[1] ينظر: عبد الوهاب ، الإضاءة المسرحية (ص 94) .

[2] الزواهرة ، اللون ودلالاته في الشعر – الشعر الأردني أنموذجا (ص 43) .

[3] ينظر : الماجدي ، أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ (ص 117) .

[4] حمدان : دلالات اللون عند نزار قباني (ص 18).

[5] شحادة : اللون ودلالاته في شعر البحتري (ص 35) .

[6] استبرق : الثوب المدبج من لباس الملوك .

[7] ابن دراج ، الديوان (ص32–33).

إلى النعمة والغضة والنضارة ، ويظهر ذلك في توشيحه باللباس الأحمر المدبج والذي يدل على طيب الحياة وحسنها .

كما راعى الشاعر استمرارية هذا اللباس على اختلاف فصول السنة المتعاقبة فالسندس حلة الصيف ، فهي خفيفة ذات لون أخضر مريح ، والاستبرق حلة مدبجة ثقيلة تلبس في الشتاء ، وهذا دليل على ديمومة العيش الرغيد .

وفي إطار البكاء على المفقودين من المقاتلين يبكي الرصافي البلنسي أحد القواد عند وقوفه على قبره ؛ فيلجأ إلى اللون الأحمر الذي يعد مرضا إن أصاب العين فيقول :

تَكادُ عَلى التَتابُعِ وَهيَ حُمرٌ تَحَيَّرُ في مَحاجِرِيَ اِرتِيابا[1]

استدعت العاطفة الصادقة في هذا الغرض أن يوظف الشاعر اللون الأحمر للإسهام في الدلالة على الدموع الشديدة الغزيرة المتساقطة تباعا على فقدان الحبيب ،مستحضرا صورة الأمطار الغزيرة التي لا تتوقف عند حد أو زمان ، ومع شدة ذرف الدموع احمرت العين وأصابها الإعياء والمرض ، حتى كادت أن تفقد الإبصار ، وفي هذا بيان لشدة اللوعة على الفراق .

وقد امتزج هذا التوظيف مع اللون الأسود الذي تشكل إثر هذه الدمعات المسكوبة حيث أدى هذا الامتزاج إلى توضيح صورة المرض وتجليتها .

يوظف ابن الأبار البلنسي ألوان البشر في إطار الدعوة إلى وجوب طاعة الأمير يحيى المرتضى فيقول :

وَاستَجِيبوا لِمُنَادي أمْرِهِ تَخلَعُوا الغَيَّ بِلُبسِ الرّشَدِ
إنَّما أَنْتُمْ لِيَحيَى المُرْتَضَى خَوَلٌ[2] **مِنْ أحْمر أوْ أسودِ**[3]

---

[1] الرصافي البلنسي ، الديوان (ص43) .

[2] خول : عبيد وإماء .

[3] ابن الأبار ، الديوان (ص 161) .

ويأتي هذا الخطاب كدعوة تنظيرية للدولة التي يحكمها الممدوح ، وكان كل حاكم قد أعلن أحقيته في الملك والحكم ، ودم نفسه على غيره ، فلجأ ابن الأبار البلنسي إلى أمر الناس بإعطاء حق السمع والطاعة للأمير يحيى ، لم يقتصر في ذلك على جنس دون آخر بل الكل لا بد أن يسلك هذا الطريق ، فالناس جميعا عبيد له يدينون له بالولاء يستوي في ذلك أحمرهم وأسودهم .

والأحمر يدل على البياض المختلط بشقرة وكان هذا اللون نادرا عند العرب ، لذا فقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يتغزل بعائشة – رضي الله عنها– بقوله لها " يا حميراء " وهي سمة جمال ، وقد كان العبيد يغلب عليهم اللونان فعبيد أوروبا كانوا ينعتون بالحمر ، والسود هم العبيد الذين تعود أصول سكناهم إلى إفريقيا .

وقال ابن عبدون :

وَألحقَت بِعَدِيٍّ بِالعِراقِ عَلى يَدِ اِبنِهِ أَحمَرَ العَينَينِ وَالشعرِ[1]

يستذكر الشاعر النعمان بن المنذر، وكان بالنعمان برص وهذا ما قصده بقوله:**(أحمر العينين والشعر)** .

ويقول الشاعر :

شَرِفَت أَسِرَّةُ وَجهِهِ بِحَيائهِ شَرق الصَّوارِم بِالنَّجيعِ الأَحمَرِ[2]

في البيت السابق يصف ابن خفاجة جمال وجه الملك متمثلا صورة مقابلة من صور الحرب ، حيث إن وجه الأمير المشرق كان بسبب حيائه ، كما إن السيوف يبدو إشراقها ، وتسر وتسعد إذا رويت بالدماء الحمراء.

وفي وصف جند الخلافة يقول ابن هانئ الأندلسي:

في فِتيةٍ صَدَأُ الدروع عبيرُهُم وخَلوقُهم عَلَقُ النجيعِ الأحمر[3]

---

[1] ابن بسام ، الذخيرة (ج4 / 721) .

[2] ابن خفاجة ، الديوان (ص131).

[3] ابن هانئ ، الديوان (ص 162).

إن هؤلاء القوم الرجال ذوو شجاعة لا يبالون بجراحهم إذا أصيبوا في الحرب، وهم على أهبة الاستعداد حيث لا يخلعون دروعهم ، حيث يعيشون مع المعارك ، يطيرون لها أينما وجدت ، ووقتما كانت ، حتى صار عطرهم صدأ الدروع التي يلبسونها وليسوا بخالعيها ، وصارت الدماء الحمراء طلاء لهم ، من كثرة ما علقت بهم من الأعداء .

ويقول ابن دراج في وصف حال الأطفال الذي صار مبكيا صعبا :

وُجُوه المَنَايَا السُّود والحِدَق الحُمْر وكَمْ بَدَّلوا مِنْ وَجْه رَاعٍ وحَافِظِ

حيث صارت وجوههم مرتبطة بالموت قريبة منه ، علاوة على أحداقهم الحمراء من شدة الأرق والتعب ، فأضحت وجوههم مبدلة بعد النعمة .

ويقول مشيرا أن كل شيء في هذا المجتمع صار مزيفا فالشجاعة تهريج والكتابة تزوير والرمح مغزل والبطل كاعب والمضاء خور :

أرى حمرا فوق الصواهل جمة فأبكي بعيني ذل تلك الصواهل

ثانيا: اللون الأحمر في الطبيعة

لم تفارق الطبيعة الشعراء عندما وصفوا حروبهم مع الأعداء ، وانتصروا لملوكهم وممالكهم ، فهذا ابن خفاجة يقف موقفا تأمليا يشاهد فيه أحد الجبال وقد علاه غيم أسود يحمل الخير ، والغيث ، فيقول :

يَلوثُ عَلَيهِ الغَيمُ سودَ عَمائِم لَها مِن وَميضِ البَرقِ حُمرُ ذَوائِبِ[1]

ليرسم لنا صورة تمثيلية جميلة معبأة بالألوان في تزاحم عجيب أضفى شعورا بالارتياح لدى القارئ ، ولعله يستغل مشهد المطر ليكون الجبل مكللا بالذوائب الحمراء التي تعد مظهر إجلال لشيخ وقور يكثر التأمل في كل من هو دونه .

---

[1] ابن خفاجة ، الديوان (ص48) ؛ الذوائب : أطراف الشعر من مقدمة الرأس .

إن استغلال وميض البرق في هذا البيت زينه بوشي جميل حيث لا يكتمل إلا بالعمامة السوداء التي دلت على رمزية الدولة التي كان يعيش فيها الشاعر الأديب ، ومن هنا استخدم المبدع الطبيعة رمزا تنظيرياً للسياسة العامة في إدارة شئون الدولة .

لا تنفصل الطبيعة وتشبيهاتها عن ابن سارة الأندلسي حيث نراه يمزج بين اللونين الأخضر والأحمر في إطار المديح السياسي أيضا حيث يقول :

هَذَا الثَّنَاء إلى زَمَانٍ مشْرِق أُهدِى إِلَيك شَقَائِق النُّعمَانِ

قَامَتْ فرَادَى فَوق سُوقٍ زَبَرجَد صِيغَت عَلَيه جَمَاجِمُ العقيان[1]

يَهْفُو بِهَا مَر النَّسيْمِ كَأَنَّهَا حُمْر البُنُودِ[2] نُشِرْنَ في ميْدَانِ[3]

فشاعرنا يثني على الزمان المشرق لوجود ممدوحه فيه ، بل إن الزمان فرح بهذا القائد العظيم حتى تخير هديته وردة شقائق النعمان والتي تميزت بلونها الأحمر الجذاب ، وبعد أن يلتقط الشاعر مشهدا كليا يبدأ في الولوج إلى منظر جزئي فيصف هذه الوردة حيث الساق الأخضر الذي يشبه الزبرجد ، والأوراق الحمراء التي تشبه الذهب في أثرها من حيث الدلالة على الغنى والحمال في آن واحد .

ولا يكاد ينتهي من هذا الوصف الجميل حتى يعاودنا الشاعر بمعنى مولد استوحاه من وحي المعارك حيث صور حركة هذه الزهرة في تمايلها ورقتها بحركة الأعلام الحمراء الكبيرة المنشورة في ميدان القتال ، والتي تدلل على العزة والرفعة والنصر والتمكين .

يلجأ ابن سناء الملك إلى إحاطة الجيش المسلم المقاتل وعلى رأسه قائده الممدوح بالمخاطر التي لا يسلم منها أحد وذلك كي يتمكن من بيان شدة بأسهم ، وعظيم جرأتهم ، وقوة عقيدتهم حيث يركبون الأهوال لا يهابون النتائج فيقول :

---

[1] العقيان : الذهب .

[2] البنود : الأعلام الكبيرة .

[3] ابن بسام ، الذخيرة (ج4/ 841).

وخاض بِهم في البَّر بحراً من الرَّدَى طرائقُه سودٌ وأَمواجُه حُمْر

وجازَ طريقاً يرهَب النسرُ قَطْعَها على أَنَّه نَسْرُ الكواكب لا النَّسرُ [1]

فالجيش يسير في طريق معبد بالمخاطر والأهوال ، نلمس هذا المعنى من خلال قوله (**وخاض بهم في البر بحرا من الردى**) أي من الموت ، ولجأ إلى البحر لأن ركوب البحر أخطر ، والقتال فيه أصعب ، فهو سار في أخطر الطرق ، بهدف إغاظة الأعداء وقتالهم بلا هوادة ، ويطرز الشاعر هذا الوصف القاتم باللون الأحمر الملتصق بالأمواج ، والذي دل هنا على كثرة الهالكين المارين في هذا الطريق من قبل حيث إن البحر المتلاطم الأمواج والذي يكفيه على مر الزمان أن يزيل كل ما علق به من أنواع الصبغان لم يعد قادرا على أن يزيل تلك الدماء المراقة فيه .

لكنه في البيت الثاني يخبرنا بأن القائد وجيشه سلما تغلبا على هذه الشدائد وجازا الطريق ووصلا إلى الأعداء ، وهذا يمهد لوصف هلاك الجيش المعادي .

لقد استعمل المبدع أركان الكون الثلاثة برها وبحرها وجوها لبيان شراسة جيشه الموصوف ، وبسالة جنوده المقاتلين .

وقال ابن الزقاق البلنسي واصفا نتيجة طعن الأعداء بالسنان :

فكأن حبركَ أحمرٌ لا أسودٌ ويراعُ كفِّكَ أسمرٌ لا أصفر [2]

يستعين الشاعر بالأداة التشبيهية ليدلل على انزياح الدلالة المعتادة للون إلى الدلالة المجازية حيث من المعلوم أن الحبر شديد الامتزاج بالأشياء التي تلتصق به فيطغى عليها لونه، إذ له الغلبة لا سيما إن كان كثيرا ، وهو هنا يتحدث عن القتل الشديد في الأعداء فالدماء الساقطة كالحبر صبغت كل شيء وقعت عليه وهذا دليل على كثرتها .

يمدح ابن فركون ابن نصر الذي قام بنصرة الدين والعروبة بقوله :

كأنّ الضحى وجْهُ الخليفةِ يوسُفٍ وما احْمرَّ فيه من سنَا الفجْرِ بَنْدُهُ

---

[1] ابن سناء الملك ، الديوان(ج2 / 151) .

[2] ابن الزقاق ، الديوان (ص 100) .

كأنّ سَنا الأفْقِ المورَّدِ سيْفُهُ وقد راقَ منْ تحتِ النجيعِ فِرِنْدُهُ[1]

فهذه صور مركّبة يمتزج فيها بهاء الأفق وجمال السماء مع السلاح، إذ إنّ الشاعر ينظر إلى طلوع البدر وسط الكواكب المخيلة، وكأنه يوسف الثالث وسط جنده، ولم يكتف بهذا فاختار صورة أخرى، هي أنّ وجه الممدوح ضحى، والشفق الأحمر لواؤه، ثم ترك الممدوح جانبًا، وأبقى على سيفه، حيث يبدو الأفق بما فيه من ضياء وشفق وكأنه سيف السلطان وهو مضرّج بدماء العدوّ.

وقال الملك الأمير الصاحب بن عباد:

كَم باسِلٍ قَد رَدَّهُ وَعَلَيهِ من دَمِهِ رِداء أَحمرٌ لَم يُصقَل
كَم ضَربَةٍ من كَفِّهِ في قَرنِهِ قَد خيلَ جَريُ دِمائِها من جَدوَلِ[2]

يستخدم الأديب المبدع كم الخبرية في الدلالة على كثرة قتلى الأعداء ، فكم قتل من شجعان مقاتلي الأعداء ، حيث تركوا يلبسون ثيابا حمر لكنها ليست مدبجة أو مزركشة بل هي مصبوغة بلون الدماء المخضب .

بل يمعن في الدلالة على ذلك حيث صارت دماء الأعداء جداول من الأنهار ، تجري لكثرة ما لاقوا من شدة بأس كفه الضاربة لرؤوس الأعداء .

ثالثا: اللون الأحمر في الآلات

كسى الشعراء الأندلسيون أسلحتهم وآلاتهم لون الدم ، قصدوا بذلك حدته وشدة مضائها ، حيث أزهقت الكثير من النفوس بواسطتها ، قال ابن الأبار واصفا أدوات المعركة :

تُظَلّلها خُضْر القَنابِل [3] والقنا وتَكْلؤُها زُرْقُ الأسِنّة وَالظُّبى
مِن البيضِ حمْراءُ المَطارفِ والحُلى إذا طَلَعتْ حُلّتْ لطلعَتها الحُبى[4]

---

[1] ابن فركون ، الديوان (ص 28).

[2] ابن عباد: الصاحب، الديوان (ص 83).

[3] القَنْبَلُ : الطائفة من الناس ومن الخيل ، قيل : هم ما بين الثلاثين والأَربعين أَو نحو ذلك

[4] ابن الأبار ، الديوان (ص101).

ففي البيت الثاني يذكر الشاعر منظرا لونيا يتشكل من لون السيوف البيضاء اللامعة المكسوة بأردية حمراء اللون مزركشة كأنها حرير به أعلام منقوشة مزركشة إذا خرجت من أغمادها تحل بخرجها الخيرات وتزهر الدنيا مبتهجة بعظيم صنعها .

يصور لنا ابن الزقاق البلنسي مشهدا جميلا من مشاهد المعركة حيث يخرج إلى تلك المعركة يحمل مهجة قلبه الحمراء ويدخل عباب الحرب حيث السيوف الباترة والأسنة اللامعة وسواد الوجوه البادي فيقول :

فلَتؤخذَنَّ بمُهجتي لحَظَاتُها وَبِعَرْصَتَيْها الريحُ والأنواءُ
طَلَعَت بحيثُ الباتراتُ بوارقٌ والزرق شهب والقتام سماء[1]

ويستمر في وصفه لهذا المشهد حيث يقول :

في آلةٍ حمراء يخفق دونها بينَ الفوارس رايةٌ حمراءُ
والجوُّ لابسُ قسطلٍ مُتراكِمٍ فلهُ من النَّقْعِ الأحمِّ رداءُ

فآلة الحرب حمراء مصبوغة بالدماء، والخيول الحمر تتنقل بين المقاتلين في سرعة وشدة ، تحمل على ظهورها رايات حمر في علامة فارقة تهيؤ المتلقي لتلقي خبر الانتصار ، على الرغم من شدة ذلك العراك ، حيث امتنعت الرؤية لكثرة الغبار الذي صار بمثابة الحاجب عن الإبصار .

رابعا: اللون الأحمر في الحيوان

وُسِمت الجياد بألوانها المختلفة ، وكان كل لون من هذه الألوان يدل على طبيعة الفرس وقوته وطريقته في القتال ، ويعد الفرس الأحمر أفضل أنواع الجياد لذا قال ابن حيوس :

وَقَد بَيَّضَ النَقعُ حُمرَ الجِيادِ وَقَد حَمَّرَ الطَعنُ بيضَ العَذَب[2]

وفي هذا البيت تصوير حي لدور الجياد الحمراء التي لا تكل ولا تمل ذهابا وإيابا في ساحة المعركة حيث أثارت الغبار الشديد فتحولت ساحة المعركة إلى بياض شديد لا يكاد المرء يرى فيه وهذا دليل على شدة المعركة التي خاضها الجند ، ومن المعروف أن الخيول الحمراء

---

[1] ابن الزقاق ، الديوان (ص 3).
[2] ابن حيوس ، الديوان (ج1 / 68) .

من أفضل أنواع الخيول حيث قال العرب في أمثالهم السائرة : " إذا قيل إن الفرس الأحمر وقع من أعلى الجبل وسَلِم، صَدِّق" ، وقالوا كذلك : "دهم الخيل ملوكها وشقرها جيادها وكمتها شدادها." والكمت هي الحمراء ، وقد دلل على شدة هذه الجياد ما أثارته من نقع كثيف نظرا لسرعتها وشدتها ، وقد كان النبي – صلى الله عليه وسلم – يوصي بها حيث قال : ﴿عَلَيْكُمْ بِكُلِّ كُمَيْتٍ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ أَوْ أَشْقَرَ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ أَوْ أَدْهَمَ أَغَرَّ مُحَجَّلٍ ﴾[1] .

ويؤكد الشاعر المعنى السابق بقوله (**وقد حَمَّر الطعن بيض العذب**) وهي صورة مكررة عند الشعراء حيث الدماء المتساقطة من الأعداء قد حمرت المياه الصافية العذبة التي لم يكدرها شيء ، وفيه إشارة إلى كثرة القتلى والمصابين في هذه المعركة .

اللون الأحمر في مواطن أخرى

أطلق اللون الأحمر على الموت كناية عن طريقته وهو الموت بالقتل في معركة ، وفي هذا المعنى يقف المعتمد بن عباد على قبور أجداده راثيا أمجادهم القديمة التي أحدثوها ، وكانت حرزا للدولة من السقوط حيث يقول :

بالطاعِنِ الضارِبِ الرامي إذا اِقتَتَلوا بِالمَوتِ أَحمَرَ بالضرغِمِ العادي[2]

يصف المعتمد بن عباد ذلك المقاتل العنيد الذي يواصل قتل الأسود من الأعداء ، وهذا يدلل على مدى قدرته وقوته وشدة بأسه ، وقد اعتاد العرب أن ينعتوا الموت بألوان خاصة به ولعل لفظة (**الموت أحمر**) تدل على الموت قتلا ، وهو المراد في هذه الأبيات . وفي ذات الإطار أطلق العرب لفظة الموت الأبيض على من زالت عنه الحياة بشكل طبيعي ، وكذلك الموت الأسود لمن زالت عنه الحياة خنقا .

ومن هنا لم يبتعد الشاعر عن حدود الدلالة اللونية التي وضعتها العرب لاقتران لفظة القتل مع الألوان المختلفة .

---

[1] أبو داوود: سليمان بن الأشعث ، سنن أبي داوود ،الخيل/فيما يستحب من ألوان الخيل، 197/4:حديث رقم 2181 .

[2] ابن بسام ، الذخيرة (ج3/ 57).

مما سبق نجد أنه تعددت مواطن اللون الأحمر في شعر الحروب والفتن فقد استعار الشعراء اللون الأحمر من الإنسان لأداء تعابير مختلفة فالوجه الأحمر دل على الذل أو الخجل ، أو الخوف ، أو الجمال العربي ، ولون البشرة الأحمر دل على المرض أو البرص، كما دل لون الدم على القتلى وكلما كان قاتما كان أشد أثرا وأكثر إيلاما .

كما أطلقوا ألفاظ اللون على عناصر مختلفة في الطبيعة فالماء الأحمر دل على كثرة دماء القتلى فيه ، وكذلك الجدول الأحمر ، والنار الحمراء حيث تدل على الإضاءة تارة أو الحداد و الدمار تارة أخرى .

ودل اللون الأحمر على زينة إن استعمل في اللباس ، ومضاء في السيوف إن صبغت به ، ودلت الأعلام الحمراء على الشهرة والعزة .

وقد أكثروا من وصف درجات اللون الأحمر على الخيول فنعتتبـ (الكمت، والحمر، والحمراء، والشقر) ، وكلها علامات للخيل العربية الأصيلة القوية الشديدة .

المبحث الرابع : مواطن اللون الأخضر

الأخضر أكثر الألوان وضوحا في الدلالة ، فهو لون الخصب والخضرة والنماء [1] ، فهو " رمز الحياة ذات التجدد " [2] .

وقد وصفوا به الخيل إذ قالوا " أخضر أحم وأخضر أورق ، وأخضر أطحل ، وأخضر أدغم " [3] ، وقالوا كتيبة خضراء أي التي يعلوها سواد الحديد [4] .

أولا: اللون الأخضر في الإنسان .

دل اللون الأخضر في لون الشعر ، وفي المساكن على معنى ملازمة الخير ، يقول ابن عمار فتح ابنه قرمونة :

نَوَالٌ كَمَا اخضَرَّ العَذَار وَفَتْكَة كَمَا خَجِلَتْ مِنْ دُوْنِهِ صَفْحَة الخَدِّ
جنَيَتُ ثِمَارَ النَّصْرِ طَيِّبة الجَنَي وَلَا شَجَرٌ غيْر المُثَقَّفَة المُلْدِ[5]

وفي الأبيات استخدام جديد للون حيث ألصق اللون الأخضر بالشعر الَّذي يحاذي أذن الإنسان في إشارة إلى ملازمة الخير والعطاء للممدوح ، ويثني عليه أيضا بصفة ثانية هي القوة والبأس الشديد حيث تستسلم له كل الرقاب ، وقد جعل للنصر ثمارا طيبة جنيت بفضل السيف ،وكانت أشجارها من الرماح والحراب التي قطفت أرواح المعادين.

واستخدم اللباس دليل الأمان حيث يستعمل ابن سهل الأندلسي الألوان متضادة الدلالات ليؤكد معاني الأمان والاطمئنان والعيش الرغيد فيقول :

أَلبَستَهُ طَوقَ المَنِيَّةِ أَحمَراً فَكَسَوتَنا التَأمينَ أَخضَرَ مُخصِبا[6]

فقائد جيش الأعداء قد لبس طوق المنية الأحمر في إشارة إلى موته المحقق قتلا ، وقد جعل الشاعر الشطر الثاني من البيت نتيجة للشطر الأول منه حيث تحقق بموت قائد الأعداء

---

[1] عمر ، اللغة واللون (ص 165).
[2] عجينة ، موسوعة أساطير العرب (ج2 / 200).
[3] أبو عبيدة ، كتاب الخيل (ص 230).
[4] ينظر : ابن منظور ، لسان العرب (ج245/4) .
[5] ابن الخطيب ، الإحاطة في أخبار غرناطة(ج3 / 340).
[6] ابن سهل ، الديوان (ص 27) .

حصول الأمان في ربوع الدولة ، وقد نعت التأمين باللون الأخضر في إشارة جميلة إلى تحقق النماء والجمال والعيش الهانئ .

يشكو ابن دراج من تبدل الحال حيث أضحت دياره الخضراء مجدبة خطفها الموت فيقول :

وحُمْرَ الموتِ من خُضْرِ المَغَانِي وسُودَ البيدِ من بِيضِ المُلاءِ[1]

ويمعن في الحديث عن ظاهرة التحول السلبي المتنقل من النقاء والصفاء والنعيم والنضارة إلى الكدر والشقاء ، ويدلل على ذلك المتضادات اللونية الموجود في قوله (**حمر الموت – خضر المغاني**) ، وكذلك قوله (**سود البيد – بيض الملاء**) حيث دلت بيض الملاء على الحياة المرفهة التي تحولت إلى حياة مليئة بالتقشف والتشرد .

ثانيا: اللون الأخضر في الطبيعة

دلت ألوان الطبيعة الخضراء على النماء والخصوبة في كثير من المواطن ،ففي جانب المديح السياسي تيمن الشعراء بالحكام حيث رأوا في قدومهم النماء والبركة ، واستخدموا اللون الأخضر للدلالة على الحياة والحب والراحة يقول الشاعر :

وَنَبتُ الوِهادِ [2] **كانَ قَبلَكَ ذاوِيا فَلَمّا أَتَيتَ اِخضَرَّ ما تُنبِتُ الرُبا**[3]

فبمجرد تعيين الخليفة على رأس الدولة ، أضحت الوهاد خضراء بعد أن كانت منخفضة لا تحصل على ما يكفيها من الماء ، وكان سبب النماء هذا هو مجيء ذلك الممدوح ، فصارت معشبة خضراء تحمل سمات الربى الجميلة المنتشرة في بلاد الأندلس .

وفي نفس المعنى يقول ابن الأبار :

وَلَدَيْهِ إذا اغْبَرّت سَنَةٌ مُخْضَرُّ العَيْشِ وَأَرْغَدُهُ
مِنْ عُرْف عَوارِفِه أبداً أَنْ يَرْفِدَ مَنْ يَسترفِدُهُ[1]

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص 121).

[2] الأَرضُ المنخفِضة

[3] ابن حيوس ، الديوان (ج106/1).

حيث إن الخليفة لديه الخير الكثير فهو المنجد عند اغبرار السنين ، إذ يكمن بين كفيه العيش الرغيد غير المنقطع ، وقد أشار إلى هذا المعنى قوله : (**مخضر العيش وأرغده**) .

لم يخل شعر الحروب والفتن من الحكمة والتي غالبا ما تخللت قصائد رثاء المدن والممالك الزائلة والقواد والأبطال ، وقد استعمل اللون الأخضر في بعض هذه الأشعار في الإشارة إلى ما كان من نعيم العيش يقول ابن عبد ربه :

أَلا إنَّما الدُّنيا نَضَارَةُ أَيْكَةٍ[2] إذا اخْضَرَّ مِنْهَا جَانِبٌ جَفَّ جَانبُ
هِيَ الدَّارُ مَا الآمَالُ إلّا فَجائِعٌ عَليْها وَلا اللَّذَّاتُ إلّا مَصَائِبُ[3]

يوازن الشاعر بين الأمس والحاضر ، ويتخذ من الدهر ناصحا ومعينا ، فالدنيا تشبه في زينتها تلك الأشجار الملتفة الخضراء ، ما إن يمر عليها الزمن حتى ينقلب حالها لتصبح جرداء في الخريف ، وكذلك إذا اخضر جانب في الدنيا بحيث يكون صلاحها وإقبالها على الفرد ، لا بد من مجيء كدر العيش ومنغصاته ، ويرد ابن حجر هذا التحول إلى الزمن.

وقد أشار إلى ذلك المعنى أبو البقاء الرندي في نونيته المشهورة في قوله: **(من سره زمن ساءته أزمان)** وذلك عندما بكى على ضياع الأندلس .

وفي الرثاء يقول لسان الدين بن الخطيب:

أَلَمْ ترَ أنّ المجْدَ أقْوَت رُبوعُهُ وصوّحَ منْ أدْواحِهِ كلَّ مخْضَرِّ[4]

ففي هذه البكائية يرى الشاعر أن المجد المحقق قد تقوض وانكسر، وأن النبات الأخضر الجميل الذي كانت الحياة في ظلاله سعيدة طيبة قد يبس وتشقق ، وكل هذا حزنا على الفراق والبين.

---

(1) ابن الأبار ، الديوان (ص 156) .
(2) الشَّجر الكثير الملتفّ.
(3) ابن عبد ربه ، الديوان (ص21).
(4) ابن الخطيب ، الديوان (ج1 / 398) .

وفي هجاء أهل فاس لجأ اليكي إلى الدعاء عليهم بأن لا تخضر لهم أرض ولا تمر لهم سماء حيث يقول :

فَلا سَقى اللَّهُ فاساً صَوبَ غادِيَةٍ نَعَم وَلا اِخضَرَّ في أَرجائِها وَرَقَه

فدل عدم الاخضرار على القحط والجدب الشديد ، ما يجعلهم مضطرين للعوز والحاجة والرحيل عن الأندلس ، وقد جاء هذا البيت في إطار الهجاء السياسي ، إثر ثورة الفاسيين على الحكم .

يدافع ابن الأبار البلنسي عن أحقية ممدوحه في الخلافة حيث لا يرى لأحد حق التصدر إلا هو وقد استعمل اللون الاخضر في الدلالة على علو المكانة وارتفاعها حيث يقول:

إذا ما احتَبى في مَجلِسِ الملك أو حبا فَقُل في الجبالِ الشُّمِّ والأبْحُرِ الخُضْرِ
لهُ الصَّدْرُ مِن بَيتِ الإمارَةِ رُتْبَةً وحُقَّ لِذاكَ البَيتِ مرْتبَةُ الصَّدْرِ[1]

فمن المعروف أن الجبال العالية علامة السيطرة وبسط السيادة ، ويؤكد ذات المعنى بقوله : (**الأبحر الخضر**) وهي البحار المرتفعة عالية الموج ، وكأنه يريد أن يثبت له الحكم والرياسة في أعالي الجبال حيث تكون البلاد جميعا دونها تحت حكمه ، وفي أعاتي البحار حيث تدين له بالولاء ، فالغاية من استعمال هذا اللفظ هو تقرير خضوع الكون لممدوحه .

وفي مدح ابن دراج القسطلي لبني نصر حيث يرى لهم فضل تحقيق العزة للإسلام والأنفة للمسلمين ، فلم يعد أحد جائعا ولا معدما ، ولم يسمع للأعداء صوت ، ولولا بني نصر لما استحق أحد أن يوصل في الدنيا حتى وإن بدت الدنيا بلباسها الأخضر يقول:

ولا جُدْتُ لِلدُّنيا بِخَلَّةِ واصِلٍ ولَوْ بَرَزَتْ لي فِي غَلائِلِها[2] **الخُضْرِ**[3]

وفي استعمال اللون الأخضر وإلحاقه بلباس الدنيا إشارة إلى النماء وتحقق الخير والاستبشار ، لكنه لا يرى خير الدنيا معقود إلا بآل نصر .

---

[1] ابن الأبار ، الديوان (ص 217).

[2] غَلاَئِل : دُرُوعٌ

غَلاَئِل : بَطَائِنُ تُلْبَسُ تَحْتَ الدُّرُوعِ أَو الدِّثارِ.

[3] ابن دراج ، الديوان (ص 192) .

وفي إشارة إلى براعة الجيش في اجتياز الصعاب يقول ابن سهل الأندلسي :

أجاز البِحَار الخُضر سَهلاً فَرُبَّمَا أخَلَّت بِلُجِ البَحرِ تِلك المَكَارِمُ
وَمَا يَستَوِي بَحرُ أجَاجٌ مُقَطِّبٌ واخَرُ مَعسُولُ المَوارِدِ بَاسِمُ[1]

يجتاز الجيش البحار الهوجاء متسارعة الامواج ، حيث غدت عنده كالأرض المنبسطة ، ويرد الشاعر السبب في ذلك إلى كم المكارم الكبير الذي تمتع به هذا الجيش ، حيث البحر فرح بهم يتيح لهم أن يستغلوا كل موارده إكراما وحبا .

يقول المعتمد بن عباد مستنجداً :

مَولاي دعوةَ مَملوكٍ بِهِ ظمأٌ بَرح وَفي راحَتَيكَ السَلسَلُ[2] الخضرُ
أَجِب نِداءَ أَخي قَلبٍ تملَّكَهُ أَسى وَذي مُقلَة أودى بِها السَهَرُ[3]

يتوسل الشاعر متمنيا إجابة دعوته من أجل إغاثة الأندلس قاطبة من جيش الكفر ، ويقدم بين يدي ذلك تصويرا لشدة حاجته لنصرة أخيه حيث يقول (مملوك به ظمأ) فهو ظمآن عطشان لا يمكن أن يرتوي ويشتفي إلا من نبع الماء الصافي العذب الذي ينبت من كفي ممدوحه .

ويكرر حاجته في البيت التالي حيث قال أجب ندائي فإنني أقاسي ألم الحصار ، والأسى على فقدان مدن الأندلس ، فبت لا أنام الليل قلقا من شدة الجوى والألم.

واستعمال اللون الأخضر الملتصق بالسلسل دليل على شدة الثقة والأمل بأن التأييد والنصرة آتية من المستنجد به .

وقد وصف به البحر حيث دل اللون الأخضر على هيجانه وعلو أمواجه يصف ابن الأبار البلنسي جيش الخليفة حيث انقسم إلى قسمين أحدهما بحري والآخر بري ، ويستغل المشهد ليخبر بأن القوة المحركة لهذا الجيش هي قوة الدين والعقيدة فيقول:

---

[1] ابن سهل ، الديوان (ص 141).
[2] الماء الصافي العذب .
[3] ابن عباد : المعتمد، الديوان (ص 36).

تَساوقا في سبيل الله واسْتَبَقا فَاستَوْسَقَ النّصر أوفَاه وأبْطؤُهُ
هذا على أَغْبَرِ البَيْداء[1] يسْجرُه وَذاك في أخضَر الدّأماء يملؤُهُ[2]

يجعل الشاعر للألوان قيمة فنية تعبر عن كثرة الجيش ، وشدة أفاعيله بالأعداء حيث تضيق اليابسة على الجيش البري ولا يرى من كثرته حيث الغبار الكثيف المغطي للجيش المسلم ، كما تضيق البحار عن أسطوله البحري الذي ملأها واستطاع أن يقطعها على الرغم من تسارع أمواجها وشدة عواصفها .

وفي إطار الحديث عن القتال يستحضر ابن حمديس البحر في أحد الصور المرسومة لوصف الجيش فيقول :

واقتادَ حِزْبَ اللَّه نَحوَ عَدُوِّهِ فالحرْبُ تَجْدَعُ مَعْطِسَ المُتَمرِّدِ
في جَحفَلٍ يَعلُو عَلَيهِ قَتَامُهُ[3] كَبُخارِ أخْضَرَ بالعَواصِفِ مُزْبِدِ
صُدِمَتْ جفونُ الفُنشِ منه بِمفعَمٍ بالأُسْدِ في غَيْلِ القَنا المُتأوِّدِ[4]

يشخص الشاعر الحرب حيث أضفى عليها صفات المقاتل الشديد الذي يقطع أنوف الأعداء في إشارة مهمة إلى مقدار الذل الذي رجع به هؤلاء ، ثم يبدأ الشاعر بوصف الجيش حيث سرعته الحركية ، وكثرته العددية جعلته مظللا بغمام الغبار الشديد الذي يحجب الرؤية ، ويلجأ لصورة البحر التي يعرفها المتلقي حيث تتشكل الغمامات الناشئة من بخار مياه البحر الهائج الذي تتوالى أمواجه في وسط العواصف الشديدة ، وقد دل اللون الأخضر هنا على البحر بصفاته المذكورة آنفا .

ويؤكد هذه القوة الكبيرة مقدار صدمة ألفونسو قائد جيش النصارى عند رؤيته لهذا الجيش الجرار ، حيث التنقلات التكتيكية السريعة ، والتقدم العسكري المهيب .

يفتخر ابن خفاجة بشجاعته فيقول :

---

[1] الصحراء .
[2] ابن الأبار ، الديوان (ص 42).
[3] غباره يشكل ظلالا .
[4] ابن حمديس ، الديوان (ص172) .

وَمقامِ بَأسٍ في الكَريهَةِ قُمتُهُ فَسَبحتُ في بَحرِ الحَديدِ الأَخضَرِ
أَضحَكتُ ثَغرَ النَصرِ فيهِ مِنَ العِدى وَلَرُبَّما أَبكَيتُ عَينَ السَمهَرِي[1]

حيث لم يخف من يوم اللقاء في المعركة ، بل مضى أسدا هصورا بين الرماح والحراب والسيوف حتى حقق الله له النصر على الأعداء ، ولجأ إلى التشخيص حيث جعل للنصر ثغرا يضحك فيقول : (**أضحكت ثغر النصر**) .

يقول ابن هانئ الأندلسي في وصف النصر :

وجنَيْتُمُ ثَمَرَ الوقائعِ يانِعاً بالنصر من وَرَق الحديدِ الأخضَر
وضربتُمُ هامَ الكُماةِ ورُعْتُمُ بِيضَ الخُدورِ بكلِّ ليثٍ مُخدِر[2]

فالوقائع أشجار تقطف منها ثمار النصر اليانعة الغضة المبهجة ، حيث لا زالت هذه الأشجار خضراء مينعة بفضل الأسود المقاتلة التي تحمل السيوف البيضاء اللامعة فما فتئت تضرب هامات المقاتلين ، وتروع ربات الخدور .

ثالثا: اللون الأخضر في الآلات

خلط الشاعر الأندلسي بين لون الطبيعة وأسقطها على الآلات فدل على كثرتها كما ،ومتانتها يقول لسان الدين بن الخطيب في وصف استبشار أحد الرياض بالنصر :

وَرَوْضٍ سَقَاهُ النَّصْرُ صَوْبَ غَمَامِهِ وَدَارَتْ عَلَيْهِ مُفْعَمَاتُ سِجَالِهِ
فَأَغْصَانُهُ مُلْتَفَّةٌ مِنْ رِمَاحِهِ وَأَوْرَاقُهُ مُخْضَرَّةٌ مِنْ نِصَالِهِ[3]

فالنصر غمامة غيث سقت الرياض حتى ربت ونمت ، لكنه أراد معنى معنويا إنه تصوير الفرح والسرور بالنصر ، حتى غدت أشجار الروض ملتفة الأغصان ، ويقصد بها الرماح التي شكلتها في إيماءة إلى كثرة الرماح المتساقطة على الأعداء حتى صارت كالشجر الكثيف ملتف الأغصان .

---

[1] ابن خفاجة، الديوان (ص 109) .
[2] ابن هانئ ، الديوان (ص161).
[3] ابن الخطيب ، الديوان (ج2 /485).

ويرسم صورة جميلة أخرى حيث إن أوراق هذه الأشجار هي من نصال السيوف والتي تميزت باللون الأخضر ، فشجرة شاعرنا ليست حقيقية إنا مبنية من الرماح ونصال السيوف ، وهذا إبداع في التصوير ، ودقة في التعبير .

ويقول ابن الزقاق :

وسوابحٌ خاضتْ بها البُهْمُ الوغى لما طَمى بَحْرُ الحديدِ الأخضر

فالحديد الأخضر هي الدروع المتينة القوية الكثيرة ، التي تشبه البحر الهائج في علوها وشدة صلابتها .

رابعا: اللون الأخضر في الحيوان

تسبح الأساطيل البحرية لمقارعة الأعداء ، وتسبح كذلك الخيول المضمرة حتى صارت الأسنة والرماح والسيوف كالبحر الهائج من كثرة تساقطها ، يقول ابن الزقاق البلنسي:

يرمي الفوارسَ بالفوارسِ والقنا تخفُو هنالكَ والقنابلُ ضُمَّرُ[1]

ووصف الشاعر لبحر الحديد بـ (**الأخضر**) فيه إشارة إلى حركة الآلة الحربية من ارتفاع وانخفاض وتسارع، ويؤكد هذا التسارع ما أردفه في البيت الثاني حيث قال (**يرمي الفوارس بالفوارس**) فهذه إشارة لدوام الحركة وتواليها دون توقف .

يؤكد ذات المعنى استعمال الشاعر كلمة (**القنابل**) وهي الخيول التي تسير في المعركة بشكل جماعي حيث تكسر قلب جيش العدو إذ هي مضمرة مجهزة للحرب قوية .

حيث جثث الأعداء المتراكمة على الأرض تظللها الخيول الخضراء السريعة التي تقاتل بشكل جماعي يقول الشاعر :

تُظَلّلها خُضْر القَنابِل[2] والقنا وتَكْلؤُها زُرْقُ الأسِنّة وَالظُّبى
مِن البيضِ حمْراءُ المَطارفِ والحُلى إذا طَلَعتْ حُلّتْ لطلعَتها الحُبى[1]

---

[1] ابن الزقاق ، الديوان (ص 98).

[2] الخيول الخضراء التي تسير جماعات .

فقد صارت هذه الجثث مرعى للرماح والحراب ، ومأكلا للظباء ، ويستمر في التشكيل اللوني الجميل في البيت الثاني والمكون من الألوان (**الأحمر – الأبيض – المذهب**) في إشارة إلى الدماء المتساقطة من الأعداء والتي كانت بسبب السيوف اللامعة الأشد مضاء ، حيث بخروجها من أغمادها تأتي العطايا والفتوحات .

لذا فقد اتسم اللون الأخضر في شعر الحروب والفتن بالدلالة الإيجابية فقد ألصقه الشعراء بالذؤابة كدليل على ملازمة الخير للإنسان ، ووصفوا به المنازل كديل الأمن والتنعم .

وأكثر مواطن هذا اللون تكمن في الطبيعة فوصف البحر الهائج بهذا اللون لشدة ارتفاع أمواجه ، وسرعة تتابعها ، وعبروا عن العاصفة البحرية الشديدة بالبخار الأخضر في إشارة إلى قوتها واستحالة النجاة منها لأنها تلف الكل وتحيط به ، ودل اخضرار الأعشاب والأوراق والأشجار على الحياة والنعيم والنماء والاستقرار والفرح بالنصر .

وقد وسمت الآلات الحربية باللون الأخضر للدلالة على كثرتها ، وسرعة سقوطها على الأعداء ، أما استعمالهم للأخضر في الدروع فهو دليل متانة وقوة .

كما اعتزوا بالخيول الخضراء التي وصفت بأصالتها ، وشدة سرعتها ، وجماعية عدوها

---

[1] ابن الأبار ، الديوان (ص101).

المبحث الخامس : مواطن اللون الأزرق

غلب على اللون الأزرق الدلالة السلبية حيث تقول العرب " عدو أزرق " [1]، وتشاءموا من كل أزرق العينين [2] .

ويدل الأزرق على المرض والتعب والقلق "ولا تزرق الجلود إلا من مكابدة الشدائد "[3]

واتخذ اللون الأزرق دلالة إيجابية في شعر الحروب والفتن فقد وصفت به عدة الحرب [4]" ، إضافة إلى كونه لون السماء فالأزرق الفاتح يعكس الثقة والبراءة والشباب " أما القاتم فهو دليل الخمول والكسل والهدوء والراحة " [5].

أولا : اللون الأزرق في الإنسان

تنوعت دلالة اللون الأزرق في الإنسان بين الإيجابية كالإشارة إلى الجمال ، والصفاء فهو لون السماء ، وبين السلبية كدلالته على المرض إن صبغت به العين أو القلب وفيما يأتي بيان ذلك:

يصف ابن حمديس الروم بالزرق حيث يقول :

جَعَلت نيوبَ الثّغرِ زُرْقَ أسِنّةٍ فَلَم تَجنِ زرقُ الرّوم مِنهُ رضابا[6]

فالممدوح أحكم سيطرته على ثغور المسلمين ، حتى إن كل ثغر مثل نابا شرسا في وجه كل من يحاول الاعتداء ؛ فهي محمية بالأسنة الزرقاء الماضية ، التي لا تخطئ أبدا ، حتى بث الرعب في جيوش الروم حيث فقدوا الأمل والثقة في حرب المسلمين ، وهؤلاء تميزوا بالعيون الزرقاء ،وهي عيون تتشاءم منها العرب ، وتشير إلى غرابة الشخص عن الأصول العربية التي كانت تعلي دائما من لون العيون الأسود، حتى إن الأسنة سهل عليها أن تتعرف على خصومها فتغير عليهم بلا تردد أو شك .

---

[1] الثعالبي ، فقه اللغة (ص 128) .

[2] ينظر: الجاحظ ، الحيوان (ج2 / 300-301) .

[3] شحادة : اللون ودلالاته في شعر البحتري (ص 56).

[4] المرجع السابق، ص 57 .

[5] عمر : اللغة واللون (ص 183).

[6] ابن حمديس ، الديوان (ص57) .

وقد ورد ذكر اللون الأزرق في القرآن الكريم في قوله تعالى {يَوْمَ يُنفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا} { سورة طه، 102}، أي زرق العيون، والعرب تتشاءم بزرقة العين، قال الفراء زرقاً: أي عمياء.

واستخدم ابن الزقاق البلنسي اللون الأزرق في إشارة إلى المرض قائلا:

فالبَس فؤادي وُقِيْتَ لوعَتَهُ فإنَّه أزرقٌ منَ الكمد[1]

أنشد الشاعر هذا البيت في جزء من قصيدة يرثي فيها موت الشجعان ، ويصف ما حل به جراء فراقهم ، حيث صار قلبه أزرقا ، وهذه حالة مرضية ، يدل عليها اللون الأزرق إذا أصاب الأعضاء البشرية ، حيث تتحول هذه الأعضاء من حالتها الطبيعية إلى حالة أخرى غير طبيعية .

يؤكد ما ذكر أنه علل سبب هذا السقم مشيرا إلى كمده وجواه الشديد على الفراق .

يصر لسان الدين بن الخطيب بأحقية ممدوحه في الخلافة حيث رفع لواء الملك وأقام دعائمه وحارب المناكفين له ، واستقر الأمر بتوحيد الدولة على خليفة واحد ، ويلجأ لاستخدام اللونين الأزرق والأحمر في برهنته على ذكاء ممدوحه وشدة بأسه فيقول :

ومُلْتَفِتٍ عنْ أزْرَقِ اللّحْظِ قدْ حَكى بهِ العَلَقُ المُحْمَرّ مُقْلَةَ أرْمَدِ[2]

فالممدوح يتمتع بقدرة فائقة على إخضاع الخصوم ، فدليل ذكائه ومكره قول الشاعر: (**أزرق اللحظ**) وهذا يشير إلى المكر الشديد حتى إنه ليبدي ما لا يظهر ، فتلمع في حقيقة الأمر بين عينيه الدماء المتساقطة .

ويستدعي حازم القرطاجني زرقاء اليمامة والتي تميزت برؤيتها الحادة ، وشكلت أنموذجا مستمرا في قصائد الشعراء حيث يقول :

يرى كلّ خافي مقتلٍ من سنانه بعينٍ كزرقاء اليمامة زرقاءِ[1]

---

[1] ابن الزقاق ، الديوان (ص 81) .

[2] ابن الخطيب ، الديوان (ج1/ 312).

والبيت يدلل على شدة تمكن المقاتل من عدوه حيث أصبح يرى من يستخفي منه ، يذكر أحد الصفات المميزة له وهي العيون الزرقاء ويطلق لفظ (زرقاء اليمامة) على حاد البصر.

يستخدم ابن الحداد الأندلسي اللون الأزرق في الدلالة على التنعم الحاصل للمحبوبة جراء إحساسها بالأمان والرفعة التي حققها والدها الأمير حيث يقول :

وفي الكِلَّة الزَّرْقَاءِ مَكْلُوْءُ عَزَّةً تَحِفُّ به زُرْقُ العوالي الكَوَالئُ[2]

فهي تنام ويحيطها سترٌ رقيق شفاف صاف أزرق مُثَقَّبٌ تحفظ به من الضرر فهي كالظبية في جمالها، علاوة على قيام جيوش الخلافة بحراستها حيث يحملون زرق الأسنة الصافية الشفافة الماضية التي تحيط بها فتحميها من أذية الأعداء الغادرين .

وفي هذه الصورة الجميلة إشارة واضحة إلى مقدار الترف والراحة والطمأنينة التي أعطيت لنساء المسلمين فليس هذا الحال خاص بالمحبوبة بل هو منطبق على غيرها من نساء الأندلس.

ثانيا : اللون الأزرق في الطبيعة

تعلق الإنسان منذ نشأته بالسماء ولونها الأزرق ، وكان هذا اللون منشأ الراحة ، وصفوا به السحاب الممطر ، والمياه الصافية العذبة ، والطيور الجارحة القوية ، يرسم ابن اللبانة في إطار الافتخار القبلي على إحدى صور العزة والقوة فيقول :

يغير على زرق المياه[3] وقد رنت إليها عيون الزرق من كل لهذم[4]

حيث لا يشربون إلا من المياه الصافية التي عكست لون السماء الازرق لشدة نقائها من الكدر ، وهذا الوصف قديم عند العرب حيث كانت علامة منعة أن ترد القبيلة النبع الصافي من المياه الذي لم يمسه أحد من قبل .

---

[1] القرطاجني ، الديوان (ص 5).

[2] ابن الحداد، الديوان (ص 143).

[3] وماءٌ أزرق : شديدُ الصفاء

[4] ابن اللبانة ، الديوان (ص134).

بل ويؤكد معنى الفروسية والشجاعة التي تتحلى بها هذه القبيلة عند ذكره لطائر العقاب الذي أشار إليه بقوله (عيون الزرق) وهو من الطيور النسرية من رتبة الصَّقريات ، ويتميز بامتلاء جسمه ، وعِظَم حجمه ، وكبر منقاره الواضح التقوّس، والحادّ الأطراف ؛ حيث لم يستطع هذا الطائر القوي أن يغير على تلك المياه للشرب منها خوفا على حياته أن تنفق .

ويثني لسان الدين بن الخطيب على آل نصر مستخدما اللون الأزرق فيقول :

لِلَّهِ سَيْفُك وَالْقُلُوبُ بَوَالِغٌ ثُغَرَ الحَنَاجِرِ والنُّفُوسُ ظِمَاءُ
تَتَزَاحَمُ الأَرْوَاحُ دُونَ وُرُودِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ نُطْفَةٌ زَرْقَاءُ[1]

فالقلوب تتسارع إلى سيف الخليفة ؛ لكثرة ظمئها ، فهي ترى فيه المنجاة والسقيا ؛ لذا تتزاحم عليه كما يتزاحم العطشى على الماء القليل ؛ لشدة حاجتهم إليه .

وقد استعمل اللون الازرق ليدلل على صفاء الماء في إشارة بيِّنة إلى السيف الخالي من العيوب ، شديد المضاء .

كما استخدم اللون الأزرق في الدلالة على شدة العطاء ، خاصة إذا نعتت به الغيوم يقول ابن سهل الأندلسي :

ما زالَ يُظهِرُ فِيَّ آيَةَ جودِهِ حَتّى كَساني بِالسَحابِ الأَزرَقِ[2]

فعلامة إظهار الجود ذلك السحاب الأزرق المحمل بالغيث والخير ، حيث إن اللون الأزرق جاء في الدلالة على القرب الشديد لسقوط الأمطار وهذا آخر ألوان السحابة قبل نزول الغيث، ولجأ الشاعر هنا إلى التجسيم حيث يمثل السحاب كسوة تنبي بحصول النماء والخضرة في أنحاء الدولة المختلفة على امتدادها .

ثالثا: اللون الأزرق في الأدوات

تميزت الحراب باللون الأزرق ، لبيان شدة مضائها ،وقد التصق هذا اللون بها حتى صار اسم علم يدل عليها ، فمن صور إبداع ابن خفاجة في استخدامه للسنان الأزرق أقحمه

---

[1] ابن الخطيب ، الديوان (ج1 / 95)

[2] ابن سهل ، الديوان (115).

في الليل لتكتمل دائرة اللون القاتم على الأعداء فهذا الجيش المسلم يستمر في الانقضاض على فريسته ، لا يوقفه حد الزمان ولا المكان ، حيث طاروا نحو قلوب أعداهم فاقتلعوها يقول:

تَأتي صُقورٌ مِنهُمُ مُنقَضَّةٌ قَدَراً عَلى مُهَجِ العَدُوِّ مُتاحا
مَلَأوا ضُلوعَ اللَيلِ زُرقَ أَسِنَّةٍ سالَت عَلى أَعطافِهِ أَوضاحا[1]

وإمعانا في تصوير مقتلة الأعداء العظيمة يستخدم الليل في الدلالة على سواد يوم الأعداء عند الوقيعة حيث امتلأ هذا اليوم بالرماح والحراب التي دخلت فيه ، فحولته إلى نهار مشرق بعد أن أزالت غمته وشدة ظلمته .

ودل اللون الأزرق على الخديعة عند اقترانه بالمصائد أو الحبال ، يتحدث ابن دراج القسطلي واصفا هروب جيش العدو وعلى رأسه قائد هذا الجيش ابن شنج فيقول:

فرُبَّ ذي قَنصٍ زُرقٍ حبائِلُهُ[2] قَدْ صادَ ظَبياً وَكَانَ اللَّيثُ من طَرَدِهْ
وقد تركْتَ ابنَ شَنجٍ فلَّ مُعتَرَكٍ إن لَمْ يَمتْ من ظُباهُ ماتَ من كَمَدِهْ[3]

بدأ الشاعر حديثه بحكمة استوحاها من واقع الصراع الحيواني ، فالظبي الهارب من الأسد قد يقع في مصيدة أخرى تدميه لم يكن يتوقعها ، فيفر من موت إلى آخر لا نجاة منه ، وهذا هو حال الشريد الذي تعرض لذكره فهو فلَّ من المعركة ظانا أنه سينجو لكنه إن لم يصبه الموت الحقيقي فإنه يموت في كل يوم من شدة قهره وحسرته .

وأطلق لفظة اللون الأزق على المصيدة ليدلل على فكرة المباغتة والمفاجأة غير المتوقعة التي تحصل ، وفي هذا نوع من الخداع، فدل اللون الأزرق على الخفاء والتمويه والمكر.

---

[1] ابن خفاجة ، الديوان (ص 68).

[2] الأُحْبُول ، المصيدة ، أداة مصنوعة من حبال يُؤخذ بها الصَّيد.

[3] ابن دراج ، الديوان (ص540).

نوع الشعراء الأندلسيون في استعمالاتهم للون الأزرق ،فاتخذ اللون الأزرق دلالة سلبية في الإنسان إذ دل على المرض؛ فالقلب الأزرق مريض مكلوم ، والعين الزرقاء غريبة أعجمية فيها مذمة وخيانة .

أما في مجال الأدوات فقد استعمل للدلالة على لمعان السنان ، واعتبره بعضهم رمزا للحيلة والدهاء خاصة في الرماح والحراب .

وفي مجال الطبيعة كان علامة لصفاء المياه ، وإمطار السحاب ، وقوة الطيور وحدة طبعها .

المبحث السادس : مواطن اللون الأصفر

ارتبط اللون الأصفر بالإشراق والتنعم، فـ" هو لون الشمس واهبة الحرارة والحياة والنشاط والغبطة والسرور " [1] ، وهو لون الذهب الذي يعد " رمزا للمجد والثروة " [2] .

وارتبط كذلك بالموت والمرض والشحوب والجدب والقحط [3]، يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَسَلَكَهُ يَنَابِيعَ فِي الْأَرْضِ ثُمَّ يُخْرِجُ بِهِ زَرْعًا مُخْتَلِفًا أَلْوَانُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ يَجْعَلُهُ حُطَامًا إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرَى لِأُولِي الْأَلْبَابِ } [4]

أولا: اللون الأصفر في الإنسان

تعدد دلالات استعمال اللون الأصفر في الإنسان باختلاف الموصوف به فبينما دل على العطاء في اليد ، دل على الخوف والأرق والمرض في الوجه .

يقول الشاعر :

فكأن حبركَ أحمرٌ لا أسودٌ ويراعُ كفِّكَ أسمرٌ لا أصفر[5]

العرب تصف اليد الكريمة بالإضاءة واللمعان لما تقدم من خير وعطاء تنير به دروب الآخرين ، وكما بدأ الشطر مفعلا الانزياح اللوني من الأسود إلى الأحمر يتجلى هذا الانزياح في الشطر الثاني حيث صار لون اليد الأسمر إشارة كنائية عن الرماح التي تحملها فتزهق أرواح العداة .

يقول ابن سهل الأندلسي مستخدما اللون الأصفر في تحديد الجنس :

يا آلَ أَصفَرَ هَبكُم لِلوَغى شَرَراً فَهَذِهِ الشَمسُ تُطفي ذَلِكَ الضَرَما[6]

---

[1] شكري ، الإضاءة المسرحية (ص 76).

[2] محمد ذياب ، جماليات اللون في القصيدة العربية (ص 42).

[3] ينظر : شكري ، الإضاءة المسرحية (ص 127).

[4] [الزمر: 21] .

[5] ابن الزقاق ، الديوان (ص 100).

[6] ابن سهل ، الديوان (ص 145) .

ينادي الشاعر الروم بما تميز به جنسهم وهو اللون الأصفر الذي يدلل روميتهم ، حيث يرى أن شرر الحرب الذي أوقدوه سينقلب عليهم ، ولن يكون له أثر يذكر فالشمس تغطي على كل النجوم في وضح النهار فلا يظهر منها شيء ، لشدة سطوتها وتوهجها وسيطرتها في الكون.

ومنه استخدام ابن الأبار للون الأصفر في الدلالة على الجنس الرومي حيث قال :

وَيُساقِي الصُّفْرَ حُمْرَ المَنايا بِالصّعادِ السمْر أو بِالصّفاح[1]

فالمنايا أضحت شرابا يسقى به الأعداء الروم ، حيث أضحت الرماح والحراب والسيوف كؤوسا يشرب بها الأعداء .

وعلى نحوه قول ابن خفاجة :

تَرى بَني الأَصفَرِ البيضَ الوُجوهِ بِهِ قَد راعَها السَيفُ فَاِصفَرَّت بِهِ وَجَلا[2]

كما حمل ابن حمديس اللون الأصفر للدلالة على الخوف الشديد فقال :

بَنو الأَصفَرِ اصْفَرَّتْ حَذاراً وُجوههم فَأَيديهِمُ مِن كُلِّ ما طَلَبوا صِفْرُ[3]

كسى الشاعر لون بشرة الأعداء الصفرة ممعنا فيها مدللا على حجم الذعر الكبير الذي عرض لهم خوفا من القتل ، فبعد أن كانوا يظنون الوهن في المسلمين أصبحوا مرعوبين من هول ما رأوه ، فصاروا تائهين لا يدرون ماذا يفعلون ، وعادوا صفرا لم يحققوا شيئا ، ولم يتقدموا شبرا.

وفي دلالة مغايرة يمدح العتبي المراونيين بقوله :

في جنة بإزاء النجم سامية أهدت لها طيبها جنات رضوان

---

[1] ابن الأبار ، الديوان (ص135).

[2] ابن خفاجة ، الديوان (ص 193) .

[3] ابن حمديس ، الديوان (ص252) .

وأوجه كنجوم الليل زاهرة حفت ببدر دجى من آل مروان [1] .

حيث شبه وجوههم بالنجوم المضيئة المشرقة ، وبالبدر المكتمل استدارة ولونا ، حيث يعرف بلونه الأصفر إذا اكتمل ، وهو هنا دليل حسن وجمال .

ويصف ابن عبد ربه الذعر الذي يصيب المعتدين جراء رؤيتهم لممدوحه ، فتقشعر جلودهم مجرد رؤية يسلاحه ، خوف أن تقتل به فيقول :

وترى الحديدَ فتقشَعرُّ جُلودُها خوفَ الطِّعانِ غداةَ كلِّ نِهاجِ[2]

ويستمر الشاعر في تصوير ألوان الوجوه حيث تميزت بلونين اتحدث دلالتهما هما اللون الأسود الخالص الذي يدل على سوء المآل والعاقبة والأصفر الدال على الخوف والجبن والقلق يقول :

دُهمٌ كأَسْدفةِ الظَّلامِ وبعضُها صفرُ المناظرِ كاصفرارِ العاجِ

فالوجوه سوداء خالصة السواد كالظلام الذي لم يتخلله نور ، وهي صفراء كالعاج العتيق الذي يتحول إلى الصفرة كلما مر عليه الزمن ، فصفرته تدل على كونه عتيقا أقرب للفناء والبلى.

ثانيا : اللون الأصفر في الطبيعة

استعمل اللون الأصفر في الطبية في دلالتين متناقضتين أحدها الجمال والنضارة ، والأخرى الذبول والأفول ، ففي الحنين إلى الموطن يدعو الرصافي البلنسي الله تعالى أن يمد مدينته بالغيث المتواصل من السحاب حيث تشترك السحابة في البكاء على مدينة بلنسية شوقا إليها يقول:

فَلا حُرِمَت سُقياهُ أَدمُعَ مُزنَةٍ[3] تَرى مَبسَمَ النُوّارِ أَصفَرَ مُغبَرّا[1]

---

[1] أبو حيان ، المقتبس (ص 201).

[2] ابن عبد ربه ، الديوان (ص39).

[3] مزنة : غيمة أو سحابة .

فينتج عن هذا الغيث أن تصبح الأرض مخضرة مبتسمة بالنوار المميز مختلف الأشكال والألوان ، وقد استحضر النوار الأصفر كعنصر مهم من عناصر الجمال الخلاب والذي يعبر عن تلك الابتسامة الفرحة بحضور الخير والنماء .

وفي إطار الهجاء السياسي يهجو لسان الدين بن الخطيب اليهود الذين ابتعدوا عن الهداية وآثروا الغواية ، حيث يخفون ما لا يبدون فإن خافوا أبدوا الإذعان وإن أمنوا أعلنوا التمرد والخذلان حيث مثل لهذا التقلب بقوله :

وعُصْبةِ شرٍّ منْ يَهودٍ لَقيتُها يُجانِبُها داعي الهُدَى ويُحاشيها
إذا أمِنوا واستَوْثَقوا البابَ أعْلنوا خَبائِثَ ما كان اللّسانُ ليُفْشِيها[2]

ويستمر عارضا صورة تشبيهية تستهزئ بصلاة اليهود حيث رؤوسهم عند الصلاة تومئ للأرض مهتزة ذليلة كأعواد القمح الذابلة صفراء اللون .

كأنّ رؤوسَ القومِ عندَ صَلاتِهِمْ وقد أوْمأتُ للأرْضِ صُفْر شَواشِيها

وفي استخدام جديد لألوان الزهور من باب الأدب الرمزي المشتق من الطبيعة طالعتنا في كتب الأدب بعض النماذج الجيدة منها ما بعثه ابن برد حينما كتب رسالة تصور فيها جدلا كبيرا بين نواوير خمس انتهى باتفاقها على مبايعة الورد ، وهو هنا يقصد أن يقوم بني جهور بمبايعة أميره مجاهد العامري نظرا لغلبته وتفرده ومنها قوله :

شهد البهار وذو الجلالة عالم بصحيح ما يبدي وما يخفيه
أن الإمارة في الأزاهر كلها للورد لا يؤتى له بشبيه [3]

فالبهار يعد من النواوير ذوات اللون الأصفر ، وقد كنى به عن بلاط إشبيلية ، لكن صاحب إشبيلية رفض المبايعة ورد على لسان شاعره برسالة أخرى تحمل نفس الفكرة وذات

---

[1] الرصافي البلنسي ، الديوان (ص73).

[2] ابن الخطيب ، الديوان (ج2/ 739).

[3] الحميري ، البديع في وصف الربيع (ص 57)؛ وإحسان عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي عصر الطوائف (ص 292) .

المضمون أن خمسة من النواوير اتفقت على نقض البيعة مع الورد وإثباتها للبهار الأصفر فيقول:

أصفر الخيري يشهد أن عقد الورد قد رد

ويرى أن البهار ال منتقى أعلى وأمجد

ملك يقظان يأتي وصنوف النور هجد [1].

وليس يخفى ما في هذه الأبيات من دعوة سياسية لبلاط إشبيلية وصاحبه .

ثالثا: اللون الأصفر في الأدوات

صبغت الدروع باللون الأصفر لتقويتها وشدها ، يقول ابن خفاجة واصفا دروع وتروس المقاتلين :

فَما البَطَلُ الحامي وَقَد صافَحَ الطُلى بِأَبيَضَ بَسّامِ الفِرِندِ طَريرِ

بِأَطوَلَ باعاً مِن رَحيمٍ وَقَد سَطا بِأَرقَشَ[2] مُصفَرِّ القَميصِ قَصيرِ[3]

وصف الدرع الذي يستخدمه الجندي أثناء الالتحام في المعركة ، فهو وسيلة للوقاية من اخطار الأعداء ، وكذلك وصف للترس الذي يصنعه العربي من جلد قوي مصبوغ يحيط به جسمه ؛ ليصد به واغل النبل والسهام التي تأتيه من كل جهة وصوب وهو غافل عنها ؛ ولهذا كان الترس أخف حملاً من الدرع ، وهو لا يعوق حامله أو لابسه عن الحركة السريعة الخفيفة.

وقد وصفها الشاعر بوصفين أحدهما : اللون الأصفر وهو لون الصباغ والذي يدلل على متانتها ، فلا يمكن أن تخترقه سيوف الأعداء ، وثانيها القصر والذي يدلل على عدم ثقله حيث تسهل الحركة والمناورة به أثناء القتال .

---

[1] الحميري ، البديع في وصف الربيع(ص 58).

[2] لون فيه كدرة وسواد ونحوهما.

[3] ابن خفاجة ، الديوان (ص 105).

رابعا: اللون الأصفر في الحيوان .

ذكرت الخيول بلونها الأصفر المذهب ، وقد جمع لسان الدين بن الخطيب ألوان الخيول العربية الأصيلة وصفاتها القتالية فقال في وصف بديع لها في ساح المعركة:

والخيْلُ تهُدّ مرابِطها	**وتَقُدّ أعنّتَها حنَقا**
شُهْبٌ كالشّهْبِ إذا قُذِفَتْ	**دُهْمٌ كاللّيلِ إذا غسَقا**
صُفْرٌ كالشّمْسِ إذا جنَحَتْ	**حُمْرٌ قد أُلْبِسَتِ الشّفَقا**
إمّا صهَلَتْ في أرْضِ عِدىً	**فغُرابُ البَيْنِ بهِمْ نَعَقا**[1]

فالخيل متشوفة للقتال ، لا تقبل أن تبقى في رباطها ، بل تريد الانطلاق لملاقات الأعداء وقتالهم ، ويبدأ بوصف ألوانها واضعا لكل نوع صفة تميزه فالأشهب منها سريع الإغارة على الأعداء كأنه شهاب نازل من السماء ، والأدهم سواده حالك لا يختلط بشيء وهو من أفضل أنواع الخيول العربية الأصيلة ، واشتهر خيل عنترة بن عبس الذبياني بأنه أدهم وقال فيه شعرا كثيرا .

أما الصفر منها فهي التي تشبه الشمس في سطوعها إن ظهرت تغطي على كل شيء دونها ، ويعرج على الخيول الحمراء التي تشبه الشفق الساطع عند الغروب .

ويجمع هذه الأنواع الخمسة من الخيول العربية الأصيلة في البيت الأخير ليعبر عن مآل من غزتهم هذه الخيول المقدامة حيث يرثيهم غراب البين وهم قتلى .

مما سبق نجد **أن** اللون الأصفر استعمل في شعر الحروب والفتن في مواطن مختلفة هي :

- اتسمت دلالة اللون الأصفر في الطبيعة بالخير والنماء والجمال حيث أطلق على الأنوار والنجوم والكواكب المضيئة والشمس والذهب وغيرها .
- الدلالة الإيجابية للون الأصفر في الإنسان جاءت عند وصف اليد بالصفراء حيث يقصد بها الكريمة ، والمعطاءة .

---

[1] ابن الخطيب ، الديوان (ج2/ 689).

- الدلالة السلبية للون الأصفر في الإنسان وردت عند إلصاقه بالرأس أو الوجه أو لون البشرة ؛ كلها تدل على الخضوع ، والانكسار ، والذلة ، والمهانة ، والخوف ، والقلق ، والذبول .
- اتصل اللون الأصفر بالدروع كناية على قوتها ومتانتها ، وكذلك الخيول العربية الأصيلة التي تظهر بخيلاء في ساح المعركة حيث يساعدها لونها في ذلك .

الفصل الثالث

أبعاد اللون في شعر الحروب والفتن

في الأندلس

يمر الشعراء بتجارب حياتية خاصة بهم ، تترك أثرا بالغا في أشعارهم ، وكلما كانت الظروف المحيطة بالشعراء واحدة ، كان الاتجاه الشعري قريبا ، باستثناء بعض التجارب الخاصة.

لذا سيتناول هذا الفصل تحليل الأبعاد المختلفة التي تركت أثرها على الشعراء ، وجعلتهم يوظفون الألوان في التعبير عما يدور في خلدهم ، من معان وإشارات .

ولما كان الإسلام هو المعين الكبير الذي نشأ عليه هؤلاء الشعراء ، وبالتالي تصدر بناء على تعاليمه أفكارهم العامة والخاصة ، إذا هو الناظم لحياتهم ، كان المبحث الأول ليغطي هذا البعد ، ويقيس مدى حضور الفكرة الدينية في أذهان شعراء الأندلس على اختلاف عصورهم.

كما كان للأساطير دور مهم في أذهان الشعوب ، حيث إنه أتيح للأندلسيين ما لم يتح لغيرهم ، فهم الذين ورثوا الحضارة اليونانية بحكم وجودهم في قلب أوروبا ، وتعلقوا بالحضارات المشرقية حيث أولعوا بها ، وقادهم الحنين إليها ، لذا تناول المبحث الثاني الجانب الأسطوري الذي ترك آثاره على نفسيات الشعراء ، ويعد هذا المبحث محاولة لتتبع الرموز اللونية الأسطورية المستخدمة لدى الشعراء الأندلسيين .

وقد درس المبحث الثالث من هذا الفصل البعد السياسي نظرا لتعلق عنوان الدراسة به ، فالدراسة تعتمد في بعض جوانبها على دراسة المواقف والأفكار السياسية التي دعت إلى ظهور هذا النوع من الشعر ، ودراسة العلاقات اللونية به .

وفي المبحثين الرابع والخامس سيتناول الباحث البعدين الاجتماعي والنفسي لما لهما من دور بارز سبر أغوار الشعراء ، والكشف عن مكنوناتهم على اختلاف محاضنهم ، وأماكن نشأتهم، حيث يرجى من هذين المبحثين أن يتيحا معرفة القيم الاجتماعية والانفعالات النفسية التي حضرت في شعر الحروب والفتن ، وذلك من خلال العلامة اللونية .

المبحث الأول : البعد الديني

تأثر شعر الحروب والفتن في الأندلس بالدين السائد، حيث وجد كم كبير من النصوص المتناصة مع القرآن الكريم والسنة النبوية المشرفة ، والتعريف بأبرز عقائد النصارى المحاربين لهم كعقيدة التثليث ، وصلب المسيح وغيرها ، وقد لاحظ الباحث دلالة الألوان على تلك الأبعاد ذات التوجه الديني من خلال علاقتين : أولاهما الدلالة اللونية المشتركة ، والثانية علاقة التناص الديني مع السياق اللوني.

أولا: الدلالة اللونية المشتركة

تعد الدلالة اللونية المشتركة سمة بارزة في ألوان شعر الحروب والفتن حيث لاحظ الباحث استخدام الشعراء الدلالات اللونية القرآنية في أشعارهم ، فمن المعلوم وصف الله تعالى الفجر بالضياء ، وجعله علامة بداية النهار ، وعنده يمسك المسلمون صيامهم ، وفيه قال الله تعالى : {أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ الصِّيَامِ الرَّفَثُ إِلَى نِسَائِكُمْ هُنَّ لِبَاسٌ لَكُمْ وَأَنْتُمْ لِبَاسٌ لَهُنَّ عَلِمَ اللَّهُ أَنَّكُمْ كُنْتُمْ تَخْتَانُونَ أَنْفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنْكُمْ فَالْآنَ بَاشِرُوهُنَّ وَابْتَغُوا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَكُمْ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا حَتَّى يَتَبَيَّنَ لَكُمُ الْخَيْطُ الْأَبْيَضُ مِنَ الْخَيْطِ الْأَسْوَدِ مِنَ الْفَجْرِ ثُمَّ أَتِمُّوا الصِّيَامَ إِلَى اللَّيْلِ وَلَا تُبَاشِرُوهُنَّ وَأَنْتُمْ عَاكِفُونَ فِي الْمَسَاجِدِ تِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا كَذَلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ } [1]

وقد استعمل حازم القرطاجني دلالة اللون الأبيض على النور مستخدما لفظة (خيط) فقال:

فانبثَّ ما ابيضَّ من خيط الصَّباح بكم وانبثَّ مسودّ خيطِ اللَّيلِ وانقطعا[2]

ففي البيت إشارة إلى انبعاث الصباح ونوره وإضاءته بفضل طلوع هذا القائد المنتصر ، وفي المقابل انقطعت ظلمة الليل التي خيمت على المدينة المحررة طيلة مكوث الأعداء فيها .

---

[1] [البقرة: 187] .

[2] القرطاجني، الديوان (ص 76).

وصف أبو حيان الأندلسي وجوه العرب بالبيضاء، في إطار هجائه السياسي العنصري ضد الزنوج ، حيث شبه وجوه الزنج بوجوه أهل النار سوداء ، ووجوه المؤمنين بوجوه أهل الجنة التي تتسم بالبياض ولذا يقول :

وَبَينَ البيضِ وَالسودانِ فَرقٌ لِذي عَقلٍ بِهِ اِتَّضَحَ المُرادُ

وجوهُ المُؤمنينَ لَها اِبيضاضٌ وَوَجهُ الكافِرين بِهِ اِسوِدادُ[1]

وهذه الأبيات السابقة تستعمل نفس الدلالة اللونية القرآنية حيث يقول الله تعالى في محكم التنزيل : {يَوْمَ تَبْيَضُّ وُجُوهٌ وَتَسْوَدُّ وُجُوهٌ فَأَمَّا الَّذِينَ اسْوَدَّتْ وُجُوهُهُمْ أَكَفَرْتُمْ بَعْدَ إِيمَانِكُمْ فَذُوقُوا الْعَذَابَ بِمَا كُنْتُمْ تَكْفُرُونَ (106) وَأَمَّا الَّذِينَ ابْيَضَّتْ وُجُوهُهُمْ فَفِي رَحْمَةِ اللَّهِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ} [2] ، فكان البياض علامة أهل الإيمان ، والسواد علامة مميزة للمعذبين في النيران .

وقد استعمل القرآن الكريم دلالة اللون الأبيض المستخدم في العين على المرض والعمى ، وذكر ذلك في قصة سيدنا يوسف – عليه السلام – في بيان أثر كثرة البكاء على عين نبي الله يعقوب – عليه السلام حيث يقول تعالى : {وَتَوَلَّى عَنْهُمْ وَقَالَ يَا أَسَفَى عَلَى يُوسُفَ وَابْيَضَّتْ عَيْنَاهُ مِنَ الْحُزْنِ فَهُوَ كَظِيمٌ (84) قَالُوا تَاللَّهِ تَفْتَأُ تَذْكُرُ يُوسُفَ حَتَّى تَكُونَ حَرَضًا أَوْ تَكُونَ مِنَ الْهَالِكِينَ (85) قَالَ إِنَّمَا أَشْكُو بَثِّي وَحُزْنِي إِلَى اللَّهِ وَأَعْلَمُ مِنَ اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ} [3] .

فتبين أن هلاك عينه كان بسبب الإفراط في الحزن ، والهم والغم الناتج عن فقدانه ولده، يظهر ابن الزقاق البلنسي في دلالة موازية لدلالة اللون المستعمل في النص القرآني حيث يقول متحسرا على سكنه الذي تركه ، ويرثي مدينته التي أضحت غريبة عليه :

لي سَكَنٌ شَطَّتْ به غُرْبَةٌ جادتْ لها عيناي بالمُزْنِ

ما حَسُنَ الصبحُ ولا راقني بياضُهُ مذ بانَ في الظَّعن

---

[1] أبو حيان الأندلسي ، الديوان (ص65).

[2] [آل عمران: 106، 107].

[3] [يوسف: 84 – 86] .

كأنما الصُّبْحُ لنا بعدَهُ عينٌ قد ابْيَضَّتْ من الحزن[1]

فالشاعر يبكي بكاء شديدا ، ينهال دمعه كالأمطار المنحدرة من السماء ،ويرى التحولات الكونية حتى حجب عنه رؤية الصباح ، ويستدعي بعدها دليل حزنه الشديد بقوله : (**عين قد ابيضت**) أي ذهبت رؤيتها ومرضت من كثرة البكاء الحزن .

ومن الدلالات المستخدمة في الإشارة إلى حسن المرأة ، وصفها بالبيضاء المقيمة في الخدور يقول الشاعر :

وجنَيْتُمُ ثَمَرَ الوقائِعِ يانِعاً بالنصر من وَرَق الحديدِ الأخضَر

وضربتُمُ هامَ الكُماةِ ورُعْتُمُ بِيضَ الخُدورِ بكلِّ ليثٍ مُخدِر[2]

يصف الشاعر جو المعركة فقد قطفت ثمرات النصر بتلك الآلات الحربية الكثيرة من حراب ورماح وسيوف ، ويصف أحد مشاهد الحرب فالأسود من مقاتلي الأعداء قد حصدت رؤوسهم ، النساء المدللات المرفهات قد أصابهن الروع .

وفيه تعالق دلالي مع القرآن الكريم حيث وصف الله تعالى تنعم الحور العين في الجنة بهذا الوصف السابق حيث قال : { وَعِنْدَهُمْ قَاصِرَاتُ الطَّرْفِ عِينٌ (48) كَأَنَّهُنَّ بَيْضٌ مَكْنُونٌ }[3]، فالمقصورات هن المحجوبات فلا يراهن إلا أزواجهن من المؤمنين ، وشبههن بالبيض المكنون كناية عن العفة والجمال .

ومنه قو ل ابن حيوس :

سالٍ عَنِ البيضِ الحِسانِ فَما لَهُ إلّا هَوى البيضِ القَواضِبِ دابُ

لَيثٌ أَظافِرُهُ الأَسِنَّةُ وَالقَنا عِرّيسُهُ وَلَهُ الظُبى أَنيابُ[4]

---

[1] ابن الزقاق ، الديوان (ص 223).

[2] ابن هانئ ، الديوان (ص161) .

[3] [الصافات: 48، 49]

[4] ابن حيوس، الديوان (ج1 ، 60) .

فبطله المقاتل لا ينظر إلى زينة الدنيا ؛ لانشغاله بضرب رقاب الأعداء في ساحات المعركة ، ودل قوله (**البيض الحسان**) على النساء الحسناوات .

استعمل القرآن الكريم اللون الأخضر في الزينة ، واللون الأخضر هو لباس أهل الجنة ، وقد ذكره الله تعالى في قوله : {أُولَئِكَ لَهُمْ جَنَّاتُ عَدْنٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهِمُ الْأَنْهَارُ يُحَلَّوْنَ فِيهَا مِنْ أَسَاوِرَ مِنْ ذَهَبٍ وَيَلْبَسُونَ ثِيَابًا خُضْرًا مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَّكِئِينَ فِيهَا عَلَى الْأَرَائِكِ نِعْمَ الثَّوَابُ وَحَسُنَتْ مُرْتَفَقًا } [الكهف: 31] ، وهذا ابن دراج القسطلي يستخدم الدلالة اللونية الخضراء على اللباس في إشارة إلى ممدوحه الذي بظهوره تكتسي الدنيا حلل أهل الجنة المدبجة فيقول :

وأَصبحَ الدهرُ من كُساهُ فِي حُمْرِ إِسْتَبْرقٍ وَخُضْرِ

وأَشرقَ المسكُ والغَوَالي فِي أَوْجُهٍ من نداه غُرِّ[1]

استعملت الدلالة اللونية الخضراء إشارة إلى اللباس الجميل المستخدم في الصيف في امتزاج دلالي مع القرآن الكريم ، يتنعم بها كرام الناس عند الله تعالى حيث قال تعالى : {إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي مَقَامٍ أَمِينٍ (51) فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (52) يَلْبَسُونَ مِنْ سُنْدُسٍ وَإِسْتَبْرَقٍ مُتَقَابِلِينَ}[2]، وكذلك قوله تعالى في وصف أحوال أهل الجنة : {عَالِيَهُمْ ثِيَابُ سُنْدُسٍ خُضْرٌ وَإِسْتَبْرَقٌ وَحُلُّوا أَسَاوِرَ مِنْ فِضَّةٍ وَسَقَاهُمْ رَبُّهُمْ شَرَابًا طَهُورًا } [3]

ومن الدلالات اللونية ذات البعد الديني قول ابن الأبار :

وَلَدَيْهِ إِذا اغْبَرّت سَنَةٌ مُخْضَرُّ العَيْشِ وَأَرْغَدُهُ

مِنْ عُرْف عَوارِفه أبَدا أَنْ يَرْفِدَ مَنْ يَستَرفِدُهُ[4]

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص32– 33).

[2] [الدخان: 51 – 53]

[3] [الإنسان: 21] .

[4] الديوان ، ص 156 .

حيث دل الاخضرار على طيب الحياة والعيش ، يقول الله تعالى: {أَلَمْ تَرَ أَنَّ اللَّهَ أَنْزَلَ مِنَ السَّمَاءِ مَاءً فَتُصْبِحُ الْأَرْضُ مُخْضَرَّةً إِنَّ اللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ }[1]، فقد أشار اللون الأخضر إلى الحياة والنماء حيث تخضر الدنيا نتيجة الأمطار ، في دلالة مشتركة بين النص القرآني والشعري تتعلق بالنماء والنضارة .

وقد ارتبط اللون الأصفر بالدلالة على السرور ، والشعور بالبهجة فقد وصف الله تعالى بقرة آل إسرائيل بالصفراء التي تسر الناظرين، قال الله تعالى : {إِنَّهَا بَقَرَةٌ صَفْرَاءُ فَاقِعٌ لَوْنُهَا تَسُرُّ النَّاظِرِينَ }[2]، وفي نفس الدلالة المبهجة يقول الرصافي البلنسي :

فَلا حُرِمَت سُقياهُ أَدمُعَ مُزنَةٍ تَرى مَبسَمَ النُوّارِ أَصفَرَ مُغبَرّا[3]

وارتبطت دلالة اللون الأصفر بالحطام والهشيم الذي يصيب الزرع ، وقد استخدم لسان الدين بن الخطيب هذه الدلالة أثناء هجائه لليهود وسخريته من صلاتهم فيقول :

وعُصْبةِ شرٍّ منْ يَهودٍ لَقيتُها يُجانِبُها داعي الهُدَى ويُحاشيها

إذا أمِنوا واستَوْثَقوا البابَ أعْلنوا خَبائِثَ ما كان اللّسانُ ليُفْشِيها

كأنّ رؤوسَ القومِ عندَ صَلاتِهِمْ وقد أوْمأتُ للأرْضِ صُفْر شَواشِيها

أقاحٍ أمالَتْها الرّياحُ علَى الثّرى وقد أسْقَطَتْ عنْها بَياضَ حَواشِيها[4]

فرؤوسهم منكسرة كسنبلة القمح الصفراء المنثنية ، المنكسرة ، وقد أحاط القرآن الكريم اللون الأصفر بهذه الدلالة ، فالحياة منتهية إلى الفناء كالأشجار الخضراء التي تصفر في علامة على قرب هلاكها وفنائها ، يقول الله تعالى : {عْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الْأَمْوَالِ وَالْأَوْلَادِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرًّا ثُمَّ

---

[1] [الحج: 63]

[2] [البقرة: 69]

[3] الرصافي البلنسي ، الديوان (ص73) .

[4] ابن الخطيب ، الديوان (ج2/ 739) .

يَكُونُ حُطَامًا وَفِي الْآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلَّا مَتَاعُ الْغُرُورِ} [1]

وقد جاءت دلالة اللون الأزرق في القرآن الكريم مشيرة إلى المرض والكمد حيث يقول تعالى : {يَوْمَ يُنْفَخُ فِي الصُّورِ وَنَحْشُرُ الْمُجْرِمِينَ يَوْمَئِذٍ زُرْقًا}[2]، فالأزرق دليل على العمى ، وهو صفة مرض تصيب العين ، وقد ذكر ذلك الزمخشري من كون المراد بالآية هو العمى لأن حدق من يذهب نوره تزرق[3] .

ومن المعلوم أن أي عضو في الجسد يعد مريضا إن تحول لونه إلى الأزرق ، وقد كان العرب القدماء يتشاءمون من اللون الأزرق في العين ، لتعلقه بلون عيون العجم من أعدائهم الروم ، يقول ابن الزقاق البلنسي:

فالبَس فؤادي وُقِيْتَ لوعَتَهُ فإنَّه أزرقٌ منَ الكمد[4]

وفي التفاسير أن قوله تعالى (**زرقا**) يشير إلى ما أصاب الوجوه من الكدر والهم ، وهكذا حال شاعرنا ، فقلبه متغير لونه إلى الأزرق ، دلالة على الكمد والقلق والحسرة .

ومنه استعمال اللون الأزرق كدليل للهلاك يقول الشاعر:

وأداخ أهل المشركين بوقعة تركتهم مثل الأشاء المحرق
جاءت عليهم حربه بصواعق تركتهم مثل الرماد الأزرق[5]

ثانياً: التناص الديني مع السياق اللوني

كان من سمت النبي – صلى الله عليه وسلم – أن يخطب في المجاهدين ، ويحثهم على القتال في سبيل الله تعالى ، وقد سار على هذا المنوال الخلفاء الراشدين من بعده ، وقادة

---

[1] [الحديد: 20]

[2] [طه: 102]

[3] الزمخشري ، الكشاف (ج3 /87).

[4] ابن الزقاق ، الديوان (ص 81) .

[5] ابن عذاري ،البيان المغرب(ج2/ 169).

الفتح الإسلامي بعد ذلك ، وما كان هذا إلا من باب التحريض على الجهاد في سبيل الله تعالى .

لقد تسلل إلى شعر الحروب والفتن الأندلسية الكثير من المبادئ الإسلامية التي جاءت في قصائد الشعراء المتحدثة عن الحروب، والفتن، والبطولات وغيرها ، ومن الملاحظ أن الشعراء خلطوا هذه الأفكار الدينية بالألوان ، لتؤدي وظائف مختلفة ، ودلالات متباينة ، وفيما يأتي نصوص مختارة توضح التناص الديني مع اللون ، في محاولة جادة لفهم بعض الظواهر والوظائف الناتجة من سياق التعابير .

لقد كان الهدف الأساسي من الجهاد هو إدخال الناس في الإسلام ، وقد جاء هذا على لسان ربعي بن عامر حين قال لقائد الفرس :" جئنا لنخرج العباد من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد ، ومن ظلمة الكفر إلى نور الإيمان .." [1]، وأخبرنا القرآن الكريم عن الغاية من هذا الجهاد ، والمتمثلة في نصرة الدين وإحقاق الحق ، حيث قال تعالى :" {لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ }[(2)]، وقد زخرت النصوص الشعرية بهذا المضمون منها قول ابن الأبار الأندلسي :

تَساوقا في سبيل الله واسْتَبَقا فَاستَوْسَقَ النّصر أوفَاه وأبْطؤُهُ

هذا على أَغْبَرِ البَيْداء يسْجرُه وَذاك في أخضَر الدّأماء يملؤُهُ

كُلٌّ عَلَيْهِ بِما جَشَّمْتَهُ أبْداً كِلاءةُ الدين واليُمنُ يُكلِّئُهُ[(3)]

فقد شرع الجهاد في سبيل الله تعالى لنصرة هذا الدين ، فهو يعلو ولا يعلى عليه ، ويسمو ولا يسمى عليه ، وفي هذا المعنى الذي ذكره الشاعر تناص مع القرآن الكريم كما سبق ذكره ، وقد ربط الشاعر بين هذا الهدف وبين الإعداد الحق للجهاد في سبيل الله تعالى والذي يتمثل في تجييش الجيوش الكبيرة الجرارة التي لا تخشى الصعاب ، ولا تهاب الموت ، في كل

---

[1] ابن كثير ، البداية والنهاية (49/7) .

[(2)] [الأنفال: 8]

[(3)] ابن الأبار ، الديوان (ص 42) .

المواطن الوعرة ، سواء في الأراضي الغبراء ، أم في البحار الهائجة الخضراء ، وقد جاء الاستعمال اللوني تأكيدا على هذا البعد الديني .

وإلى هذه الفكرة يتوجه ابن دراج القسطلي حيث يقول :

حَتَّى أَعادَ الدِّينَ أَبيضَ مُشْرِقاً بسيوفِهِ والكُفْرَ أدْهَمَ أَسْوَدَا[1]

لقد استحضر الشاعر قول الله تعالى : {وَجَعَلَ كَلِمَةَ الَّذِينَ كَفَرُوا السُّفْلَى وَكَلِمَةُ اللَّهِ هِيَ الْعُلْيَا وَاللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ }[2]، والمقصود: حتى غدا الدين مرتفعا ساميا ، والكفر منكسرا ذليلا .

ومن المعاني الجميلة التي نراها في باب الجهاد أيضا ، الحديث عن التجارة حيث جعل الله تعالى الجهاد في سبيل الله تجارة رابحة يقول تعالى : {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَى تِجَارَةٍ تُنْجِيكُمْ مِنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ (10) تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنْفُسِكُمْ ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ تَعْلَمُونَ}[3]، وفي هذا المعنى يقول ابن دراج :

تجارَةُ غَزْوٍ نَقْدُها البِيضُ والقنا قضاءَ حُقوقٍ واقتِضاءَ لآجالِ

فللَّهِ كم أَغلَيْتَ من دَمِ مُسْلِمٍ وأَرخَصْتَ فِي أَعدائِهِ من دَمٍ غالِ

وأَسلَمْتَ للإسلامِ فِيهَا بضاعَةً تعود بأَضعافٍ وتوفي بأَمثالِ[4]

فالسيوف والقنا والأرواح هي ثمن العزة والنصر والتمكين ،والذي كان أثره باديا من خلال قوله (**أغليت من دم مسلم**) ، ويؤكد على مفهوم التجارة الرابحة بقوله : **(تعود بأَضعافٍ وتوفي بأَمثالِ)** .

---

[1] ابن دراج،الديوان (ص 453) .

[2] [التوبة: 40]

[3] [الصف: 10، 11]

[4] ابن دراج ،الديوان (ص 279) .

ويؤكد ابن زيدون على وجوب النصيحة بين المسلمين ، وتقديمها للإمام الحاكم من باب أولى ، وهو يستحضر هنا قول النبي صلى الله عليه وسلم :" إنما الدين النصيحةُ" قيل: لمن يا رسول الله؟ قال: "للهِ، ولرسولِهِ، ولأئمةِ المسلمين، وَعَامَّتِهِم"[1] فيقول :

مَليكٌ لَهُ مِنّا النَصيحَةُ وَالهَوى وَمِنهُ الأَيادي البيضُ وَالنِعَمُ الخُضرُ[2]

وفي هذا السياق يتحدث عن مميزات هذا الأمير الذي يغدق بالعطايا والمكارم ، ويده بيضاء من المعاصي والذنوب والشح والظلم وسفك الدماء .

جاء هذا السياق التعبيري اللوني متماهيا مع مبدأ النصيحة لولي الأمر ، ليؤكد على وجوبها ، ويدعو إلى استحقاق الأمير لها .

يستحضر ابن شهيد في أبياته الشعرية قوله تعالى: {عَلَامَاتٍ وَبِالنَّجْمِ هُمْ يَهْتَدُونَ} [3] حين قال :

وكَيْفَ اهْتِدائي في الخُطُوبِ إذا دَجَت وقد فَقَدَتْ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومِي

مَضَى السَّلَفُ الوَضَّاحُ إلا بَقِيّةً كغُرّةِ مُسْوَدِّ القَمِيصِ بَهيمِ[4]

حيث الممدوحين الذين غربوا عن الحياة زادوا من ظلمتها ، فهم النجوم التي تدل على الطريق ، وتحفظ من التيه ، وقد جاء التضاد اللوني في هذا السياق متناسقا مع الآية القرآنية السابقة حيث طلوع النجوم فأل خير ويسر ، وغيابها شؤم وضياع .

ومن المعاني التي ركز عليها الشعراء ، أنهم ردوا أسباب الهزيمة إلى البعد عن الله تعالى ،وارتكاب المعاصي ، هذه الأشياء هي التي تورث العمى سوداوية الرؤية ، فتبيت الأمة

---

[1] أبو عوانة :يعقوب بن إسحاق، المسند الصحيح ، الإيمان/نفي الإيمان ،ج1 / 293 ، حديث رقم 170 .

[2] ابن زيدون، الديوان (ص84).

[3] [النحل: 16]

[4] ابن شهيد ، الديوان (ص 147) .

حيرى ، تلجأ إلى الأعداء ، تظن عندهم المنجاة ، وهم النيران التي تكوي جباه الأمة إنه عمى القلوب ،يقول الشاعر :

لكن العمى أعمت بصائركم فألبستكم ثيابا للبلى جددا

يا أمة هتكت مستور سوءتها ما كل من ذل أعطى بالصغار يدا[1]

فالبصيرة هي العمياء ، التي غطي على نورها الساطع ، بغشاوة سوداء لا مجال فيها للرؤية الصائبة الحقة وكأنه يستدعي قول الله تعالى: { فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَكِنْ تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ}[2].

استدعى الشعراء معاني التهويل المقصود ، لإخافة الأعداء ، سائرين على الطريقة الربانية التي خوطب فيها الناس جميعا ، حيث حذر الله تعالى الناس من أهوال القيامة ، دعاهم إلى الإنابة والخضوع فيقول: {فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِنْ كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا }[3]، فهذا إنزار لمن ألقى السمع أو كان له بصيرة يرى بها، ومن معاني التهويل باستخدام هذا الأسلوب قول الشاعر الأسدي:

أَلَا فَأَذَنُوا مِنَّا قَرِيْبَا بِوَقْعَةٍ تَشِيْبُ لَهَا ولدَائكم وَالمَرَاضِع [4]

وقد استعملت دلالة الشيب من ناحية أخرى على أفول العمر وانقضائه ، ففيما أثر عن الْحَجَّاجِ: "الشَّيْبُ نَذِيرُ الْآخِرَةِ"[5]، يقول الشاعر:

قَدْ كُنْت لَا أَدْرِي لِأَيَّةِ عِلَّةٍ صَارَ الَبيَاض لِبَاسَ كُلِّ مُصَابِ

حَتَّى كَسَانِي الدَّهْر سُحْقَ مِلَاءةٍ بيضاء مِنْ شيْبِي لِفَقْدِ شَبَابِيْ[6]

---

[1] ابن عذاري ، البيان المغرب (ج3 / 110).

[2] [الحج: 46]

[3] [المزمل: 17]

[4] ابن حيان ، المقتبس (ص 62).

[5] الشجري، الأمالي الخميسية (ج2 / 341) .

[6] ابن دحية الكلبي ، المطرب في أشعار أهل المغرب (ج1 / 80).

وقد كان الشيب أحد علامات أرسلها الله لموت موسى – عليه السلام ، كانت علامة الكبر التي قدمها زكريا لربه في الدعاء قال تعالى: {قَالَ رَبِّ أَنَّى يَكُونُ لِي غُلَامٌ وَكَانَتِ امْرَأَتِي عَاقِرًا وَقَدْ بَلَغْتُ مِنَ الْكِبَرِ عِتِيًّا }[1].

حفرت قصة إبراهيم – عليه السلام – مع زوجه هاجر وابنه إسماعيل في ذاكرة الشعراء ، استدعوا من خلالها رعاية الله وعنايته بالمسلمين ، لكنهم في ذات المكان استذكروا الأهوال والقفر الذي عاشه الأندلسيون جراء تركهم لبلادهم ومدنهم المنكوبة ، فأخذوا يصفون جفافها بالوادي الذي لا زرع فيه مستدعين قول إبراهيم – عليه السلام – داعيا ربه مناجيا : {رَبَّنَا إِنِّي أَسْكَنْتُ مِنْ ذُرِّيَّتِي بِوَادٍ غَيْرِ ذِي زَرْعٍ عِنْدَ بَيْتِكَ الْمُحَرَّمِ رَبَّنَا لِيُقِيمُوا الصَّلَاةَ فَاجْعَلْ أَفْئِدَةً مِنَ النَّاسِ تَهْوِي إِلَيْهِمْ وَارْزُقْهُمْ مِنَ الثَّمَرَاتِ لَعَلَّهُمْ يَشْكُرُونَ}[2].

اختلطت هذه المشاعر المحزنة بالأمل في العودة والرجوع إلى الديار ، ليعد الوادي أخضر مثلما كان ، يعج بالحياة وبالحركة يقول الشاعر :

نور ونَور فهذا بعد نُضرته ذوى وذاك خبا من بعد إيقاد

...

ويا مؤمل واديهم لتسكنه خَفّ القطين وجفّ الزّرع بالوادي[3]

ذكر الشاعر هذه الأبيات مستحضرا مفارقة تصويرية جميلة بين الماضي المبهج ، والحاضر المقفر ، وقد نجح في التعبير عن هذا بقوله (**نُور ونَور**) حيث كانت دلالة اللون تفيد الجمال والدعة والراحة ، فلما قال (**جف الزرع**) أفاد التحول والانقلاب إلى سواد النكبة .

---

[1] [مريم: 8]

[2] [إبراهيم: 37]

[3] ابن الصيرفي ، المختار من أشعار أهل الأندلس (ص 28).

كما أشار الشعراء ببعض العقائد النصرانية لعل منها عقيدة التثليث ، فرأوا أن أصول الحرب بين العرب المسلمين ،وبين النصارى هي عقدية ، لذا وسموهم بها ، وعرفوهم بالانتساب إليها يقول الشاعر :

هم بطائفة التثليث قد فتكوا كمثل ما يفتك السرحان بالغنم

وإن يلثمهم يوم الوغى رهجٌ أنسوك ما ذكروه عن ذوي اللثم

تضيء آراؤهم في كلّ معضلةٍ إضاءة السّرج في داجٍ من الظّلم[1]

يستخدم الشاعر الكثافة اللونية في توضيح الانتصار ، من انقلاب حال النصارى أصحاب عقيدة التثليث إلى السواد والإظلام، وارتفاع شأن المسلمين بدينهم وإيمانهم ، ليكونوا مشكاة نور وهداية في ربوع العالمين ، وفي هذا النص التقاء وتضمين لقوله تعالى: {لَقَدْ كَفَرَ الَّذِينَ قَالُوا إِنَّ اللَّهَ ثَالِثُ ثَلَاثَةٍ وَمَا مِنْ إِلَهٍ إِلَّا إِلَهٌ وَاحِدٌ وَإِنْ لَمْ يَنْتَهُوا عَمَّا يَقُولُونَ لَيَمَسَّنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ} [2]وفيه إشارة إلى بطلان دينهم وعقيدتهم .

وهكذا يلاحظ من خلال ما سبق من شواهد وأمثلة أن اللون في شعر الحروب والفتن في الأندلس تعلق كثيرا بالمعاني الدينية والأسطورية، وتجلت هذه المعاني بكثرة توافقها مع القرآن الكريم ، حتى غدا القرآن الكريم مصدراً مهما من مصادرهم التي اعتمدوا عليها في أشعارهم .

وقد توافق استخدام الشعراء لدلالات الألوان الأساسية ومعانيها ، بالدلالات القرآنية لهذه المعاني ، وظهرت تقنيات التناص اللوني مع القرآن الكريم، حيث ارتبطت بشكل كبير بسياق تعبيري مشبع بالألوان المؤكدة للفكرة الدينية التي يدعو لها الشاعر .

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج4 /532).

[2] [المائدة: 73]،

المبحث الثاني : البعد الأسطوري

بين الشعر والأسطورة تشابه كبير يعود إلى تشابه كبير في جوهرهما من حيث وظائف اللغة ، واتساع الخيال، واعتمادهما على الغموض في لغة رمزية مشتركة " فلغة كل منهما هي اللغة المجنحة التي تومئ ولا توضح ، وتوحي بالحقيقة ولا تقبض عليها قبض الرياضيات ... هي لغة الوجدان الإنساني في إحساسه بالأشياء على نحو غامض مستشر"[1].

أما عنصر الخيال فإن له الأثر البارز" في خلق هذه القوة الآسرة بوصفه جوهر الأسطورة والشعر معا ، وأداة التشكيل فيهما" [2] ، حيث يعتمدان على التلميح بدل التصريح ويشتركان في خاصية الإيحاء والترميز وتلوين المعاني بظلال من الخفاء والوضوح ، والتناوب بين الكناية والإفصاح والدلالة والإشارة لذا يمكن وصف الشعر بـ " السليل المباشر للأسطورة وابنها الشرعي " [3] .

هذا المبحث سيدرس البعد الأسطوري الذي أداه اللون في شعر الحروب والفتن الأندلسي ، لا سيما أن الأسطورة قامت منذ القدم عند كل الشعوب ، ومن الطبيعي جدا أن يرى المرء نفسه أمام حشد كبير من المؤثرات الأسطورية في هذا النوع من الأشعار ، فقد ارتبطت الحروب بالكثير من الأساطير في مختلف الحضارات الإنسانية .

أولاً: صور المقاتلين والأبطال

من أكثر التصاوير البارزة في الشعر ، تلك التشبيهات الجميلة التي تضفي قداسة للممدوح ، وتحيطه بهالة كبيرة من الإعجاب والعلو على كل من حوله .

لجأ الشعراء لتقديس المقاتلين والممدوحين فتارة يشبهونهم بالشمس بل يتفوقون عليها وأخرى بالغزال وثالثة بالقمر ورابعة بالنار والنجوم والكواكب الدوارة ، ولا يخفى ما كان يحيط بهذه الموجودات من قداسة ، إذ كانت من أبرز معبودات العرب قبل الإسلام .

---

[1] داوود، الأسطورة في الشعر العربي الحديث (ص 13).

[2] النعيمي ، الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام (ص 13).

[3] السواح، الأسطورة والمعنى ، (ص 22).

يقول ابن شهيد مشبها ممدوحه بالنجم :

وكَيْفَ اهْتِدائي في الخُطُوبِ إذا دَجَت وقد فَقَدَتْ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومِي

مَضَى السَّلَفُ الوَضَّاحُ إلا بَقِيّةً كغُرّةِ مُسْوَدِّ القَمِيصِ بَهِيمِ[1]

فقد شبه الممدوح بالنجم ، الذي يمثل الإنارة المطلقة في وجه المدلهمات والصعوبات ، وهو من معبودات العرب القدماء ويتبعه الضوء والمصباح والنور والإشراق ، وقد رمز في غيابه إلى الظلمة والسواد الذي يحيط الإنسان .

إن هذا الدال اللوني الذي يثيره النجم ، أورث في العربي حبا له فهو الذي اعتاد أن يلجأ إليه في حله وترحاله ، إذ يعد رفيق السفر ، ودليل الطريق ، وصاحب المناجاة ، حتى صار معشوقا للعربي بل معبودا له ولا يخفى ما ذكره الله تعالى على لسان الهدهد حينما استنكر ما يفعله قوم سبأ من عبادة الشمس والنجوم من دون الله تعالى حيث يقول : {وَجَدْتُهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ} [النمل: 24] ، وما ورد على لسان إبراهيم عليه السلام وهو مار في الجزيرة العربية إذ وجدهم يعبدون الشمس والنجوم والكواكب والقمر قال تعالى في محاورة إبراهيم لهم : {فَلَمَّا جَنَّ عَلَيْهِ اللَّيْلُ رَأَى كَوْكَبًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَا أُحِبُّ الْآفِلِينَ (76) فَلَمَّا رَأَى الْقَمَرَ بَازِغًا قَالَ هَذَا رَبِّي فَلَمَّا أَفَلَ قَالَ لَئِنْ لَمْ يَهْدِنِي رَبِّي لَأَكُونَنَّ مِنَ الْقَوْمِ الضَّالِّينَ (77) فَلَمَّا رَأَى الشَّمْسَ بَازِغَةً قَالَ هَذَا رَبِّي هَذَا أَكْبَرُ فَلَمَّا أَفَلَتْ قَالَ يَا قَوْمِ إِنِّي بَرِيءٌ مِمَّا تُشْرِكُونَ}[2].

ومن هنا استخدم ابن شهيد هذا التشبيه ليدلل على قداسة ممدوحه فبغيابه ترك حائرا تائها ، لا يقوى على فعل شيء ، وهذا تأثر بالمعبودات القديمة التي عبدها العرب من دون الله – سبحانه وتعالى .

ومن الصور الجميلة التي تضفي قداسة على الممدوح أيضا رد النماء والخصب إليه فبوجوده في البلاد يحل الخير ، وبفقدانه يحل الجدب والقفر يقول ابن الأبار :

---

[1] ابن شهيد ، الديوان (ص 147) .

[2] [الأنعام: 76 – 78]

وَلَدَيْهِ إِذا اغْبَرّت سَنَةٌ مُخْضَرٌّ العَيْشِ وَأَرْغَدُهُ[1]

حيث أطلق على رغادة العيش لفظة اللون الأخضر ، فالممدوح ممتلك لأسباب الحياة ؛ فهو ربيعها الضاحك المبتسم ، الذي يهب الناس الحياة والخصب ، وصفة الربيع تعيد الذاكرة إلى إلهين هما (بعل) و(تموز)(2) فبعل هو إله الأمطار التي بنزولها تعود الحياة إلى الأرض وتنعم حياة البشر ، أما الربيع فيتمثل في (تموز) الذي باختفائه يعم الجفاف ويهلك الناس ، حتى يعودون للحياة من جديد بعودة (تموز) إله الخضرة الذي يظهر في الربيع ، ومن هنا كان حضور الممدوح يعني حياة الناس وخلاصهم من الشرور ، وغروبه يعني هلاك الناس وخراب الأرض .

كما ألبس الشعراء ممدوحيهم لباس أهل الجنة من الخز والياقوت والذهب والحرير المدبج وغيره ، يقول الشاعر :

وأَصبحَ الدهرُ من كُساهُ فِي حُمْرِ إِسْتَبْرقٍ وَخُضْرِ

وأَشرقَ المسكُ والغَوَالي فِي أَوْجُهٍ من نداه غُرِّ[3]

فالممدوح يتوشى بلباس الحرير المدبج الملون والمقصود هنا قول الشاعر (استبرق) ، فهو ملك متوج بلباس عظيم جميل مزركش وهذا يذكر بلباس الآلهة في الأساطير اليونانية والأساطير المصرية وفي بلاد الرافدين ، فقد كان ملوك اليونان يرتدون عباءات ملونة بالأبيض والأحمر للدلالة على القداسة والشرف [4] .

وفي مجال إظهار القوة والمنعة يلجأ الشعراء لإلباس القادة والمقاتلين الذهب بعد انتهاء المعارك، يقول الشاعر :

---

[1] ابن الأبار، الديوان (ص 156).

[2] ينظر: السواح، مغامرة العقل الأولى (ص 255 – 256) .

[3] ابن دراج ، الديوان (ص32– 33).

[4] جودي، تاريخ الأزياء القيم (ج1 / 31) .

وَسَربَلَتكَ ثَنَاءً جَلَّ مَوقِعُهُ عَمّا كَسَتكَ ثِياباً عَمَّها الذَهَبُ[1]

وهذا يدل على كم الهيبة والعزة الذي تحقق للجنود المقاتلين .

وقد أسكن الشعراء ممدوحيهم في القباب الحمراء، وعلقوا عليها بنوداً حمراء ، والتي كان لها قداسة في الكثير من الديانات العالمية ، ولعل لونها يشير إلى الدم المقدم في القرابين والأضاحي، فهي قباب تدل على تقديم الأضاحي لهذا الشخص ، وطلاء الجدران بدمها ، دليل على المكانة العالية ، يقول الشاعر في وصف الدماء المتساقطة من الأعداء، وشدة ما مر بهم من قتل وتشريد حتى غدت جماجمهم ورودا تحمل على سيقان الزبرجد :

قَامَت فُرَادَى فَوقَ سُوْق زَبَرْجَد صِيْغَت عَلَيْه جَمَاجِمُ العقْيَانِ

يهفو بها مر النسيم كأنها حُمْرُ البُنُودِ نُشِرْنَ فِيْ مَيْدِانِ[2]

فعلامة الغلبة والقوة تلك الأعلام الكبيرة التي نشرت في ميدان القتال وضرب على قباب قادة الجيش المسلم .

ومنه قول ابن زيدون :

إذَا اصْطفَّتِ الرَّاياتُ حُمْراً مُتُونُهَا ذَوَائِبُها تَهْفُو فَيَهْفُو لَها القَلْبُ[3]

يصور الشاعر خفقان قلوب الأعداء وخوفهم كخفقان الرايات الحمراء التي يحملها المجاهدون مصطفة ، في مشهد مرعب يسبق القتل الشديد ، ويرمز إلى الدماء الكثيرة التي تسيل كالجداول .

يقول عبد القادر الرباعي بأن العرب قد ضربت المثل بالقبة الحمراء كدليل على تقديم القرابين لسيد القبيلة ، ومع مرور الزمن أصبح اللون الأحمر في القباب دليلا على المكانة العالية دون أن تقدم الأضاحي لهذا الشخص على وجه الحقيقة [1] .

---

[1] ابن حيوس ، الديوان (ص 68) .

[2] الأصبهاني، خريدة العصر – قسم شعراء الأندلس (ج2/ 315) .

[3] ابن عبد ربه ، الديوان (ص 20).

ومن أمثلة ذكر القباب الحمر في شعر الحروب والفتن الأندلسي قول ابن زمرك :

حيثُ الجهاد قد اعتلَتْ راياتُهُ حيثُ المغانمُ للعفاة تُنَفَّلُ

حيثُ القبابُ الحمرُ تُرفعُ لِلقرى قد عام في أرجائهنَّ المندلُ

لسمو مكانة الأسياد أسكنهم الشاعر في القباب الحمراء ، ومما دل على مكارمهم وعلو منزلتهم قوله : (**القباب الحمر ترفع للقرى**) .

ومن قول أبي زكريا بن هذيل :

بِحَيثُ القِبَابُ الحُمْرُ والأسْدُ الورد كتائِبُ سُكَّان السَّمَاء لَهَا جُنْدُ[2]

ومن الأساطير التي تجلت فيها صورة المحارب أيضا مشاهد شربه من دماء الأعداء، والتي عبر عنها الشعراء بنسبة الشرب أيضا إلى آلة القتال ، فآلة القتال عطشى لدماء الأعداء تنتظر السقيا منها ويتحقق لها ذلك فينتشي المقاتل بهذا المشهد، ويفرح جذلا بهذه الصورة يقول ابن خفاجة :

إذا السَيفُ لَم يَشرَب بِهِ الدَمَ قانِئاً عَبيطاً أَبى أَن يَشرَبَ الماءَ صادِيا[3]

يستخدم الشاعر أسلوب الشرط ليركز على صورة السيف الذي لا يشرب من الدماء إلا الأشد قتامة في إشارة إلى كثرة من يذبحوا على حد صفيحته .

يربط ابن الأبار الاحتفال بالنصر حيث يربط وضع المسك الأسود من دم الأعداء ، الذي يمثل شرابا لهم فيقول :

لا طيبَ حينَ يُعبي عَسكراً لِوَغىً ما لم يكن من دَم الكُفارِ يَعبَؤُهُ[4]

---

[1] ينظر : الرباعي ، الصورة الفنية في النقد الشعري (ص 134).

[2] ابن الخطيب، الإحاطة في أخبار غرناطة (ج125/1)

[3] ابن خفاجة ، الديوان (ص 238).

[4] ابن الأبار ، الديوان (ص 42) .

وفي مشهد آخر من مشاهد الفرح والإكثار من شرب الدماء يعبر الشاعر بصيغة المبالغة عن شرب ممدوحه لدماء الأعداء فيقول :

شَرَّابُ أَكْوَاس المُدَامِ وَتَارَة شرَابُ أَكْوِاسِ الدَّم المَوَّارِ

جرار أذيال القنا ظنوا به قد زاركم في الجحفل الجرار[1]

فلون الدم الأحمر الذي أشار إلى معارك الممدوح مع الأعداء ، ازداد أثره إثر قوله: (**شراب**) ، ومنه قول ابن عبد ربه الأندلسي في وصف وقع المعركة :

ومعترك ضنك تعاطت كماته كؤوس دماء من كلى ومفاصل

وتسمعهم أم المنية وسطها غناء صليل البيض تحت المفاصل

فرنج إذا ما اعتن للعين راكد وبرق إذا ما اهتز بالكف لامع [2].

من خلال الأبيات السابقة تبرز لنا ملحمة (عناة) التي ظهرت في نصوص (أوغاريت) والتي تمثل صورة الرعب حيث تقوم (عناة) بسفك الدماء ، لتلطخ بها كل شيء حتى أصابعها وجسدها ، وتكون (عناة) منتشية بهذه الدماء ، حيث فرحت عند رؤيتها وامتلأ قلبها بالسرور(3)، ومن هنا نلاحظ ولع الآلهة بشر الدماء ففي أحد نصوص(أوغاريت) :

وبينما تشرب الآلهة خمرا بالكبير

ودم الدالية بكأس ذهبية ، بكأس فضية [4]

فهنا كان حب الآلهة للخمر لا على أساس نوعها بل اعتبرتها الآلهة دم لدالية العنب ، وفي نصوص أخرى من هذه الملاحم تقوم (فوغة) بإسقاء قاتل أخيها الخمر على شكل الدم حتى سكر واعترف بفعلته ومن ثم قتلته [1] .

---

[1] أحمد بن عبد السلام ، الحماسة المغربية (ج1 / 772).

[2] ابن عبد ربه ، الديوان (ص 105) .

[3] ينظر: فريحة ، أنيس، أوغاريت ملاحم وأساير في رأس شمرا ، ص 191-192 .

[4] ينظر: فريحة ، أنيس، أوغاريت ملاحم وأساير في رأس شمرا ، ص 133-135 .

ومن الإشارات الأسطورية التي أحيط بها المقاتل أيضا ، صورة الموت الذي يكون أينما حل البطل ، فالموت ملازم لسيفه ، ولرمحه ، ولحربته ، ولجيشه العرمرم ، كأن المقاتل أحد آلهة الموت والدمار ، يرعب الناس وينفرون منه ، لأنه محارب لا يكف عن القتل وشرب الدماء ، وهو يخطف الأنفس دون أن يمهل أصحابها .

يرسم ابن الحداد البلنسي هذه الصورة ، فالموت يجري حيث يسير الكماة الأبطال حتى غدت الجماجم ثمارا معلقة على الأشجار من كثرة ما سبق سيف المقاتل إلى رقابها فيقول :

أَقْدَمْتَ حيثُ الكُمَاةُ الشُّوْسُ مُحْجِمَةٌ وَجُدْتَ حيثُ المَنَايَا السُّوْدُ تَزْدَحِمْ

وما احْتَدَى الموتُ نَفْساً من نُفُوسِهِمُ إلاَّ وَسَيْفُكَ كَعْبُ الجُوْدِ أو هَرِمُ

وهَامُهُمْ في الجُذُوْعِ الشُّمِّ ضاحِيَةٌ كأنَّها بَقَعُ الغِرْبانِ والرَّخَمُ[2]

ويعلي الشاعر من قيمة اللون الأسود كمدلول معنوي لعظيم المصيبة والهزيمة التي مني بها الأعداء ، تلك الصورة المرعبة التي جعلت الموت سهما من سهام جعبته ، ونظرة قاتلة من نظراته الغاضبة، وفي مثل هذا المعنى يصف ابن حيوس أحد ممدوحيه المقاتلين قائلا:

إن بانَ بانَ المَوتُ في نَظَراتِهِ أَو غابَ فَالسُمرُ الشَواجِرُ غابُ[3]

فالمقاتل يحمل قوى الدمار والموت ، أينما حل وحيثما كان ، كالإله (هادز) عند اليونان ، فهو ملك أسود يرتدي درعا أسود ، ويتنقل في عربة سوداء ، فكأنه الموت يتنقل على سطح الأرض ليخطف من يشاء إلى عالمه [4] .

---

[1] ينظر: فريحة ، أنيس، أوغاريت ملاحم وأساير في رأس شمرا ، ص 336.

[2] ابن الحداد ، الديوان (ص251).

[3] ابن حيوس ، الديوان (ص 94).

[4] ينظر : أبو عون، اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي – شعراء المعلقات نموذجا (ص 9).

ثانياً: صور وسائل القتال وأساليبها

كما أطلق الشعراء على المقاتلين أوصافا أسطورية كما سبق ، فقد لجأوا إلى أدوات القتال ليصبغوها بقالب القداسة والخرافة ، فمن هذه المظاهر التي تناولت أدوات المحارب تركيزهم على وصف الخيول الدهماء ، وأنهم يتقنون القتال على ظهر الحصان الأسود ، فقد ارتبط هذا المفهوم بالعديد من الأساطير فعلامة قوة المقاتل بلون ركوبته السوداء والتي تعد من متعلقات المقاتل يقول ابن حمديس في وصف حصان أحد المقاتلين الأسود :

أَو أَدهمٍ داجي الإهابِ كَأنّما صَبَغَ الغرابَ بِلَونِهِ الغربيبِ

أرساغُهُ دُرَرٌ على فيروزجٍ لان الصفا من وقعهِ لصليبِ

يعدو ولا ظلٌّ له فكأنّهُ بَرق فَيا لِلبرقِ مِن مركوبِ[1]

حيث أظهر صفات الخلود والقداسة عبر الكثير من التشبيهات المجازية فعدوه كالبرق ، ولونه كالغراب الفاحم ، وأرساغه درر ،وتبعه الكثير من الشعراء الذين جعلوا الخيول السود مراكب لهم أثناء القتال منهم ابن خفاجة حيث يقول :

سَأَركَبُ مِنهُ ظَهرَ أَدهَمَ رَيِّضٍ مَروعٍ بِسَوطِ الريحِ يَرتَدُّ يُزبِدُ[2]

وابن زمرك:

أو أدهمٍ كالليلِ إلاَّ أنه لم يرضَ بالجوزاء حلي عِذارِ[3]

وكلهم أراد مقصدا واحدا يتلخص ببيان عظيم قوة وقدرة هذا الحصان ، مما يعطي ثقة للمحاربين ، ويجعلهم أكثر قربا من كسر شوكة الأعداء .

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص 52) .

[2] ابن خفاجة ، الديوان (ص 87) .

[3] المقري ، نفح الطيب ، (ج5 ، 176).

هذه الملازمة المستمرة بين المقاتل وبين فرسه الأسود يستدعى استحضار الإله (شو بن رع) في مصر الذي يصور على " هيئة محارب شاب يقتل وهو في مركبة الأسود "[1] وبهذا يصبح المركب الأسود من متعلقات الإله المقاتل ، في دلالة على سوداوية أيام وليالي المعادين ، حيث الإله المبتهج برؤية الفرسان صرعى.

ومن الصور المكررة في أحاديث الشعراء وصف بريق السيوف والحراب ولمعانها كأدوات قتالية ، وقد رمزوا لها تارة بالبرق وأخرى بالنور ، وثالثة بالشمس ، وكل ذلك لتأكيد فكرة قوتها وصلابتها وقدرتها الخارقة على البتر ، فإضافة إلى المضاء يستخدم النور البارق في القتل إذ تعمى عيون الأعداء ما ناحية ، وتكشف رقابهم في ظلمة غبار النقع تارة أخرى ومن هذه المشاهد قول ابن الأبار الذي نعت السيوف بالبرق المضيء اللامع فقال :

لِمَنْ وَقْعَةٌ بالغَرْب ضَعْضَعَت الشَّرْقَا أَراقَتْ نَجيعَ المَارِقِينَ فَما يَرْقَا

وَأَزْجَتْ مِن النَّقْعِ المُثَارِ سَحَائِبا تَأَلَّقَ مَصْقُولُ الحَديدِ بِهَا بَرْقَا[2]

فقد جعل السيف البارق أحد أسباب النصر المحقق ، حيث كان هذا اللمعان سببا في الكشف المباشر عن الأعداء ، وأسهم في إبادتهم .

ويقول ابن دراج ناصحا بأن الحل في التعامل مع الفتنة التي برزت في البلاد يكون بالحرب وأدواتها والتي من أشهرها تلك السيوف اللامعة البراقة حيث يقول :

وأَنا الزعيمُ بأَنَّ عاجِلَ بُرْئِهِ فِي قَرْعِ طبلٍ أَوْ صَلِيلِ لِجامِ

أَوْ لُبسِ دِرْعٍ أَوْ تَهَادِي سابِحٍ أَوْ مَدِّ رُمْحٍ أَوْ بريقِ حُسامِ[3]

---

[1] ارمان ، ديانة مصر القديمة (ص 414) .

[2] ابن الأبار ، الديوان (ص392) .

[3] ابن دراج ، الديوان (ص424).

بريق السيوف اللامعة يذكر بقصة (زيوس) الأولمبي الذي كان إذا غضب من شخص أو رغب في قتله أرسل عليه صاعقة من بريق أشرطة القصدير التي يحملها نسره الذهبي [1]، فكأن البرق الصادر عن تلك السيوف هو بريق أشرطة قصدير (زيوس) الأسطوري .

وقد وصفت الرماح باللون الأزرق وكأنها ذات عيون زرقاء تحرس الناس ، ووسمت بهذا الوصف كناية عن مضائها وقوتها ولمعانها ، يقول ابن الأبار :

تظللها خضر القنابل والقنا وتكلؤها زرق الأسنة والظبى[2]

والأبيات التي تحمل هذا المعنى كثيرة ، لعل مفهوم الحراسة هذا يتعلق بالإلهة (أرتميس) والتي تمثل إله الصيد عند اليونان ، فقد كان من مهامها رعاية الأطفال حديثي الولادة ، والنساء المنجبات ، وحمايتهم من المرض والخطر ، والحسد ، وهذا أصل وضع العين الزرقاء في البيوت ومختلف الأمور للوقاية من الحسد .

ومنه قول الشاعر في وصف مصيدة :

فرب ذي قنص زرق حبائله قد صاد ظبا وكان الليث من طرده [3].

وإلى هذا المعني يشير الشاعر بقوله :

يغير على زرق المياه وقد رنت إليها عيون الزرق من كل لهذم [4]

فالزرق من النسريات الحائمة التي تبحث عن صيد في النهر ، وترغب في الاستيلاء عليه ، وفي تعالق آخر مع قصص الرحلات الأسطورية المصرية نجد المياه الزرقاء الصافية

---

[1] ينظر : أبو عون، اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي – شعراء المعلقات نموذجا(ص 156).

[2] ابن الأبار ، الديوان (ص 101).

[3] ابن دراج ، الديوان (ص540).

[4] ابن اللبانة ، الديوان (ص134).

حيث أنه وصفت رحلة ثعبان فـ " كان لونه فضيا عليه نقوش ذهبية وزرقاء ، وكانت الجزيرة محاطة بالمحيط الأزرق "(1) وهو دليل على النقاء والطهارة .

ثالثاً : صور الحرب وأوصافها الخاصة.

ذكر الشعراء الحرب وألبسوها العديد من الأوصاف ، وأكثر التشبيهات التي تعلقت بالحرب أنها شبهت بالأنثى فهي الحرب العوان ، والملقحة ، والمنتجة ؛ كما شبهت بالنار المستعرة ، وشبهت بالثعابين والأفاعي المنسلخة من جلدها وغير ذلك .

ولعل اتصال الحرب بالنار ذات اللهب الأحمر الحارق ، حيث تستعر هو أهم مظهر من مظاهر تصويرها في هذا النوع من الشعر ، وهو المعني بدراستنا لعلاقته بالبعد اللوني ، يقول ابن دراج:

وسُمْرٍ لِدَانٍ كالكواكب سُقْتَهَا ليومٍ من الأَعداءِ بَادٍ كَواكِبُهْ

صليتَ ونارُ الـحربِ يَذْكُو سَعِيرُهَا وَخَضْتَ وَمَوْجُ الموتِ تَطْفُو غَوَارِبُهْ

ولا مثلَ يومٍ نحو لُونَةَ سِرْتَهُ وقد قَنَّعَت شَمْسَ النهارِ غَيَاهِبُهْ[2]

يكرر الكاتب فكرة المركب الأسود ، ثم يبدأ بتشبيه الحرب بالنار المستعرة التي تبدأ بلهب صغير ثم تفور فتأتي على كل شيء أمامها .

فالصورة التي أوردها تدور حول (الحرب) وربطها بالنار، حيث إن النار تفني الحطب والحرب تفني الناس.

ويختلج هذا النص مع نظرة بعض الديانات إلى النار المقدسة فالمجوس قدموا لها القرابين ، وتعاملوا معها كإله ، وترى الزراداشتية "أن الماء والهواء والنار والتراب عناصر طاهرة وقدسوا النار خصوصًا، واتخذوها رمزًا إلى جانب الشمس "لقوة الإله"، وحافظوا على شعلة النار مشتعلة في هياكلهم بالمعنى الرمزي والمعنوي ، وجعلوها تتأجج في صدورهم إلى جانب تأججها

---

(1) كريم ، الرحلات الفرعونية في الأدب المصري القديم ، ص 36.

(2) ابن دراج ، الديوان (ص23).

في المعابد، يقدمون لها وقودًا من خشب الصندل، وأخشاب عطرية أخرى، فتعبق الهياكل بروح قدسية فيها النشوة والطهر والخلود"[1] .

وقد ورت صورة النار في صراع إنان مع كور حيث تقول مستخدمة النار في الحرب :

سأرميه بالحربة الطويلة

وسأوجه ضده كل أسلحتي

وبالغابات المحيطة به سأضرم النار[2].

ومن الإشارات الأسطورية المتصلة بالحرب تشبيهها بالثعابين ، وتصوير الجيش المقاتل الذي ينتمي إليه الشاعر بالشموس كما سبق ذكره ، حيث كان معروفا عن معظم الأساطير الفرعونية واليونانية والسومرية والبابلية إجرائها الحروب الكبيرة بين الحيات والشمس وكانت الغلبة دائما للشمس ، تسللت هذه الأساطير إلى عقول الشعراء الأندلسيين قال ابن هانئ الأندلسي :

ولو حاربتْكَ الشمسُ دونَ لقائِهم لأعْجَلَها جُنْدٌ من اللّهِ هازم

سبقْتَ المَنَايا واقعاً بنفوسِهِم كما وقعَتْ قبلَ الخواف ي القوادم

تَقودُ الكُماةَ المُعْلِمينَ إلى الوَغَى لهمْ فوقَ أصْواتِ الحديدِ هَماهم

غَدَوْا في الدّروعِ السابغاتِ كأنّما تُديرُ عُيوناً فوقهُنّ الأراقم

فليسَ لهم إلاّ الدّماءَ مَشَارِبٌ وليسَ لهمْ إلاّ النفوسَ مطاعم[3]

فالنص السابق مليء بالأفكار الاسطورية المتعلقة بصورة الحرب فالمقاتل يشرب من دم الأعداء ، ويسير الموت حيث يسير ، ويطالعنا بأسطورة الشمس والثعبان فالجيش يعلو على

---

[1] أبو سويلم، مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي (ص 115) .

[2] الماجدي ، متون سومر (ص 242) .

[3] ابن هانئ ، الديوان (ص 339).

الشمس كناية عن قدرته العجيبة في تحقيق الظفر والنصر على الأعداء ، وفي ذات الوقت يستعير صورة من صور المراقبة القتالية التي تتميز بها الأفعي ، وهنا يمزج بين أسلوبين قتاليين رد أحدهما للشمس والآخر للأفاعي .

وفي تصوير آخر اجتمعا فيه يقول حازم القرطاجني :

عليهم نسيجُ السابغاتِ كأنَّما جلودٌ على الحَيَّاتِ قد كُشِطَتْ كشطا

إذا لمعٌ للشمسِ لاحتْ عليهمُ رأيتَ صِلالاً أُلبست حُللاً رُقطا[1]

فهناك تلازم كبير بين بزوغ الشمس وظهور الثعابين فحينما تبزغ شمس الربيع ، وتنشر دفئها في الأرض ، تترك الثعابين حجورها وتنسلخ من جلودها وتنطلق في حياتها ، وعندما تغادر الشمس في فصل الشتاء تختفي الثعابين متخذة من باطن الأرض ملجأ لها وملاذا ، "ونكاد لا نعثر على إله شمسي أو سماوي لم يدخل في صراع مع أفعى الأم الكبرى ، ولعل هذا الصراع يعكس صداما موغلا في القدم تم عند مشارف التاريخ المكتوب "[2]

إن وضوح صدى هذه المعاداة الكبيرة بين الشمس والثعبان تجلى في أساطير الشعوب المختلفة ، إذ يمكن أن تعود إلى البابليين والفراعنة واليونانيين والإغريق والهنود والفارسيين .

تقول الأسطورة الفرعونية " أن أبيب الإله كان يمثل بحية ملتوية في كل طية من جسمها مدية ماضية ، تكمن للشمس بعد المغيب فلا يزال إله الشمس (رع) في حرب معهاومع شياطينها السوداء والحمراء إلى أن يهزمها قبيل الصباح فيعود الشروق " [3]

وقد حولت القصص الأسطورية حيوات المهزومين إلى صباح أسود ، ففي نظرة تحولية انقلب ليل الأعداء إلى أشهب من الحرائق التي دبت فيها ، وتحول النهار إلى أسود من هول المصيبة ، يقول ابن الأبار :

---

[1] القرطاجني ، الديوان (ص 71).

[2] السواح، لغز عشتار ، الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة (ص143) .

[3] الشوك ، جولة في أقاليم اللغة والأسطورة (ص 177).

فَراحَ عَلَيْهِمْ أدْهَم الليل أشْهباً وأَضْحَى إلَيْهِم أشْهَبُ الصّبْحِ أدْهَما[1]

نظرت بعض الأساطير القديمة إلى نهار المهزوم نظرة سوداوية ، ففي أسطورة يونانية تبين الصراع بين كبير الآلهة زيوس والبطل بروميثيوس، " حيث كان العذاب ينزل على البطل في الصباح الباكر، أما الليل فكان فترة هدوء وسكينة له، فعند الصباح فإن نسرًا هائلا يطير إلى الصخرة كل يوم مصفقا بجناحيه العظيمين فيحط على بروميثيوس ويمزق بمخالبه الحادة صدره، ويميل إلى كبده وينهشه فتسيل الدماء جداول تضرج الصخرة، وتجف عند أسفلها نجيعا قاتم اللون، وتتتن تحت أشعة الشمس فتملأ الفضاء برائحة عفنة لا تطاق، ويحط النسر كل صباح ليكرر فعلته الدامية، ثم تندمل الجراح أثناء الليل وتنمو داخل بروميثيوس كبد جديدة لتغدو طعامًا جديدًا للنسر في النهار"[2].

وهكذا كان الصباح، صباح ألم وعذاب وشؤم على البطل. ومن هنا يمكن القول: إن هذا الصباح هو الذي كانت تمثله إلهة الحروب والدم والدمار بوجهها الأسود.

لقد تناول المبحث الثاني البعد الأسطوري للون المستخدم في شعر الحروب والفتن الأندلسي ، ظهرت معرفة الشاعر الأندلسي بالأساطير المختلفة مما يعكس ثقافته العالية ، وقد تبين ذلك من خلال الكم الهائل من الإشارات الأسطورية المحتشدة في أشعاره .

كما وظف الشاعر الأندلسي الأسطورة مستخدما الدلالات اللونية المختلفة كالأبيض والأسود والأزرق والأخضر ، وقد تنوع هذا التوظيف بين الألوان المباشرة وغير المباشرة من خلال بعض الأشياء وخصائصها اللونية كالشمس والقمر والذهب والدم ، ... وغيرها .

وبهذا تعكس التعالقات الفكرية الأسطورية بالشعر الأندلسي ثراء الشعر الأندلسي وتنوعه الفني والثقافي .

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص 124).

[2] حاتم ، أساطير اليونان(ص 164)

المبحث الثالث: البعد السياسي

لم تفارق الظروف السياسية شعراء الأندلس فسطروها في ديوانهم الشعري، خاصة أن الأندلس باتت أرضا خصبة للاختلافات والنزاعات الداخلية والخارجية منذ عصر الأمارة حتى خروج العرب من الأندلس فلم يخل عصر من " ثورة يقوم بها هذا الإقليم أو ذاك ، أو من حركة انفصال تحاولها هذه المنطقة او تلك ، أو من روح تمرد يبديها هؤلاء وأولئك " [1]، وقد كان لهذه الأشعار صدى واسعا في التأريخ للوقائع الأندلسية ، والفتوحات الإسلامية في تلك الجزيرة حيث اتخذ كل أمير شاعرا يمدحه وينظر له ، ويدعو لمبايعته ، ويثبت أحقيته بالخلافة فمثلا كان المعتمد بن عباد " لا يستوزر وزيرا إلا أن يكون أديبا شاعرا ، حسن الأدوات ، فاجتمع له من الوزراء والشعراء ما لم يجتمع لأحد قبله " [2].

وفي نظرة إلى المكونات اللونية في الأشعار الأندلسية يظهر البعد السياسي واضحا جليا حيث ظهر ذلك في عناصر متعددة ، منها الآلات الحربية حيث كانت الوسيلة الوحيدة التي يلجأ إليها الأندلسيون لتحقيق مآربهم على اختلافها ، وقد اشتهروا بصناعة بعض السيوف وسميت هذه السيوف بأسماء المدن التي صنعت فيها كسيوف برذيل ، وسيف الفولاذ الذي صنع في إشبيلية ، وكانت هذه السيوف من أمتن الأنواع وأقواها .

يمجد الحكم بن هشام السيوف والحراب ، فهي المحببة له ، حيث يبيت معها ويعيش وإياها أجمل لحظات حياته فيقول :

غِنَاءُ صلِيْلِ البِيْضِ أشْهَى إِلَى الأُذُنِ مِنَ اللَّحْنِ في الأَوْتَارِ واللَّهْوِ والرّدْنِ

إِذَا اخْتَلَفَت زُرْقُ الأَسِنَّةِ والقَنَا أَرَتْكَ نُجُوْمَا يَطَّلِعْنَ مِنَ الطَّعن [3]

---

[1] هيكل ، الأدب الأندلسي من الفتح إلى سقوط الخلافة (ص 49).

[2] المراكشي ، المعجب في تلخيص أخبار المغرب (ص 65) .

[3] المقري ، نفح الطيب (ج1 / 191).

ففي صورة براقة ، مفعمة بالدلالة اللونية الجميلة نجد الاختلاط بين الصوت واللون فصليل السيوف يشبه أصوات الألحان التي يرتاح الانسان لسماعها ، وفي مشهد خيالي لامع نرى الأسنة الزرقاء تلمع وسط الهيجاء كأنها نجوم تتلألأ في الظلمة السماء .

وفي ذات المعنى يقول المهند:

كَأَنَّمَا السُّمرُ فِي أَسِنَّتِهَا نَارُ مَصَابيحَ يُسْتَضَاءُ بِهَا [1]

من هنا ظهر الاستعمال المكثف للأسلحة خلال الأشعار الحربية المؤرخة لتاريخ الحروب والفتن المختلفة في الأندلس ، وكانت وسيلة مهمة لإظهار الغلبة والانتصار على المخالفين والأعداء .

تعلق الشعراء الأندلسيون بالمظاهر السياسية المختلفة حتى إنهم أسكنوا هذه المظاهر في أشعارهم فخلطوها بالطبيعة الخلابة ، والتأملات السماوية وغيرها .

يقول أبو الفضل موسى بن عياض :

انظُر إِلَى الزَّرْع وَخَامَاتِهِ يَحكي وَقَدْ مَاسَتْ أَمَامَ الرِّيَاحْ

كتَائِبَا تَجْفَل مَهْزُوْمَة شَقَائِقُ النُّعْمَانِ فِيْهَا جِرَاحْ [2]

فهو يتحدث عن منظر بديعي جذاب حيث تتمايل الأوراق ، وتلعب بها الرياح ، لكنه أسقط ما يدور في خلده من تصورات حربية عسكرية ، حين تتمايل الزروع تتشابه مع انكسار الكتيبة المقاتلة وانهزامها فرارا من بطش الريح وقوته الساحقة، ويؤكد المعنى باستحضاره لألوان شقائق النعمان الحمراء ، والتي كانت عند السابقين علامة الحب والراحة لتغدو علامة الدماء المتساقطة من الكتائب المتراجعة .

---

[1] أبو عبد الله الكتاني ، التشبيهات من أشعار الأندلس (ص 199).

[2] ابن دحية الكلبي ، المطرب من أشعار أهل المغرب (ج1 /87).

وفي إطار التنظير الفكري لدولة المرابطين يمدح ابن الجد يوسف بن تاشفين ليبين أحقيته في الخلافة، وليؤكد أن المرابطين وحدهم هم من يستحقون الحكم ، حيث يستدعي شخصية عمر بن الخطاب – رضي الله عنه – حين كان يتعسس ليرى أحوال الناس حرصا على أداء الأمانة وحقها ، فعمر حفر في عقول المسلمين جميعاً رمزية الحاكم العادل ،والمحارب الفاتح الذي أباد جموع الكافرين شرقا وغربا يقول :

وانظر إلى الصبح سيفا في يدي ملك في الله من جنده التأييد الظفر

يَرْعَى الرَّعَايَا بِطَرْفٍ سَاْهِرٍ يَقِظٍ كمَا رَعَاهَا بِطَرْفِ سَاهِرِ عُمَرِ [1]

يستخدم الشاعر مفردة (الفجر) والتي تتعلق ببزوغ النور ،ويدافع بصورة كبيرة عن ذلك الملك الذي يتمتع بالتأييد الإلهي فهو الوحيد القادر على حماية الثغور ، ورفعة المسلمين .

ولا يخفى ما في هذا التنظير من تعصب شديد للدولة المرابطية التي دخلت إلى أعماق الأندلس فاتحة بعدما أوشكت الأندلس أن تضيع ، وكسرت جموع النصارى بقيادة ألفونسو التاسع في أكبر المعارك أثرا في التاريخ والمسماة بالزلاقة ، حيث أخرت سقوط الأندلس ثلاثة قرون .

أرخ الشعراء للكثير من الوقائع الأندلسية فهذا العتبي يخلد واقعة وادي سليط التي تعد من أمهات الوقائع في أيام الأمير محمد قائلا:

سَائل عَن الثَّغرِ الصَّوَارِم تصدُق واسْتَنْطِق السُّمرَ العَوالِي تَنْطِق

ترَكتَ وقَائعَ في الثُّغُورِ وَقَد غَدَت مَثَلاً بِكُلِّ مُغَرِّبٍ وَمُشَرِّق

وأَدَاخَ أَهلَ المشركِينَ بِوَقْعَة تَرَكَتْهُم مِثْلَ الأَشَاء المُحَرَّق

جاءت علَيْهِم حَرْبه بِصَوَاعِقٍ تَرَكَتْهُم مثل الرَّمَادِ الأَزْرَق[2]

---

[1] الدقاق ، ملامح الشعر الأندلسي (ص 288) .

[2] ابن عذارى، البيان المغرب،(ج2/ 169).

في هذه اللوحة الفنية الجميلة يزاوج الشاعر بين بياض السيوف ، وسواد الأسنة ، وينبئ بعظيم فعلها في الأعداء ، حيث تركوا كالرماد الأزرق جراء حرق جثث الأعداء في معركة وادي سليط ، إضافة إلى ذلك كانت الاستدعاءات اللونية المقصدة سبيلا مهما لبيان قيمة الانتصار الذي حازه الممدوح جراء وصف جثث الأعداء بـ(الرماد الأزرق) .

لقد كان هذا التأريخ مهما في الحياة السياسية ، فالشاعر يعد ناطقا إعلاميا ، ومنظرا فكريا يدعو إلى بلاط الأمير والحاكم .

يظهر هذا البعد من خلال تلك المدائح المتسارعة للحكام والخلفاء حيث نسب إليهم الشعراء الخضرة ، فالنعيم يسير أينما ساروا ، والخضرة رمز من رموز السلام والأمان يقول ابن دراج القسطلي مهنئا المستعين بتوليه ملك قرطبة :

هنيئا لهذا الدهر روح وريحان وللدين والدنيا أمان وإيمان[1] .

فكلمة (**ريحان**) ترسم لوحة لونية خضراء ، ترمز إلى حلول السلام والأمان والنعيم والإيمان الدائم بدوام هذا الملك ، وفيه تيمن واستبشار بقدومه .

وفي مشهد آخر يعلي من شأن الحاكم يقول الشاعر أحمد بن عبد الملك الكاتب :

وأعلام قصر بالفتوح خوافق ترى حولها طير المنية حوما

كأن ابيضاض البيض من نور وجهه وذا رأيه فينا إذا الخطب أظلما

كأن احمرار الحمر هزة سيفه إذا هزه في المشرفية صمما

كأن اصفرار الصفر من لون من غدا إلى عفوه من سخطه متظلما

كأن اخضرار الخضر موقع جوده إذا ما اشتكى بطن الثرى علة الظما [1]

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص 47) .

ينقش الشاعر منظرا فنيا جميلا مشحونا بالألوان المختلفة للرايات المرفوعة على القصر ، فهي أعلام النصر والقوة ، إذ تدور حولها المنايا ، وفي دلالات متماهية مع ألوان الرايات يغدق الشاعر على الممدوح أوصافا كثيرة ، فرأيه سديد كلون الراية البيضاء ، وسيفه بتار معبق بدماء الأعداء في تواؤم مع الراية الحمراء ، أما الصفراء فإنها توحي برعدة الأعداء الخائفين من بطشه وغضبه ، المؤملين بعفوه وسماحه ، وفي البيت الاخير يتحدث عن جوده الذي رمزت إليه راياته الخضراء التي تلف القصر وتحيط به .

إن استحضار هذه الديباجة المفعمة بالألوان المتشابكة ،زالتي اتخذت وسيلة للتعبير عن تلك السجايا ، ليثير الشجون لإضفاء جانب الكمال عند الممدوح ، فمكارمه متعددة بتعدد الرايات ، وما كل هذا الوصف إلا للوصول إلى بعد سياسي مفاده أنه لا مجال لمعاداة هذا القائد الهمام ، ولذا فهو الحاكم القوي ، والأمين المدافع عن حياض المسلمين .

ولم يتوان الشعراء الاندلسيون في التعبير عن آرائهم السياسية ، فقد انتقدوا الأمراء والحكام ، وسخروا من المميزات الخاصة للدول المتعاقبة ، ومن المعروف أن الدولة العباسية قد حولت لون الراية إلى الأسود ، ما دعا ابن حزم لهجاء هذه الراية في إشارة إلى حامليها ، يرى أن وجود المرابطين في الحكم كان نذير شؤم وقلق يقول :

ومذ لاحت الرايات سوداً تيقنت نفوس الورى أن لا سبيل إلى الرشد[2]

فهو يتطير من لون الرايات السود ، ويعدها نذير هلاك يحوم على الأندلسيين .

لجأ شعراء الأندلس إلى البحر ، يتحدثون فيه عن قوتهم ، فالأندلس حاضرة البحر ، فعبروا عن الأساطيل الحربية التي تميزت بها البحرية الإسلامية ، وأبرزوا قدرتها على تفتيت الأعداء ، أقاموا تلك الأساطيل الحربية في حوض البحر الأبيض المتوسط والذي كان محل الصراع الدائر ، وسيطر الأسطول الحربي الإسلامي على تلك المساحات الواسعة حتى زمن قريب .

---

[1] الشوابكة ، شعر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي (ص 78).

[2] ابن حزم ، طوق الحمامة (ص132).

وقد واكب الشعراء التنظير لقوة الأسطول الإسلامي وذكروا أنواع سفنه مثل : الحراقات ، والطرائد ، والشلنديات ، والحمالات .. [1] .

يقول ابن حمديس موظفا قوة الأساطيل في إشارة إلى بعد سياسي يبعث في نفس الشاعر الراحة والطمأنينة ،والأمل في العودة إلى موطنه صقلية الذي خرج منه ، ليرى في ذلك التعويض النفسي الكبير ، حيث يعود إلى ثقته بالعودة، حين يرى الجيش البحري المسلم ينزل الهزيمة تلو الأخرى بالأوروبيين الذين استولوا على الأرض ، فالشاعر طرب بهذا المشهد العظيم فيقول :

رَأَوا حَرْبيَّة تَرْمِي بِنَفْطٍ لإخمَادِ النُّفوسِ لهُ اسْتِعَارُ

كأَنَّ المُهْل في الأُنْبُوبِ مِنْه إلَى شَيِّ الوُجُوهِ لَهُ ابْتِدَارُ

كأَنَّ مَنَافِسَ البُرْكَانِ فِيْهَا لأهوَالِ الجَحِيْمِ بِهَا اعْتِبَارُ

نُحَاسٌ ينْبَرِي مِنْهُ شُوَاظٌ لأَرواحِ العُلُوْجِ بِـه بَوَارُ [2]

يغوص ابن حمديس في وصف الحراقات التي تلفظ اللهب على أعداء الله فيتساقطون صرعى ، وقد حرقت جثثهم ، ويستعمل الشاعر الألوان المتشاكلة (الأسود – الأحمر– الأصفر) في إشارة على شيِّ الوجوه ، من خلال الألفاظ (النفط – البركان –شواظ) .

استخدم الشاعر دلالة الشواظ القرآنية الهادفة إلى دقة الإصابة ، وتحقيق الغلبة ؛ قال الله تعالى : {يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلَا تَنْتَصِرَانِ}[3]

وفي الجانب الآخر ظهرت المأساة التي حلت مع بداية القرن الخامس الهجري حيث بدأت الحواضر الإسلامية في الأندلس بالسقوط ، وانحسر ملك العرب ، وضعف سلطانهم في نهاية القرن السابع الهجري في مملكة غرناطة آخر المدن الأندلسية سقوطا .

---

[1] ينظر: الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه (ص 473) .

[2] ابن حمديس ، الديوان (ص239).

[3] [الرحمن: 35] .

لجأ الشعراء لبيان هذه المأساة التي أثرت على نفوسهم ، واختلطت أشعارهم بأصداء الهزيمة السياسية والمعنوية ،وأخذوا يتحدثون عن فقدان الأهل والأحبة ،والغربة والحنين إلى الوطن ، وانقلاب الحال ،وخدعة الزمان وغيرها من المعاني ذات البعد السياسي .

لقد لجأ هؤلاء الشعراء إلى الاستغاثة بمن جاورهم من المسلمين الذي يسكنون في شمال إفريقيا ، وكانت آثار الاستجابات حاضرة من الملوك والقادة الأفارقة ، كما أسلفنا في الفصل الأول .

يستخدم ابن حمديس دلالة اللون الأحمر في التعبير عن الشر حيث استخدم اللون غير المباشر المنبثق من النار ، والتي تعد رمزا للشر ، فالفتنة التي حلت بأهله أصبحت نارا كبيرة تشعل غيرها وتولد أخريات مكانها ، فالسيوف ارتوت من نجيع الأهل في إشارة إلى الموت والهلاك يقول :

أحين تفانى أهلها طوع فتنة يضرم فيها ناره كل حاطب

ولم يرحم الأرحام منهم أقارب تري سيوفا من نجيع أقارب [1]

واشتكى الشعراء من تقلبات الزمان ، وأصابهم يأس من العودة والرجوع خاصة بأفول نجم دولة بني العباد انتهاء بالمعتمد بن العباد ، حيث كان أمل الكثيرين من الأندلسيين بالعودة إلى الديار فنجد الكثير من الألفاظ الشعرية الدالة على هذه الروح الاستسلامية ، يقول ابن اللبانة :

والدَهْرُ فِي صبْغَةِ الحِرْبَاء منْغَمِسٌ أَلوَانُهُ حَالَاتٌ فِيْهَا اسْتِحَالَاتُ [2]

فالخطوب السوداء ، وتقلبات الزمان ، كانت مدخلا من مداخل الانهزام السياسي ، خاصة بعد النكبة الكبرى التي حلت بالأندلس جراء تساقط الدويلات الأندلسية تباعا خاصة في القرن السابع الهجري .

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص 31).

[2] ابن خاقان، قلائد العقيان (ص 80).

فيما سبق ظهر جليا البعد السياسي في توظيف الألوان المختلفة المفعمة بالدلالات السياسية ، حيث تنوعت لدى الشعراء بين التعبير عن مواطن العزة والتمكين والأنفة ، وبين الحديث عن صدى النكبات المتلاحقة .

لجأ الشعراء إلى الألوان للدلالة على السلاح وقوته ، في إطار التنظير لزعامة الدولة ، وقدرتها على حكم البلاد وإخافة الأعداء ، ووظفوا الألوان كذلك في التنظير لأحقية الخلفاء في الولاية والحكم على من دونهم ، وكان ذلك نتيجة اختيار الخلفاء للشعراء ، حيث عد الشاعر لسان حال الملك ، والناطق الإعلامي باسمه .

اختلطت الألوان بمشاعر الشعراء في التعبير عن الفرح بالفتوحات الجديدة ، أو بإعادة المدن المنكوبة إلى حاضرة الإسلام ،وهي كثيرة كبلنسية ، وإشبيلية ، وبربشتر ، والسليط وغيرها.

جاءت الألوان كرديف لمعنى الحزن ، في إطار الروح الانهزامية التي سيطرت على الشعراء جراء سقوط حواضر الأندلس في نهاياتها ، فاستخدموا الألفاظ اللونية ذات الدلالة غير المباشرة مثل (النار – الشواظ) وغيرها في التعبير عن معاناتهم ، وتلظي قلوبهم حسرة وألما .

المبحث الرابع : البعد الاجتماعي

يعد الأدب أحد أهم الوسائل الناقلة لتجربة الحياة ، فالأدب ابن بيئته التي نشأ فيها ، يتأثر بها في جوانبها المختلفة ، سياسية، وثقافية ، واجتماعية ،وسلوكية ، ودينية .

لذا كان لابد من الإشارة لبعض الأبعاد الاجتماعية التي صورها شعر الحروب والفتن في الأندلس من خلال الدالة اللونية المختلفة ، حيث نجح الشاعر الأندلسي في التعبير عن مفردات الحياة الاجتماعية في الأندلس من خلال استخدام العلامة اللونية .

أولا: اللباس

كان الطيلسان لباس العوام ، " وهذا الطيلسان هو ثوب موصول به غطاء الرأس ، أما غطاء الرأس فكان العمامة لمن أراد "[1] ، وقد ورد في نفح الطيب في وصف زي أهل الأندلس أن الغالب " ترك العمامة ، ولا سيما في شرق الأندلس ، فإن أهل غربها لا تكاد ترى فيهم قاضيا ، ولا فقيها مشارا إليه إلا وهو بعمامة ، وقد تسامحوا بشرقها في ذلك "[2] .

ويقول أيضا: " ولا تجد في خواص الأندلس وأكثر عوامهم من يمشي دون طيلسان، إلاّ أنّه لا يضعه على رأسه منهم إلا الأشياخ المعظّمون، وغفائر الصوف كثيراً ما يلبسونها حمراً وخضراً؛ والصّفر مخصوصة باليهود، ولا سبيل إلى يهودي أن يتعمّم البتّة، والذؤابة لا يرخيها إلاّ العالم، ولا يصرفونها بين الأكتاف، وإنّما يسدلونها من تحت الأذن اليسرى. وهذه الأوضاع التي بالمشرق في العمائم لا يعرفها أهل الأندلس، وإن رأوا في رأس مشرقّي داخلٍ إلى بلادهم شكلاً منها أظهروا التعجب والاستظراف"[3] .

يقول ابن حيوس في اتخاذ الطيلسان دليلا على أندلسية هذا الممدوح :

أَلَستَ اِبنَ الَّذي قَهَرَ الأَعادي وَذادَ بِرَأيِهِ غِيَرَ الزَمانِ

---

[1] الشكعة، الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه (ص 10) .

[2] المقري ، نفح الطيب (ج1 / 222).

[3] ينظر: المقري ، نفح الطيب (ج1 / 223).

وَرَوَّعَ كُلَّ صاحِبِ مَشرَفِيٍّ مَروعٍ وَهوَ صاحِبُ طَيلَسانِ[1]

يصف ابن سارة الأندلسي أحد القادة ذاكرا أنه أسد صاحب ناب قوي ، لا يمكن أن يكسر أو يهزم ، حيث يبدو في طيلسانه الجميل اللامع المختلط بفضية القميص الذي تحته فيقول :

ومِنْ ذَوَاتِ النُّيُوبِ شُهْم مظَفَّر النَّاب ِ وَاليَدَيْنْ

فيْ طَيْلِسان مِنْ آبنوس علَى قَمِيْصٍ مِنَ اللُّجَيْنْ.

وكانت أغلب ألوان هذه الطيلسانات حمر أو خضر وربما تكون مزركشة ، وهي التي تسمى المدبجة ، وقد اشتهرت مدينة آبنوس بصناعات النسيج والملابس ، وكانت ملابسها موشاة ملونة .

وقد خالف اليهود المسلمين في لباسهم حيث لبسوا الأصفر من الطيلسانات ، وتميزوا بالذؤابات الطويلة يقول لسان الدين بن الخطيب ساخرا من صلاتهم ، متخذا دلالة اللون على ديانة اليهودية ، في هجائه السياسي لهم :

إذا كأنّ رؤوسَ القومِ عندَ صَلاتِهِمْ وقد أوْمأتُ للأرْضِ صُفْر شَواشِيها

أقاحٍ أمالَتْها الرّياحُ علَى الثّرى وقد أسْقَطَتْ عنْها بَياضَ حَواشِيها[2]

وقد استعمل دلالة سنابل القمح الصفراء المنكسرة ، متناغمة جدا مع طبيعة اللباس المميزة لمتبعي هذه الديانة كما تبين في أكثر من موطن .

لقد كانت " ملابس الأندلسيين تتخذ تفاصيل وهيئات خاصة بهم ، لا يكاد يعرفها إخوانهم في المشرق ، وكان من أهم ظواهر مغايرة الأندلسيين للمشارقة في تقاليد الزي اتخاذهم البياض لونا للحداد " [1] .

---

[1] ابن حيوس ، الديوان (ص 630).

[2] ابن الخطيب ، الديوان (ج2/ 739).

يعلل الشاعر الحصري سبب لباس الأبيض من الثياب دلالة على الحداد إذ قارنه ببياض الشيب فيقول:

إِذَا كَانَ البَيَاض لِبَاسَ حُزنٍ بأندَلسٍ فَذَاكَ مِنَ الصَّوَابِ

أَلَمْ تَرَنِي لَبِسْت ببِيَاضِ شيْبِيْ لأَنِّي قَدْ حَزِنْتُ علَى الشَّبَابِ[2]

ومن هنا استطاعت الدلالة اللونية القرآنية النفوذ إلى المجتمع الأندلسي كعلامة اجتماعية ذات مدلول حزين ، غايرت المشارقة الذين كانوا يتخذون من اللباس الأسود زيا للحداد على الموتى .

لذا فإن الأندلسيين كانوا على جانب خاص من المغايرة للمشارقة في اللباس ، وكانوا يتميزون بلباس خاص بهم ، يغايرون فيه المشارقة سواء في الحداد أم في غيره من المناسبات .

ثانياً: الطبقات المجتمعية .

أتاحت البيئة الأندلسية فرصة كبيرة للتمازج الجنسي بين العرب والأسبان ، وأخذت مقاييس الجمال في التبدل ، وأصبحت العيون الزرقاء إحدى مقومات الجمال بدلا عن العيون السوداء ، وكذلك صارت الشقرة علامة تميز ، ومقياس جمال[3] ، لذا اتجه بعض الشعراء إلى هجاء الزنج أصحاب اللون الأسود أو التشاؤم منه يقول أبو حيان الأندلسي :

إذا مالَ الفَتى للسودِ يَوماً فَلا رَأي لَدَيهِ وَلا رَشادُ

أَتَهوى خُنفَساء كَأَن زِفتاً كَسا جلداً لَها وَهوَ السَوادُ

وَما السَوداءُ إلا قِدر فرنٍ وَكانونٌ وَفَحمٌ أَو مِدادُ[4]

---

[1] هيكل : الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط الخلافة (ص 42-43).

[2] جلال الدين السيوطي ، المحاضرات والمحاورات (ص 408) .

[3] ينظر : الدقاق، ملامح الشعر الأندلسي (ص 137) .

[4] **أبو حيان الأندلسي ، الديوان ، ص .**

وقد جاء هذا في باب الهجاء السياسي ، إذ قام بعض الزنج بالعديد من الثورات مع بداية القرن السابع الهجري .

وفي المقابل أعلوا من قيمة الجنس الأبيض ، حيث كان جزأ لا يستهان به من أبناء الخلفاء زرق العيون ، شقر الشعر ، وكان الشعراء يتهافتون إلى مدح هذه الصفات الجسدية فيهم يقول ابن حزم :

يعيبونها عندي بشقرة شعرها فقلت لهم هذا الذي زانها عندي

يعيبون لون النور والتبر ضله لرأي جهولٍ في الغواية ممتد

وهل عاب لون النرجس الغض عائب ولون النجوم الزاهرا ت على البعد

وأبعد خلق اللّه من كل حكمةٍ مفضل جرم فاحم اللون مسودٌ

به وصفت ألوان أهل جهنم ولبسة باكٍ مثكل الأهل محتد[1]

ففي الأبيات السابقة يبدي ابن حزم عجبه وتفضيله للون الأشقر على الأسود ، فهو لون الذهب والنور ، ويدعم هذا التنظير باستدعائه لمنظر النجوم الحائمة في السماء التي تبث الجمال والهداية في الكون .

وفي المقابل يصف اللون الأسود بأنه لون أهل جهنم المعذبين ، في تشاكل معنوي مع مقطوعة أبي حيان السابقة .

من خلال المثالين السابقين ، فإنه تجدر الإشارة إلى إعلاء المجتمع الأندلسي من قيمة المرأة ومكانتها ، حيث نظروا إليها نظرة التوقير والحب ، وجعلوها أهم منح الحياة ، ووصفوها كما اتضح في المباحث السابقة بالبيض المكنون ، والبيض الحسان ، وغير ذلك .

---

[1] ابن حزم ، طوق الحمامة (ص132).

وقد صورت الأشعار مظاهر مختلفة للسبايا وخاصة اللائي وقعن في الأسر جراء الحروب ، يقول ابن حمديس :

وساقوا بِأَيدي السبيِ بيضاً حَواسِراً تَخَالُ عَلَيهِنَّ الشعورَ بَرانِسا[1]

ففي البيت إبراز لظاهرة اجتماعية ظهرت نتيجة الحروب ، وهي ظهور السبايا الأجنبيات البيض حاسرات لشعورهن ، وكانت النساء المسلمات يغطين شعورهن كما افترض الله تعالى ، ومن هنا تتجلى لنا هذه العادات الاجتماعية الأندلسية بشأن المسلمات والروميات .

لقد كان هذا التعبير نتاجا طبيعيا لتنوع الجنس البشري في المجتمع الأندلسي ما بين الزنوج والصقالبة ، والعرب ، والإسبان، والمولدين الذين شكلوا طبقات المجتمع ، حيث كان للمولدين دور واضح في تغيير الصفات الجسدية للجنس العربي .

ثالثا: الحضارة العمرانية

اعتنى الأندلسيون بمدنهم ، واهتموا عمرانهم ، والناظر إلى ما تبقى من آثار أندلسية يلاحظ الكم الهائل من التقدم الحضاري المعماري في تلك البلاد ، حتى بات تعلق الأندلسيين بمدنهم كبيرا ،ولذا زخرت الأشعار الأندلسية بالأوصاف المختلفة لهذه المظاهر الحضارية ، فقد حفلت القصائد بوصف القصور والدور والمباني التي بناها المسلمون عند دخولهم الأندلس ، حتى غدت الأندلس مؤنسة بكثرة عمرانها واتصاله فـ" كانت المدن على ما يناسبها من مسافات متصلة الحلقات بالمباني البيضاء المتقاربة ، بحيث لا يحس المسافر فيها بوحشة الطريق ، أو يرى أنه ترك مدينة ليلحق بأخرى " [2] .

وفي هذا المعنى يتحسر ابن خاتمة الأنصاري ، وهو يبكي على ضياع مدينته نجد ،التي سماها العرب تقليدا للمشرق ، واعترافا بفضل نجد المشرقية ، حيث اعتنى بها الأندلسيون حتى أضحت معلما بارزا من معالم الحضارة والتقدم في البناء والعمارة ، تميزت هذه المدينة

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص 275).

[2] الشكعة: الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه (ص 42).

بالقباب البيض التي تزين المساكن ، وتبعد عن السالك فيها الملل والسآمة ، فمبانيها متصلة ، يتنقل المرء بين المباني والحقول والبساتين يقول :

بحيثُ القِبابُ البِيضُ والسُّمْرُ والظُّبا سَماءٌ وأنوارٌ يُشَمْنَ على البُعْدِ[1]

فهذه المساكن المرتفعة ، والجميلة تتراءى للناظرين على بعد المسافات ، وقد كني بهذا اللون عن نسبة الجمال والعزة والكرم إلى ساكني نجد .

ويكرر معاني العيش الرغيد ، عند دخوله في مشهد تصويري لما بداخل هذا القصر ، حيث الحسن الكبير ، الذي إن بدى للكون أخجل شمس الضحى الساطعة عن الظهور فيقول :

وفي القُبَّةِ البَيْضاءِ بيضاءُ لو بَدَتْ لشَمْسِ الضُّحى يَوماً لحارَتْ عن القَصْدِ

وفي وصف ابن سعيد المغربي للأندلس يقول:" متى سافرت من مدينة إلى اخرى لا تكاد تنقطع من العمارة ما بين قرى ومياه ومزارع ،والصحاري فيها معدومة ، ومما اختصت به أن قراها في نهاية من الجمال ؛ لتصنع أهلها في أوضاعها ، وتبييضها لئلا تنبو العيون عنها " [2] .

هذا وقد اعتنى الأندلسيون بتلوين مساكنهم ، فلونها بالأبيض كما ذكرنا ، ولونوها بالأخضر ، وبالأزرق ، وبالأحمر ، يقول لسان الدين بن الخطيب :

مَقاماتُهُمْ بِيضٌ وحُمْرُ قِبابِهِمْ يَرِفُّ بِها هَدْيٌ ويَشْرُقُ إرْشادُ

تَحُفُّ بِها الجُرْدُ العِتاقُ ودونَها لِباغِي القِرى نارٌ تُشِبُّ وإيقادُ

وأنْديَةٌ يَنْتابُها البأسُ والنَّدى فيُخْلَفُ إيعادٌ ويُنْجَزُ مِيعادُ[3]

---

[1] **ابن خاتمة ، الديوان (ص)**

[2] المقري ، نفح الطيب (ج1 / 205) .

[3] ابن الخطيب : الديوان (ج1 / 271).

ففي هذه القصور القباب الحمراء التي تدل على شرف الممدوح ، وفي نواحي القصر وجوانيه يبرز النادي الذي يجلس فيه الأمير ، حيث الجمال والكرم والعطاء ، وفي هذا النادي التخطيط لمستقبل الدولة ، ففي الأبيات تظهر عادة اجتماعية دأب عليها الأمراء ، وهي الاجتماع في النادي ، والحديث إلى المستشارين والعلماء والشعراء في شئون الدولة ، فتسير الجيوش ، وتتدفق العطايا والهبات .

واشتهرت قصور كثيرة باللون الأحمر حتى صار الأحمر دلالة بيت الحكم والملك يقول الشاعر العبلي في حديثه عن الثورة ضد العرب ، متهما إياهم بإدارة شئون الباطل من داخل القلعة الحمراء التي كانت عاصمة الحكم في ألبيرة حيث يقول :

وفي القلعة الحمراء تدبير زيغهم ومنها عليهم تستدير الوقائع [1]

وقد جاء هذا البيت ضمن قصيدة طويلة ، تضمن هجاء سياسيا كبيرا للعرب ، الذين تقلدوا مقاليد الحكم في الأندلس .

كانت القلاع والحصون أحد أهم الوسائل في الحماية ، فتزداد حصانة المدينة بتعداد قلاعها لذا ورد أن الشاعر الأسدي ذكر أن منازل العرب معمورة ، وقلاعهم حصينة ، في إشارة إلى الاهتمام البالغ بالقلاع ، من حيث الشكل والارتفاع يقول :

مَنَازِلُنَا مَعْمُوَرةٌ لَا بَلَاقِعُ وَقَلْعَتُنَا حصْنٌ منَ الضَّيْمِ مَانِعُ

وفِيْهَا لَنَا عِزٌّ وَتَدْبِيْرُ نُصْرَةٍ ومنها علَيْكُم تستَب الوَقَائِعُ

ألا فأذنوا مِنَّا قَرِيْبَا بِوَقْعَةٍ تشِيْبُ لَهَا وَلدائُكم والمَرَاضِعُ [2]

و تعد القلاع الحصينة ، أماكن التخطيط لإبادة الأعداء ، وصارت معلما من معالم الجهاد ضد المخالفين والثائرين .

---

[1] **ابن حيان ، المقتبس (ص 62).**

[2] **المرجع السابق ، ص 62.**

أما شعر رثاء المدن فقد تطلع علينا الكثير من النصوص الواصفة جمال قصورها ، وروعة بساتينها ، وحيث غدت هذه المدن بلاقع خالية من الأنيس ، يقول ابن اللبانة في وصف أحد القصور باكيا عليها:

قصور خلت من ساكنيه فما بها سوى الأدم تمشي حول واقفة الدمى

يُجيبُ بها الهامَ الصدى ولطالما أجاب القيانُ الطائر المترنما

كأن لم يكن فيها أنيس ولا التقى بها الوفد جمعاً والخميس عرمرما

...

ولا انعطفت فيه الغصون فعانقت وشيجاً بأيدي الدارعين مقوما

ولا حسبت بيضُ الظبى من فرندها سوالف بات الدرّ فيها منظما

ولم تخفق الرايات فيه فاشبهت قوادم طير في ذرى الجو حُوَّما[1]

المقطوعة الشعرية السابقة ،حديث ذو شجون حول القصر وما تميز به من جلسات رائعة ، وقباب جميلة لامعة ، حيث تحي بها جنات الدنيا ، من البساتين والرياض ، وكثرت فيها أزهار الورود ، وأوراق الرياحين برائحتها المعبقة بالجمال ، وتميزت القصور برفع الأعلام والرايات المختلفة عليها ، لتميز ساكنيها بإشارات مختلفة فقد سبق ذكر ألوان مختلفة للرايات المعلقة على حوائط القصور ، يقول الشاعر :

وأعلام قصر بالفتوح خوافق ترى حولها طير المنية حوما

كأن ابيضاض البيض من نور وجهه وذا رأيه فينا إذا الخطب أظلما

كأن احمرار الحمر هزة سيفه إذا هزه في المشرفية صمما

كأن اصفرار الصفر من لون من غدا إلى عفوه من سخطه متظلما

---

[1] ابن اللبانة ، الديوان (ص 122).

كأن اخضرار الخضر موقع جوده إذا ما اشتكى بطن الثرى علة الظما [1]

تفنن الأندلسيون في زخرفة مساكنهم من الداخل ، ففرشوها بالزبرجد والديباج ، وأسرفوا في ذلك ، وكان الزليج أهم الأبسطة التي تغطى بها قاعات المساكن والقصور ، وفيه ألوان عجيبة ، وكانوا يقيمونه مقام الرخام الملون الذي يصرفه أهل المشرق في زخرفة بيوتهم (2) ، يقول الشاعر واصفا أحد قصور الخلافة :

دَحَيْتَ من الزُّلّيجِ صفْحَةَ أرْضِهِ بلَوْنَيْنِ مُبْيَضٍّ الأديمِ و مُسْوَدِّ [3]

يتضح المعنى الجمالي الخاص من خلال الزركشة اللونية في البيت في قول الشاعر (مبيض الأديم ومسود) .

تميزت القصور الأندلسية بأسماء خاصة بها كقصر الحمراء ، والمنية ، والبهو وغيرها من المسميات ، ولم يخل شعر تخليد الفتوحات الإسلامية في بلاد الأندلس من وصف لتلك القصور التي صارت أنجما لامعة في سماء الحضارة الإسلامية الأندلسية يقول ابن زمرك في مدح عبد الرحمن الأوسط :

ولله مبناك الجميل فإنهُ يفوق على حكم السعود المبانيا

به البهوُ قد حاز البهاءَ وقد غدا به القصرُ آفاقَ السماء مُباهيا

وكم حلَّةٍ جلَّلْتَه بحُليِّها من الوشي تُنْسي السابرِيَّ اليمانيا

وكم من قِسيّ في ذراه ترفَّعت على عُمُدٍ بالنور باتت حواليا

تظل فتحسبها الأفلاك دارت قِسيُّها عمود الصبح إذ بات باديا

سواريَ قد جاءت بكلّ غريبة فطارت بها الأمثال تجري سواريا

---

[1] الشوابكة ، شعر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي (ص 78).

[2] ينظر : المقري ، نفح الطيب (ج1 /212).

[3] ابن الخطيب . الديوان (ج1 / 298) .

به المرمرُ المجلوُّ قد شفَّ نورُهُ فيجلو من الظلماء ما كانَ داجيا

وكم حلَّةٍ جلَّلْتَه بحُليِّها من الوشي تُنْسي السابرِيَّ اليمانيا

وكم من قِسيّ في ذراه ترفَّعت على عُمُدٍ بالنور باتت حواليا

فتحسبها الأفلاك دارت قِسيُّها تظل عمود الصبح إذ بات باديا[1]

تتشاكل المكونات اللونية للزينة المفرطة في القصر ، والتي كانت عن قصد ، فقد وصف الشاعر كل جزء من أجزاء مسكن الممدوح ، فهو لا يقارن بوصف ، إذ هو لامع كلمعان نجوم السماء ، فهو بارز بين الأفلاك والقصور ، صنع من الحلي ، والفضة ، والمرمر ، والتي دائما تجعل منه ذا قيمة كبيرة .

والشاعر إنما دقق في هذا الوصف ليدلل على مكانة ممدوحه ، السياسية والاجتماعية ،وليدلل على أحقيته بتولي منصب الخلافة .

لقد تنوعت مظاهر الحضارة الاجتماعية في شعر الحروب والفتن ، وقد تبين من خلال دراسة العلامة اللونية ما يأتي :

- اتسم الأندلسيون بلباس خاص ، يخالف الزي المشرقي ، يسمى الطيلسان ، وكان له ألوان كثيرة تميز اليهود بلبس الأصفر منها .
- اهتم الاندلسيون بالزينة العامة على صعيد ملابسهم ومساكنهم وقصورهم .
- ظهر في الأندلس الصراع الطائفي والقبلي ، وكانت تستخدم الألوان وسيلة انتصار للقبيلة والجنس ، فمنهم من مدح الجنس الأبيض على الأسود ، ومنهم من خالف ذلك.
- ظهر جراء التزاوج بين العرب والإسبان فئة كبيرة في المجتمع سموا المولدين ، واشتهروا بزرقة العين ، وشقرة الشعر ، وأدى هذا إلى تمازج الكثير من الثقافات المختلفة المتغايرة.

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج7 /191).

- أسرف الأندلسيون في بناء مساكنهم ، ودفعوا في سبيل ذلك الأموال الطائلة ، وكانت مساكنهم تتميز بألوان مختلفة كالأبيض والأحمر والأخضر ، كما اهتموا بزينة قصورهم ، وقلاعهم ، لأهداف سياسية خاصة .
- فرش الأندلسيون قاعات مساكنهم وقصورهم الديباج ، والزبرجد ، والزليج ، وقد كانت صنعتهم تنبي عن خبرة ، وإحساس بالجمال المرهف .
- يعد البهو والقبة والمنية والنادي ، أهم ما يميز المباني الأندلسية من حيت التصميم المعماري الرائع ، والذي يكشف الحضارة الإسلامية في الأندلس .

المبحث الخامس – البعد النفسي

تمتزج القصيدة الشعرية بالحس المرهف ، والمشاعر الإنسانية ، التي ترتبط بشكل مباشر مع الانفعال الانساني الذي يختلج الشعور ، حيث إن الأبعاد النفسية للألوان تعتمد بشكل مباشر على الصدق الشعوري ، الذي يختار اللون كدلالة خاصة تلقى قبولا عند المتلقين .

لذا يهتم الفنان التشكيلي باللون كونه أداة من أدوات الصدق العاطفي ، يستخدم للتعبير عن خلجات النفس الإنسانية ،ويتعلق بالبيئة المحيطة على اختلاف طبيعتها وهيئاتها فـ" إن ألوان الأشياء وأشكالها هي المظاهر الحسية التي تحدث توترا في الأعصاب وحركة في المشاعر ، إنها مثيرات حسية ، يتفاوت تأثيرها في الناس ، لكن المعروف أن الشاعر كالطفل يحب هذه الألوان والأشكال ، ويحب اللعب بها ، غير أنه ليس لعبا لمجرد اللعب ، إنما هو لعب تدفع إليه الحاجة إلى استكشاف الصورة أولا ، ثم إثارة القارئ أو المتلقي ثانيا "[1] .

وقد تنبه الكثير من النقاد إلى القيمة النفسية للون حيث اعتبروا اللون رمزا لشعور أو انفعال " إنه الشعور الذي نعييه عندما نعي هذا اللون ونتأمله ، ويصبح موضوعا لتأملنا الجمالي"[2] .

لذا فيعتبر اللون مدخلا مهما للدراسة النفسية ، بما يحتوي من دلالات وإيحاءات خاصة " بوصفه لغة خاصة تعبر عن عوالم شعرية وسيعة ، وترسم دنيا شعورية رحبة ، يكون الباب إليها هو الاختيار اللوني الخاص الذي يعمد إليه الشاعر " [3] .

وفي هذا المبحث يحاول الباحث أن يقطف زهرات معدودة مختلفة الألوان من بساتين الدلالات اللونية ذات البعد النفسي ابتداء باللون الأبيض، مرورا بالأسود ، والأحمر، والأخضر ، وانتهاء بالأصفر ، وقد حرض على إظهار الإشارات النفسية المتعاكسة في اللون الواحد .

---

[1] إسماعيل: التفسير النفسي للأدب (ص 59) .

[2] مطر،مقدمة في علم الجمال (ص 75).

[3] شنوان، اللون في شعر ابن زيدون (ص 31) .

يشعر ابن حمديس بالغربة عند رؤيته لورد النيلوفر الأبيض ، فقد أوجبت عليه هذه الطبيعة الخلابة أن يستذكر موطنه الذي تغرب عنه ، وأبعده عنه الأعداء ، فقال :

ونيلوفر أوراقه مستديرة تفتح فيما بينهن له زهر

كما اعترضت خضر التراس وبينها عوامل أرماح أسنتها حمر

هو ابن بلادي كاغترابي اغترابه كلانا عن الأوطان أزعجه الدهر[1]

فكأن الشاعر يلجأ إلى طبيعة الرومانسيين ، يدخل في أعماقها ، يبدد خياله السابح في أرجائها ، يناجيها ويحاكيها ، ويتألم لفراق موطنه ، يستغرق في تلك الوردة ، ويجد من يسليه إذ استوى معها في الإحساس بالغربة ومفارقة الديار .

إنها النفس الإنسانية التي لا تزال تحن إلى الموطن الأول ، الذي شهد فيه أيام الطفولة المبهجة ، فقد استطاعت تلك الوردة أن تجسد أفكار الشاعر وانفعالاته النفسية ، وكان لها دور في الكشف عن مكنوناته الداخلية .

لقد فاضت موضوعات الاستعطاف والشكوى في قصائد الشعراء الأندلسيين بالألم واللوعة والحزن، تسيطر حياة المأساة على المعتمد بن عباد ، حيث لم يعد له سلوان أو صبر يقول :

غَريب بِأَرضِ المغربينِ أَسيرُ سَيَبكي عَلَيهِ مِنبَرٌ وَسَريرٌ

وَتَندُبُهُ البيضُ الصَوارِمُ وَالقَنا وَينهلُّ دَمعٌ بينَهُنَّ غَزيرُ

...

فَيا لَيتَ شِعري هَل أَبيتنّ لَيلَةً أَمامي وَخَلفي رَوضَةٌ وَغَديرُ[2]

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص 85) .

[2] ابن عباد : المعتمد، الديوان (ص 98).

إنه الشعور بالغربة ، وتبدل الأحوال ،بعد منعة وحكم وقوة ، يوظف الشاعر ألوانه المشبعة بدموع حرى ، تسيطر على المتلقي ، ليصاب بمسحة شعورية حزينة على ما آل إليه المعتمد بن عباد ، فالبيض تندبه بلمعانها وبريقها ، ويشاطرها في ذلك الدمع الغزير المنسكب من مقلتيه .

يلجأ الشاعر إلى الطبيعة ، ليفرغ فيها صدمته ، ويبث إليها شكواه ، ويجلس على كرسي الأماني يتمنى أن يعود به الزمن ، ليجلس في ربوع الرياض الغناء ، والأزاهير المتفتحة ، إنه يشعر بأن السبيل الوحيد للتفريغ النفسي هو الطبيعة ، الطبيعة وحدها المخلص من الحالة المأساوية التي أصيب بها .

كثيرا ما اتصلت العين بالقلب ، فهي الناقل الأمين لما يدور في خلجاته ، فكل ما يطويه الإنسان في قلبه وذاكرته ، تأتي العين لتفضحه عبر ما هو مكتوب فيها ، هذا حال عين الشاعر الذي جادت عينه بالدموع إظهارا للحزن الشديد ، والجوى الكبير :

كأنما الصُّبْحُ لنا بعدَهُ عينٌ قد ابْيَضَّتْ من الحزن[1]

هو البكاء الذي أذهب نور العين ، لقد غلب البياض على السواد في العيون ، عندها ظهرت الحسرة وظهر الحزن الذي كان علامته ابيضاض العين .

لقد استخدم هذا اللون للتعبير عن مشاعر الحزن الشديد ، فكشف لنا خوالج قلب ذاب من شدة لوعته ، لكنه في المقابل حمل معاني الخير والجمال ، حيث اتخذ في دلالة على الكرم ، والطهارة والعفة ، والجمال ، وقد تعرضا لهذه المعاني في مبحث سبق .

وتتجلى المؤثرات النفسية الكبيرة عند عرض الشعراء لأمجاد القادة والفاتحين ، خاصة في أثناء وأد الفتن التي انتشرت في البلاد، يقول الأمير الشاعر الحكم بن هشام مفتخرا بأن الفتنة التي تطايرت في البلاد ، وتفرق أهلها شيعا وأحزابا ، قد قمعت بفضل سيفه ، وهو أمر

---

[1] ابن الزقاق ، الديوان (ص223).

تعوده مذ كان يافعا بالغا ، أما الثغور التي يخشى هجوم المتمردين منها فقد أمنها حتى ملأ الفضاء بجماجمهم التي تلمع في الظلام وكأنها لمتناثرها قطع الحنظل يقول :

وشافه على الأرض الفضاء جماجما كأقحاف شريان الهبيد لواقعا

تنبئك أني لم أكن عن قراعهم بوان وإني كنت بالسيف قارعا [1]

إنها نفسية المنتصر، المعبقة بريح السعادة البالغة ، إذ عادت القوة إلى البلاد ، بعد القضاء على فلول الثائرين ، وترسم هذه اللوحة صورة مظلمة من صور المأساة تمثلت في لمعان جماجم الأعداء ، فتظهر في هذا التشبيه معاني الألم والانكسار التي مني بها جيش الثائرين ، حيث حصدت رقاب جنوده .

وفي مشهد آخر ، يلجأ المعتمد بن عباد لإبراز إحدى الصور المجتمعية ، إنها صورة الزواج ، لكنه يخطب مدينة قرطبة ، تلك المدينة المتمنعة على كل أحد سواه فيقول :

خَطَبْتُ قُرْطُبةَ الحَسْنَاءِ إذْ مَنَعَت مَنْ جَاءَ يَخْطِبُهَا بالبِيْضِ والأَسْلِ [2]

يتخلل الأبيات طابع نفسي جميل ، فالحصار أصبح طريقة جديدة لطلب يد الفتاة الحسناء (قرطبة) ، وجعل الشاعر عسر الاستيلاء عليها هو علامة رفضها وتمنعها، أما الفتح فهو دليل رضاها.

أما عن دلالات اللون الأسود فأبرز ما ظهر منها الليل ، فهو مفعم بالدلالات النفسية المختلفة ، فتارة يهيم الشعراء شوقا إليه ، يبثونه شكواهم ، ويطوفون خلاله بهواهم ، وأخرى يتحدثون عن سكينته ، لكن ابن حفاجة يرسم لوحة فنية جميلة ، طالما أسرت المتدبرين في أسرار خلق الله تعالى ، إنه اللجوء إلى الليل في مواطن القتال يقول:

---

[1] ابن الأبار ، الحلة السيراء (ج1 / 47).

[2] ابن عباد: المعتمد، الديوان (ص45) .

مَلَأوا ضُلوعَ اللَيلِ زُرقَ أَسِنَّةٍ سالَت عَلى أَعطافِه أَوضاحا[1]

إنه الليل البهيم المظلم ، ينير بأسنتهم الزرقاء اللامعة ، لقد أزيلت الغشاوة عن هذا المحاق الشديد ، وأبدل مكانه النور ، الذي أناره من كل جانب ، فكأنما هي طلعات الصباح ، وبزوغ شمس الضحى ، التي تبث أشعتها في ربوع العالمين .

إن اللجوء إلى سنا البرق ووصف الأسلحة البراقة ، كان يبعث في النفس التفاؤل ، فالبرق أقوى وسيلة تزيل الظلمة ، وتجلو العتمة ، لتبدو كل الأشياء لامعة براقة لحظة لمعانه ، وإلى هذا السبب ترجع سبب التسمية للسيوف بالبيض البراقة الباترة .

ويبث ابن دراج همه لليل فيقول:

يَا أَيُّهَا القَمرانِ أَيْنَ سَناكُمَا عن مُطبِقٍ فِي ليلِ هَمٍّ أَسْوَدِ[2]

إنه اللجوء إلى هذا الليل الطويل ، الذي يحاكي كم الأسى المترسب في شغاف القلب ، يبث شكواه من توالي الأكدار والأسقام ، فقد وسم الليل بالهم، ليصبح لصيقته ، وجاءت الدالة اللونية لتكمل معنى تلك اللوحة ، إنه الهم الطويل المؤرق .

ويقول ابن عبد ربه في وصف ما حدث مع الثائر ابن حفصون من قبل الأمير عبد الله بن محمد :

ركبوا الفرار بعصبة قد جربوا غب السرى وخوافت الإدلاج

وإذا سألتهم موالى من هم ؟ قالوا موالي كل ليل داج [3]

إن الشاعر ينعت ابن حفصون وقبيلته بالخوف والجبن وإلا كيف نفسر فرارهم إلى ملاجئ الجبال أثناء الليل ، إنهم أشبه بالخفاش الذي يتخذ الظلام مأوى له يصطاد فيه هوام العوام .

---

[1] ابن خفاجة ، الديوان (ص 68).

[2] ابن دراج ، الديوان (ص72).

[3] ابن عبد ربه ، الديوان (ص 39) .

تشاءمت العرب من الغراب ، فمرافقته للإنسان كانت دليل سوء وتطير ، وقد استخدمت هذه الدلاة في الكثير من المواطن ، لعل منها ما قاله لسان الدين بن الخطيب :

إمّا صهَلَتْ في أرْضِ عِدىً فغُرابُ البَيْنِ بهِمْ نَعَقا[1]

إنها الخيول العربية الأصيلة ، التي لا تجارى ، ولا تبارى ، حيث تلعب مهاراتها التكتيكية في أرض الميدان دورا بارزا في تحقيق النصر على الأعداء .

استخدم الشاعر الدالة اللفظية (غراب) وجعله رمزا للموت فقد وصفه ب(البين) ، وفي هذا أراد الشاعر أن يستحضر تلك الدلالة النفسية العجيبة ، التي تقضي بحتمية وقوع الهلاك في الأعداء ، كيف لا والغراب ينعق نعيق الموت .

رسمت هذه اللوحة الفنية مزركشة بالكثير من الألوان المتعلقة بالخيول ، وكان هدفا أخيرا الإبلاغ بتحقيق النصر والظفر على الأعداء .

ويرسم ابن شهيد صورة أخرى متعلقة بذات المشهد ، يلتقطها من ثورة الزنج عبر أخذ صورة مقربة من مشهد تأملي ، إنها هامة زنجي أسود معلقة على أحد الرماح يقول:

كأَنَّ هامتَهُ والرُّمحُ يحملُهَا غرابُ بَيْنٍ على بانِ النَّقا نَغقَا[2]

يستدعي الشاعر إشارات نفسية جراء استعماله لمفردة الغراب الناعق ، إنها ثقافة التشاؤم ، والتي تغلغلت إلى أعماق الشاعر ، فصدح بها عبر تلك الصورة ، بحيث لا يترك للمتلقي مجالا للحديث عن أي بعد آخر سوى البعد النفسي المتعلق بخلجات القلب ، ولمسات الواقع .

كما نظر الشعراء إلى الغراب ، نظروا إلى العقاب ، إنه أحد النسريات الهائجة ، تحل على الديار فتتركها خرابا ، تدمر وتحطم من غير فهم ، إنها الحمق بعينه .

---

[1] ابن الخطيب ، الديوان (ج2/ 689) .

[2] ابن شهيد ، الديوان (ص 131) .

يشكل ابن حمديس منظراً شعوريا ، إنه الإحساس بالخوف والقلق من المصير ، حيث يستدعي العقاب كنذير شؤم وخراب على الأعداء ، فهو مدمر شرس لا يتوقف عند حد فيقول:

فتخافُ أذمارُ الكريهةِ فتكَهُ خَوْفَ البُغاثِ من العُقابِ الكاسِرِ[1]

تجسدت مشاعر الأرق والخوف في نفوس الأعداء، والتي تنظم الأسنة رؤوسهم كأنها فصوص عقد، وإنما جاء بهذه الدلالة النفسية إمعانا في إظهار الخوف كعامل شعوري مسيطر على الأعداء متجسد فيهم ، ساكن في سويداء قلوبهم .

وفي مقطوعة مليئة بالأسى والحزن يشكو ابن عبد ربه الأندلسي من الدهر ، راسما لوحة شعورية يظهر فيها آلامه الموشاة بالحكمة فيقول :

إلا إنما الدنيا غضارة أيكة إذا اخضر منها جانب جف جانب

هي الدار ما الآمال إلا فجائع عليها ولا اللذات إلا مصائب

...

فلا تكتحل فيها عيناك بعبرة على ذاهب منها فإنك ذاهب [2].

إنها عاطفة الاستسلام الخالص لأفاعيل الزمان ، التي لا سبيل لأحد على حربها أو الوقوف في وجهها ، إنها القوة الطاغية التي تبيد كل شيء ، فليس أمامها أحد مخلد ، آمالها مصائب ، ودروبها مصاعب ، وأعمالها متاعب .

ففي الأبيات تتجلى التجارب الشعورية الخاصة ، لتضفي بظلالها على النص ، فيشعر المتلقي بصدق العاطفة الشعرية التي مر بها الشاعر .

تتواشج العلاقات والتشكيلات الفنية ، حيث يلتقط الشاعر علي بن أبي الحسن صورة كونية جميلة ، فيها إشارات الراحة الإنسانية ، إنها صورة الشهب الحارقة ، والتي لا تخطئ

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص 210).

[2] ابن عبد ربه ، الديوان (ص 67).

قلوب الشياطين ، وهكذا رماح الشاعر التي تتخذ من قلوب الأعداء منازل تعشق ، فلا تسلو عنها ، بل تتعانق وإياها تعانق المحبين ، فيقول :

بروج من الخطي فيها كواكب لها من قلوب المجرمين منازل

تردت نحور العاشقين كأنما بها من تباريح الغرام بلابل

كأن شذى أطرافها إذ ترفعت شذى ألسن الحيات حين تصاول [1]

تكتمل عناصر الراحة الشعورية في المتلقي إثر سماعه لترانيم البلابل ، فالمتلقي يتعلق بتلك الأصوات الجميلة ، التي ينطلق معها في تفاؤل تام مع تباريح الصباح الفاتن، ليجد نفسه أمام انزياح دلالي جديد ،هذه الأصوات التي تسمع ندية هي أصوات الرماح المخترقة للدروع والمستقرة في القلوب ، وبهذا ينج الشاعر في تحويل الصورة الدموية المرعبة إلى صورة فنية جميلة .

لا تكتمل تلك اللوحة إلا بزاويتها الأخيرة ، حيث يقود الشاعر المتلقي إلى شذا الرياحين والأزهار ، ليؤكد على تراكب العناصر الجمالية المختلفة ، وفي المقابل يلجأ إلى انحراف دلالي آخر يتعلق بالحراب ، إنها تنفث السم ، فشذاها ليس شذى الحياة والحب ، بل شذى الموت والفناء .

إن إصرار الشاعر على توليد الصور المختلفة للدلالة على المعاني القريبة ، يدفع للحكم بأنه حضر بقلبه وعاطفته وشعوره ، يترنم بألحان الانتصار ، وإصابة الأعداء في مقتل ، كرسول يبعث الراحة النفسية ، والطمأنينة القلبية.

ترفرف الأعلام الحمر في ربوع المعركة ، ويوجه ابن عبد ربه الأندلسي له عينيه ليلتقط دفقة شعورية جديدة ،إنها تتعلق بنبضات القلب المتسارعة ، ليكشف لنا عن خفايا الأعداء ، إنه الخوف المحيط بهم من كل جانب ، فهم لا يرون مهربا ولا مفرا منه ، يرون الموت في الرايات ، وفي السيوف ، وفي المقاتلين ، يقول ابن عبد ربه الأندلسي :

---

[1] عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة (ص 96).

سيوف يقيل الموت تحت ظباتها لها في الكلى طعم وبين الكلى شرب

إذا اصطفت الرايات حمرا متونها ذوائبها تهفو فيهفو لها القلب [1]

إنه الإحساس بالنهاية المحتمة ، فالموت يسير حيث تسير الرماح والسيوف ، مطعمه ومشربه من دماء وأعضاء الأعداء .

استطاع الشاعر أن يجسد مشاعر الخوف ، من خلال استخدامه الدالات اللونية للأحمر ،فهو لون غير محبب للمتحاربين ، فقد تبدأ الحرب بالرايات البيضاء وتنتهي بالحمراء الدالة على الدماء والأشلاء المتساقطة .

ألصق الشعراء اللون الأحمر بالأعضاء البشرية للدلالة على المرض ، وفي إطار المأساة والتشرد الذي عاناه سكان الأندلس جراء الفتن المتلاحقة ، وسقوط المدن المختلفة يظهر ابن دراج صورا مختلفة من المعاناة مستخدما اللون الأحمر فالصبية الصغار تحولت وجوههم البيضاء البريئة إلى اللون الأسود الشاحب من كثرة ما قاسوه من هموم ، ومعاناة ، واشتد احمرار أحداقهم من كثرة ما مروا به من هم فيقول :

وجوه المنايا السود والحدق الحمر وكم بدلوا من وجه راع وحافظ [2]

تجلى في البيت الإحساس المفعم بالأسى الشديد ، وبجوى الحرمان ، المعبق بآلام الطفولة الضائعة التائهة ، التي حلمت يوما بالأمان والفرح والسعادة .

ويصف حال الفتاة العروس بقوله :

ولا حلي إلا جمان الدموع يسيل على كل خد أسيل [3]

---

[1] ابن عبد ربه ، العقد الفريد (ج1/ 129).

[2] ابن دراج ، الديوان (ص 276).

[3] ابن دراج ، الديوان (ص 158).

تسهم الدلالة اللونية في تحوير المعاني العامة إلى معان خاصة استقرت في خلجات الشاعر النفسانية، فالجمان اللامع يتحول على جيد العروس دموعا تسيل على الخدود ، وبهذا المشهد يتجسد تبدل الحال المؤلم ، ويندب الشاعر على فقدان مدينته ، وقد كانت نزعة الشعراء في رثائهم للمدن أن يظهروا مظاهر الغربة الأخلاقية والفكرية والثقافية والإنسانية.

وقد جسد اللون الأصفر إشارة نفسية تمثل الذل والانكسار وخاصة عند إطلاقها على الوجه يقول ابن خفاجة :

تَرى بَني الأَصفرِ البيضَ الوُجوهِ بِهِ قَد راعَها السَيفُ فَاِصفَرَّت بِهِ وَجَلا[1]

وفي المقابل جسد اللون الأصفر إشارات البهجة والسرور التي تلقي بظلالها على النفس البشرية يقول الرصافي البلنسي :

فَلا حُرِمَت سُقياهُ أَدمُعَ مُزنَةٍ تَرى مَبسَمَ النُوّارِ أَصفَرَ مُغبَرّا[2]

فالإشارة النفسية التي أرادها الشاعر من اللون الأصفر تعلقت بنشر معالم الابتهاج والجمال ، لكنه اغبر في دالة جديدة على الحزن ، ومنه قول لسان الدين بن الخطيب :

صُفْرُ المَلَابِسِ فِي شَكْلٍ وفِيْ أَرَجٍ كَأَنَّها مَذهِبَات العَنْبَرِيَّاتِ[3]

وبهذا ظهر البعد النفسي كدلالة رئيسية في شعر الحروب والفتن الأندلسي ، وقد ساهمت الألوان في إبراز هذا البعد من خلال سياقاتها المختلفة ، وقد تنوعت الإشارات النفسية بين الخوف والفرح ، والحب والكره ، والعزة والانكسار ، القلق والاطمئنان .

---

[1] ابن خفاجة، الديوان (ص 193).

[2] الرصافي البلنسي ، الديوان (ص73).

[3] ابن الخطيب ، الديوان (ج175/1) .

الفصل الرابع

أثر اللون في تشكيل الصورة الفنية في شعر الحروب والفتن في الأندلس

المبحث الأول : الألوان في تشكيل الصورة البلاغية

تعد اللغة العربية لغة المجاز ، فقد أكثر العرب من استعماله ، يقول ابن جني :" اعلم أن أكثر اللغة مع تأمله مجاز "[1] ، ويقول ابن رشيق : " والعرب كثيرا ما تستعمل المجاز وتعده من مفاخر كلامها ؛ فإنه دليل الفصاحة ولبوس البلاغة "[2] .

لذا انبرى الكثير من الأدباء والشعراء لا سيما المغاربة الأندلسيين في استقصاء التعبيرات المجازية ، يثبتون من خلالها مقدرتهم اللغوية والفنية ، فزخرت أشعارهم بها ، وازدحمت تشكيلاتهم البلاغية المختلفة المتنقلة بين علوم البلاغة العربية الثلاثة .

وبهذا اعتنى المحدثون من النقاد بالصورة البيانية ، ودرسوها من جوانبها المتعددة ، وحددوها بوصفها التعبير عن المعنى المقصود لطريق التشبيه والمجاز والكناية ، أو تجسيد المعاني [3] .

وفي هذا المبحث محاولة جادة للكشف عن دور الألوان في تشكيل الصور الحسية في شعر الحروب والفتن الأندلسي، عبر استخدام أدوات الدراسة البيانية المتمثلة في التشبيه والاستعارة والكناية إضافة إلى دراسة ظاهرة التضاد اللوني .

---

[1] ابن جني ، الخصائص (ج2 / 477) .

[2] ابن رشيق القيرواني ، العمدة (ج1 / 265).

[3] الصائغ ، الصورة البيانية في شعر عمر أبو ريشة (ص 32) .

أولا : اللون والتشبيه

وهو عند البلاغيين "صورة تقوم على تمثيل شيء (حسّي أو مجرّد) بشيء آخر (حسّي أو مجرّد) لاشتراكهما في صفة (حسّية أو مجرّدة) أو أكثر" [1]

استطاع الشعراء الأندلسيون أن يظهروا صورهم الشعرية المحسوسة ، عبر استخدامهم للتشبيهات المختلفة ، إذ الغاية الأساسية من التشبيه هي الإيضاح والبيان ، ويكون التشبيه لبيان حال المشبه ، أو قدره ، أو لبيان حال المشبه به [2].

ومن خلال البحث عن التشبيهات التي استخدمت في شعر الحروب والفتن ، لاحظ الباحث وجود دور كبير للون في إخراج تلك التشبيهات ، فيما يأتي بعض النماذج التي توضح ذلك ، يقول الشاعر مناديا المجاهدين:

يا راكبين عتاق الخيل ضامرة كأنها في مجال السبق عقبان
وحاملين سيوف الهند مرهفة كأنها في ظلام النقع نيران[3]

نادى الشاعر على المجاهدين في سبيل الله تعالى ، مستخدما التشبيه ؛ لتقريب المعنى إلى الأذهان فالخيل المضمرة المجهزة للحرب تشبه العقاب ، وهو طائر سريع الطيران لا يمل منه ، ولا يسابقه أحد ، فالتشبيه هنا جاء في باب مدح الخيل التي تعلق بها العرب ، وتسابقوا في وصفها ، وبينوا قدرتها العالية على المناورة في ميادين المعارك .

ويتناول في البيت التالي تشبيها جديدا؛ فالسيوف الهندية المرهفة اللامعة ، تزيل ظلمة الغبار الكثيف الذي غطى على العيون ، وحجب الرؤية ، كالنار التي تزيل الظلمة وتبث النور ، في إشارة إلى امتلاك الجيش المسلم التفوق على خصمه ، فتلك الخاصية التي تميزت بها سيوف الجنود كشفت رقاب العدى ؛ فجذعتها ، وهذا ما لم يتحقق للأعداء .

---

[1] قاسم ، علوم البلاغة ، (ص 143) .

[2] ينظر : الهاشمي، جواهر البلاغة (ص 238).

[3] المقري، نفح الطيب (ج6/ 244).

إن استخدام تقنية الإضاءة وتوظيف الحاسة البصرية أسهم في تحقيق المعنى المقصود من التشبيهين السابقين ، والمتمثل في بيان قوة المسلمين ، ورجحان كفتهم أمام أعدائهم من الأسبان .

فالبصر يمنحنا " الإدراك الحسي الدقيق، لأننا نكون أكثر وعيا بالأشياء و يتم وعينا بها بأكبر مقدار " [1]

وفي مجال وصف الخيل تبارى الشعراء ، مستخدمين المجازات المختلفة ، من أجل إظهار قوتها، وسرعتها ، ومناورتها في ساحة المعركة ، يقول الشاعر في وصف فرسه :

إلى سابحٍ فردٍ يفوت بأربعٍ له أربعاً منها الصبا والشمائل
من الفتخ خوار العنان كأنه مع البرق سارٍ أو مع السيل سائل[2]

وفي التشبيه السابق بيان لشدة سرعة الفرس ، حيث المسافة بين خطواته كبيرة ، فإذا ما جرى في المعركة خلته برقاً سريعًا يغطي بانتشاره المكان ، فالخيل كثيرة الذهاب والإياب حتى لا تكاد ساحة المعركة تفتقدها من تواصل كرها وفرها .

ويستعمل الشاعر صورة تشبيهية ثانية للدلالة على المعنى السابق إنها صورة السيل الجارف ، الذي ينتشر في المكان فيغطيه ، إذ لا يظهر منه شيء ، وقد جاء التشبيه الثاني تابعا للأول ، ومولدا عنه .

تولدت هذه الصورة من خلال التشبيهات الواقعية فإن " أدوات التشبيه ظلّت منسجمة مع الحقيقة المعروفة التي قرّرت التشبيه ملمحا من ملامح الفطرة " [3] .

كما لعب اللون دورا بارزا في إظهار مدى الحسرة واللوعة جراء رسم لقطات التشرد، فأضاف الشاعر لونا مضيئا في وصفه للطفلة المشردة فقال :

وَطِفْلَةٌ مِثْلَ حُسْنِ الشَّمْسِ إِذْ طَلَعَتْ كَأَنَّمَا هِيَ يَاْقُوْتٌ ومرْجَانُ[4]

---

[1] طبل ، المعنى الشعري في التراث العربي (ص 150).

[2] المقري ، نفح الطيب (ج4/ 109) .

[3] محمود ، الصورة الشعرية في شعر يحيى بن حكم الغزال (ص 140) .

[4] المقري ، نفح الطيب (ج4/ 488).

استخدم التشبيه السابق لإبراز معاني الأسى على انقلاب الأحوال بالناس ، فالمصائب متدافعة كالأمواج ، تمس كل الناس ، الكبار والصغار ، الرجال والنساء .

وهو هنا يتحدث عن المصائب التي مست الأطفال ، مؤكدا على مفهوم براءة الطفولة ، فهي طفلة جميلة تشبه الشمس في طلعتها ، تنشر الضياء كأنها ياقوت ومرجان .

وقد لجأ الشاعر إلى هذا التشبيه الجميل ، ليثير المستغاث بهم ، إذ النفس تميل بفطرتها إلى مناصرة الطفولة البريئة ، فكان لا بد من استخدام تلك الصورة ليمتلك قلوب المؤمنين ، ويستحثهم للدفاع عن كرامتهم وعرضهم .

ويلاحظ تعلق الشاعر بالطبيعة إذ يختار منها تشبيهاته ، فهي أشياء محسوسة يلمسها الإنسان ، فتستقر في ذهنه ، بصورة واضحة ، وبهذا يطلق الشاعر أوصافه المعهودة على الأشياء .

يسقط الشاعر صفة الإشراق على الممدوح ، مستخدما التشبيه بغرض بيان حال المشبه به فيقول:

بدر الملوك الذي إشراق سنته يجلو عن الدين والدنيا الدياجيرا

يشبه الشاعر الملك بالبدر ، ووجه الشبه (الإشراق) ، فبطلوع البدر تنير الدنيا وتشرق بعد ظلمتها ،هذا في الجانب الحسي ؛ أما في الجانب المعنوي ، فبوجوده يشرق الدين ويظهر على الكفر ، فيعلو ويسمو بعد أن احاطت به ظلمات الجهل والهزائم ، فقد تحولت المساجد إلى كنائس ، في ظلمة تغريب للدين .

وبهذا يتحقق لهذا الملك إشراقان أولهما في الدين، وثانيهما في الدنيا ، والمعنى الحاصل من كليهما الاستبشار بقدوم هذا الملك ، وملازمة الراحة والطمأنينة والخير له .

فالمشبّه به ظل محورا في تركيب المجانسة الشعرية بين ذات الصورة، وحدود أبعاد التشبيه، الموازنة بين خيال الشاعر وواقعه الملموس .

وبهذا فقد نجح الشعراء في التعبير عن خلجاتهم النفسية عبر استعمالهم دلالات اللون الأبيض التشبيهية .

يُستدعي اللون الأزرق ، ليرسم من خلاله المبدع بريشته صورة العدو في مقتلته ، إنه السحق والتدمير الذي لا يتيح له عودة أو رجعة فيقول :

جَادَت عَلَيهِمْ حَرْبه بِصَوَاعِقٍ تَرَكَتْهُم مِثْلَ الرَّمَادِ الأَزْرَقِ [1]

يستخدم الشاعر أداة التشبيه (مثل) راسما صورة المهانة التي مني بها الأعداء ، فقد تركت أجسادهم محروقة في ساحة المعركة ،وكان الاستعمال اللوني عاملا مساعدا في جلاء تلك الصورة ، فالبوارق اللامعة التي أصابتهم دلت على تحقق القتل ، واللون الأزرق الذي ردف الرماد دل على الاحتراق .

وفي تشبيه آخر يزاوج الشاعر بين استخدامه لأداة النداء والتشبيه ليدلل على علو مكانة ممدوحه ، فهو بدر ينير في وسط الظلماء ، وهو كالشمس المشرقة التي تطغى على كل النجوم إذا بدت في الصباح ، وهو كالأسد الذي توكل إليه مهمات الحماية فلا يجرؤ أحد على الاقتراب منه .

يأْ بَدْرَ ظُلْمَتِهَا يَا شَمْسَ صبُحَتِهَا يَا لَيْثَ حوْمَتِهَا إِنْ هَائِجٌ هَاجَا [2]

يوضح الشاعر الغرض من استدعاء تلك التشبيهات المتعاقبة في قوله : (إن هائج هاجا) ، فالمراد هو علوه على أعدائه ، وقدرته على تحقيق النصر الحاسم ، فلا مجال للعبودية والهزيمة ، بل النصر والتمكين والظفر بالسيادة.

وقد زخرت التشبيهات باستدعاءات مشاهد مماثلة ، من شانها الإسهام في جلو الصورة ، وبيانها ، يقول ابن عبد ربه :

تجَلَّتْ دَيَاجِي الحَيْفِ عنْ نُوْرِ عَدْلِهِ كَمَا ذَرَّ فِيْ جَنْحِ الظَّلَامِ شُرُوق[1]

---

[1] ابن عذارى ، البيان المغرب (ج2 / 113).

[2] المرجع السابق (ج2 / 236) .

يمتلك الممدوح صفة العدل المطلق التي مثلت سراجا نورانيا يزيل ظلمة الجور والحيف ، العدل نور ، والجور ظلمة ، وقد استخدم هذا التشبيه البليغ بغرض التأكيد على تلك الفكرة ؛ ولهذا لجأ الشاعر إلى رسم صورة تشبيهية مقابلة يلامسها المرء كل يوم ، إنها صورة الإشراق وطلوع الشمس ، فبطلوعها يتبدد الظلام ، وتشرق الأرض ، وتدب الحياة على هذه الأرض المعمورة ، ففي تحقيق العدل حياة وهناء .

وفي مشهد تصويري جديد يشبه الشاعر السيوف بالصواعق التي تأخذ الأعداء ، ينتقل الشاعر إلى لقطة جزئية يحيلنا فيها إلى أثر تلك الصواعق والبروق في الأعداء ، إذ تساقطت أشلاؤهم المتقطعة في ساح المعركة كالأمصار ، وقد جاء هذا التشبيه ليدل على كثرة قتلى الأعداء يقول :

وما أخذتهمُ الأسياف لكن صواعقُ لا يبوخُ لها ضِرام
إذا ما برقةٌ برقَت عليهم فإنّ القَطْر أعضادٌ

وقد كثرت في شعر الحروب والفتن المفاخرات بكبر حجم الجيش المقاتل ، وشبه الجيش بسواد الليل ، يقول ابن عبد ربه :

كثائب تتبارى حول رايته وجحفل كسواد الليل جرار
فكم بساحتهم بشلو مطرح كأنه فوق ظهر الأرض إجار[3]

يشبه الشاعر الجيش بالليل ، بجامع الحلول والتغطية ، وفيه إشارة إلى كثرة الجيش المقاتل ، حيث يحجب رؤية الشمس من كثرة عدده فيسد الأفق ، وهذا ما اكده استعماله للون الأسود المرتبط بالليل ، وقد عرف عن العرب استعمالهم لفظة السواد للدلالة على الكثرة.

---

(1) المرجع نفسه (ج2 / 236).

(2) ابن دحية الكلبي ، المطرب في أشعار أهل المغرب (ص 120) .

(3) **ابن عبد ربه ، الديوان (ص)**.

ويلجأ الكاتب إلى رسم صورة تشبيهية أخرى فأشلاء الأعداء الملقاة على الأرض شكلت طبقة ثانية كالسطح حيث غطيت الأرض ، وفي هذه الصورة مناسبة لمراد للتشبيه في البيت الأول.

وفي صورة تشبيهية أخرى يؤدي اللون الأحمر وظيفة التعبير عن المأساة ، حيث باتت الدموع المسكوبة الحرى ، حمراء اللون كما في قول الشاعر:

وَلَا حِلْيَ إِلَّا جُمَانُ الدُّمُوعِ يَسِيْلُ عَلَى كُلِّ خَدٍّ أَسِيْلْ[1]

تبدلت الأحوال ، فصارت الحلي دموعا من الجمان ، وقد شبه الدمع بالجمان بجامع لون الحمرة المشترك بينهما .

استخدم الشاعر هذا التشبيه محذوف الأداة ، من أجل التأثير على المتلقي، ليستحضر تلك الصورة الحزينة للفتيات المنعمات وهن يخضبن الدموع على خدودهن كأنها دماء من شدة الوجد

ويؤكد على هذا المعنى قول ابن شهيد :

كَأَنَّ الدُّجَى هَمِّي وَدَمْعِي نُجُومه تحدَّر إِشْفَاقًا لِدَهْر الأَرَاذِلِ[2]

فالدجى يحمل دلالة الهم والغم ، ويشبه الدمع المتناثر من عينيه بالنجوم اللامعة ، بجامع الحمرة بينهما .

ومن دلالات اللون الأخضر التشبيهية إفادته لمعاني الخصب والنماء والري يقول الشاعر :

أضحَى الهُدَى يَشْكُو الظَّمَا وَلَأَنتُمُ ظلٌّ وَرَيٌّ كالرَّبِيْع الممطر[3]

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص 158)

[2] ابن شهيد ، الديوان (ص129)

[3] ابن سهل الأندلسي ، الديوان (ص 142).

شبه الممدوح بالربيع بواسطة أداة التشبيه (الكاف) بجامع (الخصب والنماء والعطاء) ، فقد أضحى الهدى يشكو من قلة الناصرين ، وضعف المؤمنين ، فصار محتاجا لمن يعيد إليه الحياة، والتي تزيل الهم ، وتذهب الغمة عنه ، فكان الممدوح ربيعا ، يرجى منه أن ينصر الحق ، ويقيم الصدق ، وينشر الهدى .

ويجسد حازم القرطاجني الأهوال التي عاناها الممدوح في سبيل الوصول إلى تحقيق هدفه ، فهذه الليالي سوداء فاحمة ، بما فيها من الشدائد والمصاعب ، واستخدم التشبيه بواسطة (الكاف) ليؤكد هذه الشدة ، حيث إن سوداوية تلك الليالي تشبه الشعر الأسود الذي يميز الشاب الصغير ، بجامع السواد في كل فيقول:

إلى مثل هذا اليوم سرتَ لياليا كما اسودَّ من لون الشبيبة فاحمه[1]

ويلجأ الشاعر للتشبيه البليغ في وصف جو المعركة ، حيث السيوف برق في لمعانها ، والرماح الزرق شهب في دقة إصابتها ، وشدة صلابتها ، والغبار الكثيف كسقف السماء المحيطة بالأرض ، وهذا يدل على شدة العراك ، وكثرة الكر والفر في ميدان القتال يقول ابن الزقاق البلنسي:

طَلَعَت بحيثُ الباتراتُ بوارقٌ والزرق شهب والقتام سماء[2]

ومن الدلائل التشبيهية للون الأزرق أنه يدل على الصفاء إذا ما وصفت به المياه ، يقول الشاعر:

تَتَزَاحَمُ الأَرْوَاحُ دُونَ وُرُودِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ نُطْفَةٌ زَرْقَاءُ[3]

إنه تشبيه المبدع ، المستحضر لإحدى صور الطبيعة ، فالسيف مشهور بسرعة قتله ، حتى إن أرواح الأعداء تتزاحم على وروده ، إذ تشعر بأنها خلقت من أجل أن تلقاه ، ويشبه

---

[1] القرطاجني، الديوان ،(ص111)

[2] ابن الزقاق ، الديوان (ص 3).

[3] ابن الخطيب ، الديوان (ج1 / 95).

تزاحم الأرواح على ذلك السيف بنطفة الماء الصافية القليلة ، التي يتزاحم عليها العطشى ، كل يريد أن ينهل منها شيئا ولو يسيراً ، وقد أشار اللون الأزرق إلى عنصر ترغيب فبه يسترد العطشى قوتهم.

وجنَيْتُمُ ثَمَرَ الوقائعِ يانِعاً بالنصر من وَرَق الحديدِ الأخضَر[1]

حيث شبه المعارك بالأشجار الخضراء التي تقطف منها الثمار ، وقد استعمل اللون الأخضر في سياق هذا التشبيه ، حيث دل على كثرة الآلة الحربية المستعملة في الحرب ، كما في قوله : (ورق الحديد الأخضر) .

أما اللون الأصفر فأخذ دلائل تشبيهية كثيرة كالخوف والمرض ، والسرور ، وقد استخدمه الشعراء في وصف الخيول الأصيلة المذهبة الصفراء كما في قول لسان الدين بن الخطيب :

صُفْرٌ كالشّمْسِ إذا جنَحَتْ حُمْرٌ قد أُلْبِسَتِ الشّفَقا[2]

فهو يشبه لون الخيل الأصفر بلون أصيل الشمس ، حيث يعطي راحة نفسية للمقاتل في ساحة المعركة ، فهي خيول أصيلة معلمة ، لا يمكن أن يتجاوزها، أو يعلو عليها ، فهي كالشمس علوا وجمالا .

وبهذا يمكن القول بأن التشبيه اللوني أسهم بصورة فعالة في تشكيل الصورة الحسية ، من خلال الموائمة بين الواقع والخيال ، حيث أضحى " لكل إحساس ممكن صورة ممكنة تطابقه "[3] .

---

[1] ابن هانئ ، الديوان (ص161).

[2] ابن الخطيب ، الديوان (ج2/ 689) .

[3] رتشاردز ، مبادئ النقد الأدبي (ص 174).

ثانيا: اللون والاستعارة

الاستعارة في اصطلاح البيانيين: استعمال لفظٍ ما في غير ما وُضِع له في اصطلاحٍ به التخاطب، لعلاقة المشابهة، مع قرينة صارفةٍ عن إرادة المعنى الموضوع له في اصطلاحٍ به التخاطب.

وهي من قبيل المجاز في الاستعمال اللّغوي للكلام، وأصلُها تشبيهٌ حُذِفَ منه المشَبّه وأداةُ التشبه ووجْهُ الشَّبَه، ولم يبق منه إلاَّ ما يدلُّ على المشبّه به، بأسلوب استعارة اللفظ الدالّ على المشبَّه به، أو استعارة بعض مشتقّاته، أوْ بعض لوازمه، واستعمالها في الكلام بدلاً عن ذكر لفظ المشبَّه، مُلاَحَظاً في هذا الاستعمال ادّعاءُ أنَّ المشبَّه داخل في جنس أو نوع أو صِنْف المشبّه به، بسبب مشاركته له في الصفة الّتي هي وجه الشَّبَهِ بينهما، في رؤية صاحب التعبير[1].

إنَّ التشبيه والاستعارة والكناية أدوات بواسطتها يضفي الشاعر أبعادا تكاد تكون منسجمة مع هواجسه وأحاسيسه، على الرغم من كونها تقرّب ذات الصورة وحيويتها.

لذا نوَّع الشعراء بين الأساليب البيانية المختلفة ففي النص الآتي يستخدم الشاعر الاستعارة في البيت الأول ، حيث شبه الدهر بالإنسان الذي يظهر في ملامح وجهه العبوس ، وحذف الإنسان وأبقى صفة من صفاته (الوجه) ، وجاءت هذه الاستعارة في إطار المعاكسة الضدية فالمفارقة واضحة بين مشهد (طلق المحيا) وبين مشهد (الدهر قد عبسا) يقول :

مَاضِي العَزِيْمَة وَالأَيَّام قَدْ نَكلَت طَلْقَ المُحَيَّا وَوَجْه الدَّهْرِ قَدْ عبَسَا

كَأَنَّه البَدْرُ وَالعَلْيَاءُ هَالَتُهُ تحف مِنْ حَوْلِهِ شُهْب القَنَا حَرَسَا[2]

ولتحقيق تلك الغاية يستخدم الشاعر التشبيه ليؤكد جمال الممدوح عبر قوله (كأنه البدر) ، ويرسم صورة تشبيهية أخرى يوضح فيها مكانة الممدوح حيث القنا اللامعة تحرسه .

ومن هنا يزاوج الشاعر بين الاستعارة والتشبيه ، فتسهما معا في الكشف عن مكنوناته الذاتية ، وتزيد من توضيح الصورة .

ويستخدم الشاعر التشخيص من خلال قوله:

---

[1] ينظر: الميداني ، البلاغة العربية (ج229/2) .

[2] المقري ، نفح الطيب (ج4 / 454).

سَارَت سَفَائِنُهُم والنَّوح يَتْبَعُهَا كأنَّها إبِلٌ يَحْدُو بِهَا الحَادِي
كَمْ سَالَ في المَاءِ منْ دَمْعٍ وكَمْ حَمَلَتْ تِلْكَ القَطَائِعُ مِنْ أَقْطَاعِ أَكْبَادِ[1]

إنه الرثاء لسوء الحال ، حيث شبه النوح على الميت بإنسان يسير تابعا على سبيل الاستعارة المكنية ، ويدمج تلك الاستعارة مع تشبيه رائع جديد مستحضرا صورة الحادي الذي يحدو للإبل ، فيجعلها سريعة تطرب بهذا السماع ، وفي استدعاء تلك الصورة التي عهدها العرب إبراز لشدة الألم والوجع ، حتى أصبح ماء البحار مختلطا بدموع العيون من كثرته وشدته.

وفي الأبيات استعمال للألوان غير المباشرة والمتعلقة بالماء الأبيض والدموع البيضاء التي تذرف أسى وحرقة ، وكذلك الأكباد المتفلقة من شدة الجوى .

ويلجأ الشعراء لاستخدام الاستعارة كأداة معينة على فهم صورة الموت كما في النص الآتي :

لم تزالوا تبغونها عوجا حتى وردتم للموت شر ورود
فاصطلوا حرها وحر سيوف تتلظى عليكم كالوقود[2]

ففي الأبيات السابقة تشبيه للموت بنبع الماء الذي يورد ، وحُذف المشبه به وأُبقت صفة من صفاته وهي (الورود)على سبيل الاستعارة المكنية .

ساهمت هذه الاستعارة في توضيح المعنى المقصود فالثائرين على الحاكم تهيأ لهم أنه بإمكانهم تحقيق النصر والظفر بالحكم ، فثاروا وعملوا على ذلك ، ظانين أن الحرب سهلة ، ستعطيهم ماء زلالا ، وعيشا طيبا كريما ، حتى فوجئوا بورودهم إلى عين الموت حتى كووا بنار الحرب، فصاروا قطافا سهلا لها ولسيوفها المتلظية .

---

[1] الأصبهاني ، خريدة القصر وجريدة العصر – قسم شعراء المغرب والأندلس (ج2 / 111).

[2] ابن الأبار ، الحلة السيراء (ص155).

وفي نص مواز آخر ، يستعمل ابن عبد ربه الأندلسي الاستعارة أيضا للكشف عن تلك الصورة الحسية المشاهدة ، فينجح في تقريب معنى الموت بعد مزاوجته بالسيوف التي تغني فيقول :

وَتُسْمِعُهُم أُمُّ المَنِيَّةِ وَسْطَهَا غِنَاء صَلِيْلِ البِيْضِ تَحْتَ المَفَاصِلِ[1]

رسم الشاعر مشهدا حربيا ، من خلال اعتراك المتقاتلين ،فقرن بين الموت والسيوف ، لاجئا لاستخدام تقانة التشخيص من خلال الاستعارات المختلفة ، فالمنية لها صوت ينادي على الأعداء كصوت الآدمي ، فكأنما خلقت لهم دون غيرهم ، والسيوف البيض تعيش حالة سعادة ونشوة ، إذ تشعر بها حين تخترق مفاصل الأعداء ، وأشبه صوت صليلها صوت المغني فرحا جذلا بما حصل لها من ارتواء من دم الأعداء .

ويستمر الشاعر في استدعاء الاستعارات ، فالرماح دوارة مثل الكواكب تسير باحثة عن مرادها ، والذي يتمثل في قلوب الأعداء ، فلا تهدأ حتى تستقر فيها ، إذ هي مسكن ومنزل لها ، لا تحيد عنها ولا تستبدلها .

بروج من الخطي فيها كواكب لها من قلوب المجرمين منازل
تردت نحور العاشقين كأنما بها من تباريح الغرام بلابل[2]

وفي هذه الأبيات دلالة على دقة إصابتها ، حيث تلتئم مع القلوب في علاقة حميمة ، لكنها علاقة الموت الزؤام ،فسبيل الوصول إلى القلوب يتمثل في إزهاق دماء نحور الأعداء، وبتحقيق القتل والاستقرار في القلوب ، تشعر بالسعادة ، دل على ذلك قوله: **(بها من تباريح الغرام بلابل)**.

يظهر أثر اللون بشكل كبير عند ابن دراج القسطلي ، الذي جعل من مقطوعاته الشعرية موطنا خصبا للتحليل الاستعاري والمجازي ، فيقول موظفا الاستعارة للدلالة على تبدل الحياة :

---

[1] ابن عبد ربه ، الديوان (ص 105) .

[2] عباس ، تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة (ص 96).

وحمر الموت من خضر المغاني وسود البيد من بيض الملاء

...

وقد جذعت أنوف العز منهم خطوب سمنهم أنف الإباء

وألبسهم ثياب الذل خطب يليهم في ثياب الكبرياء[1]

بعد أن عرض الشاعر ديباجته اللونية في البيت الأول ، والتي دلت على تغير الأحوال، أخذ يستعرض بعض الإشارات الاستعارية للون الأسود ، والمتمثلة في قيام الخطوب والمصائب التي مر بها الأندلسيون ، مستخدما الاستعارة فالخطوب كالكماة تحمل السيوف لتجذع بها الأنوف ، وقد جاءت لفظة (أنوف) إشارة إلى العزة والرفعة .

ويستمر في تشخيص العزة حيث يجذع أنفها في إشارة إلى مقدار الذلة والمهانة التي آلت إليها الأحوال ، وفي تشخيص ثالث يلبس الخطب ثياب الذل للمهزومين ، حيث شبه الذل بالثوب الذي يلبس ، في توكيد جديد للحالة المأساوية التي يشعر بها الشاعر .

وفي استعارة أخرى يطالعنا ابن دراج القسطلي ليلبس الموت وجها فيقول :

وجوه المنايا السود والحدق الحمر وكم بدلوا من وجه راع وحافظ[2]

يستعير الشاعر وجها للمنايا ، ويلونه بالأسود ، ليعبر عن لوعته الشديدة ، وسوء الحال التي آلت إليه ، ولجأ الشاعر للتشخيص في هذه الاستعارة راسما صورة البؤس والشقاء ، والتي تظهر على الوجه العبوس ، ولتأكيد المعنى استعمل (كم) الخبرية ، التي تدل على كثرة الدواهي والخطوب ، فتبدلت الأحوال من سعادة إلى شقاء .

وعبر عن هذا التحول عبر استعمال دلالة الوجه ، ففي تقاسيمه تظهر الأفراح والأتراح ، والراحة والمأساة ، والسعادة والشقاء .

وفي مثل هذا يقول الشاعر مستخدما التشخيص :

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص 121).

[2] ابن دراج ، الديوان (ص 276).

كستني الخطوبُ السود بيضَ ذوائبٍ ففي خلّتي منها لدى البيض إخلالُ[1]

فالخطوب السوداء القاسية ، تلبس الإنسان الشيب الأبيض ، الذي يبدو بارزا في ذوائبه ، وهذا على سبيل الاستعارة ، حيث استعار صفة اللباس من الإنسان ، ودلت الألوان على الشدة والعناء حيث سواد الخطوب ، وبياض الشيب الناتج عن الكهولة ، والمنذر بغروب الأعمار .

ومنه أيضا قول ابن الأبار:

وَما اسْوَدَّ وَجْهُ الخَطْبِ إلا سَمَا بِهِ لِيَجْلُوَهُ طَلْقَ الأَسِرَّةِ مبيضًّا[2]

فقد جعل للخطب وجها أسود ، يكني فيه عن مقدار الشقاء الذي يميزه ، فالأسود لون تشاؤمي ، غير أن الممدوح لا يفتر أن يزيل هذا السواد ، ليحل مكانه البياض فينجلي ، وقد أراد الشاعر إظهار ممدوحه في أبهى صورة بعد أن ذكر المتضادات اللونية المختلفة ، وقد توصل إلى هذا عبر استعارته للوجه الأسود .

ومن الاستعارات الجميلة قول شاعر بلاط غرناطة :

شَهِدَ البِهَار وَذُو الجَلَالَة عَالِمٌ بِصَحِيْحِ مَا يُبْدِي وَمَا يُخْفِيْهِ
أَنَّ الإمَارَة فِي الأَزَاهِرِ كُلّهَا للوَرْدِ لَا يُؤْتَى لَهُ بشبيه [3]

يجري الشاعر خطابا رمزيا بين الأزاهير المختلفة ، فتتناقش حول مَن مِن الأمراء أحق بالخلافة ،وتختتم الجلسة بشهادة البهار ذي اللون الأصفر بأحقية حاكم قرطبة في الخلافة ، وقد نجح الشاعر في هذا الأسلوب من خلال توظيفه للاستعارة فأسقط على البهار صفة الكلام ،والتي اختص بها الإنسان ، علي سبيل الاستعارة المكنية .

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص355).

[2] ابن الأبار ، الديوان (ص362).

[3] الحميري ، البديع في وصف الربيع (ص 57).

وفي استخدام اللون الأصفر كشاهد ختامي إشارة إلى مقدار الراحة والطمأنينة التي ستتحقق إن بايع الأمراء أمير قرطبة بالخلافة ، فلا يخفى أثر اللون الأصفر في الورود على النفس من تحقيق الانشراح والسرور .

يوظف الشاعر الاستعارة مشيدا بالنصر الكبير المتحقق ، حيث شبه المدينة المفتوحة بالعروس التي تفرح بيوم زواجها، فتحققت هذه السعادة الغامرة بدخول المنتصرين فيها فيقول :

كَذَا تَفْتَضّ أبْكَار البِلَادِ ولَا مَهْرٌ سِوى البِيْضِ الحِدَادِ[1]

وفي الشطر الثاني تتجلى السيوف البيضاء اللامعة بحيث اعتبرت مهرا سوغ لهذه المدينة أن تفتح ، كما يؤدى المهر المادي للفتاة فيكون علامة إيجاب وقبول .

يصور الشاعر مشهدا حربيا في ساح الوغى ، فالرماح السمر القوية تتنقل بين رقاب الأعداء فتجمعها في عقد منظوم ، حيث شبه الرقاب بحبات العقد التي تنظم .

فتخافُ أذمارُ الكريهةِ فتكَهُ خَوْفَ البُغاثِ من العُقابِ الكاسِرِ
بسنانِ أسْمَرَ للحيازم ناظمٍ وغرارِ أبيضَ للجماجمِ ناثرِ[2]

و نجد السيوف البيضاء المشرقة تنثر الجماجم المعبقة بالدماء اللامعة تحت أشعة الشمس ، كأنها حبات فضة منثورة .

وقد جاءت الاستعارتان مكنيتان بغرض الإبانة والتوضيح ، فالمشاهد المنبثقة عنهما واقعية ، يسهل على المتلقي تصورها .

أما ابن شهيد فيعد الاستعارة التصريحية إحدى الأدوات المقربة لصورة الممدوح فيقول:

وكَيْفَ اهْتِدائي في الخُطُوبِ إذا دَجَت وقد فَقَدَتْ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومِي[3]

---

[1] ابن بسام ، الذخيرة (ج3/ 776).
[2] ابن حمديس ، الديوان (ص 210) .
[3] ابن شهيد ، الديوان (ص 147).

شبه المفقودين بالنجوم التي تنير الطريق ، وتهدي الحيارى في عتمة الليل البهيم ، مستعملا الاستعارة التصريحية حيث حذف المشبه وصرح بالمشبه به ، وقد هدف الشاعر إلى بيان قدرهم ، إذ كانوا نجوما تضيء حين تحلك الظروف ، وتسوَدُّ الأمور ، وبهذا جاءت دلالة اللون الأصفر المميِّز للنجوم المضيئة على الهداية .

ومن المعاني التي تعلقت باللون الأحمر معنى الموت ، ومن المعلوم أن الموت الأحمر هو الناتج عن القتل ، يستخدم ابن الأبار الاستعارة ليؤكد هذا المعنى فيقول :

وَيُساقِي الصُّفْرَ حُمْرَ المَنايا بِالصّعادِ السمْر أو بِالصّفاح[1]

يشبه المنية بالشراب الذي يسقى للعطاشى ، وقد دل ذلك على الموت قتلا إذ وسم هذا الشراب باللون الأحمر ، وقد استعملت الرماح والسيوف آنية تشرب بها هذه المنية ، والمعنى المراد هو إظهار شدة بأس ممدوحه ، وكثرة مقاتلته في الأعداء ، وقد نجح في ذلك عبر استخدامه للصورة المجازية المتمثلة في الاستعارة .

ومن دلالات اللون الأحمر الاستعارية ارتباطه بالتنعم ، وظهر هذا من طريق الاستعارة في قول ابن دراج :

وأَصبحَ الدهرُ من كُساهُ فِي حُمْرِ إِسْتَبْرقٍ وَخُضْرِ[2]

فبتولي الأمير الخلافة صار الدهر منشرحا ، دل على هذا الابتهاج ظهوره في كسوة جميلة ، تتمثل في حلى الاستبرق الحمراء، والسندس الخضراء .

ومن الدلالات الاستعارية للون الأحمر أيضا إظهار القوة والقدرة ، يقول الصاحب ابن عباد :

---

[1] ابن الأبار ، الديوان (ص135).

[2] ابن دراج ، الديوان (ص32– 33).

كَم باسِلٍ قَد رَدَّهُ وَعَلَيهِ من دَمِهِ رِداء أَحمرٌ لَم يُصقَل[1]

يستخدم الشاعر (كم) الخبرية في تكثير قتلى ممدوحه من أقوياء الأعداء ، حيث عادوا يلبسون ثيابا صبغت باللون الأحمر ، كناية عن لون الدماء الكثير ، وقد استعمل الاستعارة المكنية فالدماء صارت ثوبا يلبسه البواسل من الأعداء .

وقد حمل اللون الأزرق دلالات استعارية مختلفة منها التعلق بالخير كما في قول ابن سهل الأندلسي :

ما زالَ يُظهِرُ فِيَّ آيَةَ جودِهِ حَتّى كَساني بِالسَحابِ الأَزرَقِ[2]

يمدح الشاعر الأمير مظهرا صفة الكرم ، حيث لا ينقطع كرمه ، فهو كالسحاب المحمل بالغيث ، فيسقي الأرض ، ويأتي بالخير أينما حل ، وتشارك التشبيه مع الاستعارة في تأدية المعنى، فتشبيه الممدوح بالسحاب في عطائه ، والاستعارة متمثلة في جعل السحاب كالكسوة التي تلبس .

وقد ساهم اللون الأزرق بشكل واضح في تقريب المعنى ، وتوضيح الفكرة ، حيث دل اللون الأزرق في السحاب على البشارة بنزول الأمطار .

وتظهر الدلالة الاستعارية للون الأخضر في كونه يدل على النماء والخصب حيث يقول الشاعر :

أَلبَستَهُ طَوقَ المَنِيَّةِ أَحمَراً فَكَسَوتَنا التَأمينَ أَخضَرَ مُخصِبا

فالتأمين والإحساس بالطمأنينة كاللباس الذي يكسى به الناس ، وقد حذف المشبه به وأبقى صفة من صفاته وهو الكسوة ، لكنه ميز هذه الكسوة باللون الأخضر ، وفيه إشارة إلى عودة الحياة والنماء ، بعد أن أخذت المنية الحمراء رقاب الأعداء وأرواحهم .

---

[1] ابن عباد: الصاحب، الديوان (ص 83) .

[2] ابن سهل ، الديوان (115).

ثالثا: اللون والكناية

الكناية في اصطلاح أهل البلاغة: "لفظ أطلق وأريد به لازم معناه، مع جواز إرادة ذلك المعنى"[1] وفيما يأتي تبيين لعلاقة اللون بالكناية وفقا للمفهوم السابق .

ارتبط اللون الأبيض بالطهر والنقاء ، مثال ذلك قول الشاعر :

هُمُ النَفَرُ البيضُ الَّذينَ وُجوهُهُم تَروقُ فَتَستَشفي بِها الأَعيُنُ الرُمدُ[2]

ألحق الشاعر اللون الأبيض بالممدوحين مكنيا عن طهرهم ونقائهم وإغاثتهم للملهوفين ، فبهم يزول الغي والبغي والمرض ، وتشفى النفس من جميع الأسقام .

ومنه قول ابن زيدون :

مَليكٌ لَهُ مِنّا النَصيحَةُ وَالهَوى وَمِنهُ الأَيادي البيضُ وَالنِعَمُ الخُضرُ[3]

وصف اليد بالبيضاء كناية عن الطهر وسعة الكرم ، وتحقق العدل ، وزوال الظلم ومثله قول ابن دراج :

سَما فاشْتَرى مَثنى الوزارةِ سابقاً بمثنى الأَيادِي البِيضِ والخُلُقُ النَّدْبِ[4]

وارتبط اللون الأبيض كذلك بالجمال ، وحسن العاقبة يقول الشاعر :

وجوهُ المُؤمنينَ لَها اِبيضاضٌ وَوَجهُ الكافِرينَ بِهِ اِسوِدادُ

حيث أضفى اللون الأبيض على الوجوه صفة الجمال ، وفي المقابل جاء اللون الأسود ليدلل على صفة القبح المضادة ، فاللون الأبيض يثير في النفس الشعور بالراحة والطمأنينة ،ما دام وصفا لوجوه المؤمنين ، مما يوحي بحسن العاقبة في الآخرة .

---

[1] عتيق ، علم البيان ، (ص 203) .

[2] ابن زيدون ، الديوان (ص62) .

[3] المرجع السابق ، ص84 .

[4] ابن دراج ، الديوان (ص97).

ومنه قول الشاعر :

وفي القُبَّةِ البَيْضاءِ بيضاءُ لو بَدَتْ لشَمْسِ الضُّحى يَوماً لحارَتْ عن القَصْدِ[1]

فقد دل اللون الأبيض على الجمال ، سواء في القصر أم في المحبوبة التي بداخله ، وبهذا أضحى اللون الأبيض كناية عن صفة الجمال ، فقد منها الشاعر بيان عفتها وطهارة عرضها ، فهي درة مصونة مخبأة .

ومن الكنايات البديعة في شعر الحروب والفتن ، وسم السيف باللون الأبيض ، وقد كثر هذا في أشعارهم ، فكان اللون الأبيض كناية عن موصوف وهو السيف ، يقول الشاعر :

مِن البيضِ حمْراءُ المَطارفِ والحُلى إذا طَلَعتْ حُلّتْ لطلعَتها الحُبى[2]

فقد كنى الشاعر عن السيف بالبيض ، ودل على ذلك إسقاطه للأوصاف المختلفة المتناغمة مع مهماته ، حيث هذه السيوف مكسوة بالأردية الحمراء ، والحلى اللامعة في كناية عن شدة فعلها في الاعداء وكثرة وقوع القتل فيهم .

جاء اللون الأبيض في كناية عن الأيام ، يشكو المعتمد بن العباد من الأيام وتقلباتها فيقول :

وَبيضٍ وَسُمرٍ فاعِلاتٌ بِمُهجَتي فِعال الصِفاح البيضِ وَالأسلِ السُمرِ[3]

فهو هنا يقصد بالبيض الأيام وبالسود الليالي والتي أوجعت قلبه ، بشدة تقلبها ، وهول ما وجده فيها ، بل إنها وازت في أفعالها ، ما تقوم به السيوف الباترة ، والرماح الطاعنة في مهجة الإنسان .

ارتبط اللون الأسود في شعر الحروب والفتن بالعديد من الدلالات الكنائية ، فقد دل على الشدائد والمصاعب ، يقول ابن حمديس :

---

(1)

(2) ابن الأبار ، الديوان (ص101).

(3) ابن الخطيب ، الديوان (ج1 / 398) .

كستني الخطوبُ السودُ بيضَ ذوائبٍ ففي خلّتي منها لدى البيض إخلالُ[1]

فطلاء الخطب باللون الأسود دل على عظيم المدلهمات التي مني بها الشاعر ، وقد ارتبط هذا اللون بالدلالة على شؤم الليالي السود ، وسوء العاقبة كما تبين سابقا .

وارتبط اللون الأسود عادة بالليالي ، إذ تكثر فيها الهموم ، ويظهر الشجون ، يقول ابن دراج القسطلي:

يَا أَيُّهَا القَمرانِ أَيْنَ سَناكُمَا عن مُطبِقٍ فِي ليلِ هَمٍّ أَسْوَدِ[2]

فقد وسم الليل بالسواد كناية عن الهموم المتتابعة التي تحضر للإنسان ، وتقيد حركته.

وفي الكناية عن الموصوف ، كني عن الرماح بالسمر ، يقول ابن خاتمة :

بحيثُ القِبابُ البِيضُ والسُّمْرُ والظُّبا سَماء وأنوارٌ يُشَمْنَ على البُعْدِ

فالسمر كناية عن الرماح ، والظبا كناية عن السيوف المشهورة ، والشاعر في هذا البيت ، يبكي على مدينته التي تميزت بالقلاع الحصينة ، والآلة الحربية المتينة .

كما كني باللون الأسود على التيه ، وعدم الوصول إلى المبتغى والمرتجى يقول ابن شهيد :

وكَيْفَ اهْتِدائي في الخُطُوبِ إذا دَجَت وقد فَقَدَتْ عَيْنَايَ ضَوْءَ نُجُومِي[3]

فالظلمة سبب بارز من أسباب التيه ، وعدم إبصار الطريق ، بحيث أصبح الشاعر كالأعمى الذي لا يدري أين يتجه ،خاصة عند فقده للأحباب الذين يعينونه ويمكنونه من تحقيق مراده .

وقد كني باللون الأسود على فساد القلب ، وقلة الدين ، يقول ابن هانئ :

هم صَيّرُوا خَدَماً تَسوسُ أمورَهم يا للزّمانِ السّوءِ كيْف تصرّفَا
من كلِّ مُسوَد الضّميرِ قد انطوَى للمسلمينَ على القِلى وتَلَفَّفا[1]

---

[1] ابن حمديس، الديوان (ص355).
[2] ابن دراج ، الديوان (ص72).
[3] ابن شهيد ، الديوان (ص 147) .

فالشاعر وسم الضمير باللون الأسود ، وذلك للدلالة على فساد عقيدته ودينه ، وقد جاء هذا في إطار الشكوى من حكام المسلمين ، الذين باعوا آخرتهم وأوطانهم بعرض من الدنيا ، فأجروا الصلح مع النصارى ، وأعانوهم على إخوانهم المسلمين .

وكما دل اللون الأبيض على البشارة والهناء ، قابله اللون الأسود للدلالة على الشقاء والتعب يقول ابن حمديس :

وساعاتُ الفَتى سُودٌ وبِيضٌ تُرَجِّلُ سُودَ لِمّتِهِ ببيضِ[2]

حيث ساهم اللون الأسود في الإشارة إلى الآلام والمتاعب التي مر بها المرء خلال ساعاته ، فهي كالشيب الأبيض الذي يتخلل الشعر الأسود وينبت فيه رويدا رويدا حتى يكسى الرأس بالبياض .

وقد حمل اللون الأسود الكناية عن الجمال ، وذلك إذا وسمت به العين ، يقول ابن سهل الأندلسي :

وَلَو كُلُّ حُسنٍ رَاقَ في كلّ مَوضِعٍ إذَن حَسَدَت سُودَ العُيُونِ المَكَاحِلُ[3]

وقد ارتبط اللون الأحمر في شعر الحروب والفتن بكنايات مختلفة حملت صفات القوة والكثرة ، والمرض ، غيرها .

فقد كني باللون الأحمر دلالة على المشقة الكبيرة التي حصلت للجيش المقاتل كما في قول ابن سناء الملك :

وخاض بِهم في البَّر بحراً من الرَّدَى طرائقُه سودٌ وأَمواجُه حُمْر[4]

---

[1] ابن هانئ، الديوان (ص203).

[2] ابن حمديس ، الديوان (ص295) .

[3] ابن سهل ، الديوان (ص 125).

[4] ابن سناء الملك، الديوان (ج2 / 149).

فكانت الأمواج الحمر دلالة على الأهوال التي ركبها الجيش ، حتى وصل إلى ساحة القتال ، وفي هذا الوصف كناية عن وعورة الطريق الذي سلكوه في البحر .

وفي دلالة كنائية أخرى للون الأحمر فقد دل اللون على الحزن الشديد والمرض يقول الشاعر الرصافي البلنسي :

تَكادُ عَلى التَتابُعِ وَهيَ حُمرٌ تَحَيَّرُ في مَحاجِرِيَ اِرتِيابا[1]

وظف الشاعر اللون الأحمر في الدلالة على الدموع الشديدة المتتابعة على فقدان الحبيب ، حتى أصاب هذه العين حمرة شديدة ، فدل ذلك على مرضها ، وشدة توجعها .

وقد كني عن صفة البياض والجمال باللون الأحمر كذلك ، حيث يطلق على الجنس الأبيض (الأحمر) ، ومنه قول النبي صلى الله عليه وسلم لعائشة (يا حميراء) ، وإلى هذا ذهب ابن الأبار حيث يقول :

إنَّما أَنْتُمْ لِيَحيَى المُرْتَضَى خَوَلٌ مِنْ أحْمر أوْ أسودِ[2]

فالحمر هم أصحاب البشرة البيضاء الجميلة ، والسود هم الزنوج والعبيد .

وقد ألبست الآلة الحربية رداء أحمرا ، في كناية عن كثرة وقوع القتلى بسببها ، فهي مطلية بالأحمر من دماء الأعداء يقول ابن الزقاق البلنسي :

في آلةٍ حمراء يخفق دونها بينَ الفوارس رايةٌ حمراءُ[3]

هناك انسجام في اختيار اللون الأحمر كلون للراية ولعدة الحرب ، وهذا الانسجام الكنائي جاء ليحقق معادلا موضوعيا يعني حتمية الانتصار في مقابل لزوم الهزيمة للأعداء .

---

[1] الرصافي البلنسي، الديوان (ص43) .

[2] ابن الأبار ، الديوان (ص 161).

[3] ابن الزقاق، الديوان (ص 3).

وتعلقت الدلالة الكنائية للون الأخضر بالنعيم والنماء وتوقع حصول الخير يقول لسان الدين بن الخطيب :

فأَغْصَانُهُ مُلْتَفَّةٌ مِنْ رِمَاحِهِ وَأَوْرَاقُهُ مُخْضَرَّةٌ مِنْ نِصَالِهِ [1]

حيث جاء اللون الأخضر المتكون من نصال السيوف كناية عن التيامن ، وتحقق النصر على يد الممدوح ، ما جعل المعركة ونتائجها رياضا خضراء ملفوفة تحيط بالمنتصرين .

ومنه قول ابن دراج :

وحُمْرَ الموتِ من خُضْرِ المَغَانِي وسُودَ البيدِ من بِيضِ المُلاءِ[2]

فوصف الشاعر الدور باللون الأخضر كناية عن تحقق العيش الرغيد ، والأمن والاطمئنان لسكانها .

وقد وصفت البحار باللون الأخضر تكنية عن ارتفاع أمواجها ، فإذا وصف الممدوح باللون الأخضر كان ذلك تكنية عن كرمه وعلو مكانته ، وإن وصفت عدة الحرب بالأخضر دل ذلك على كثرتها ، وهكذا دواليك .

ومن الأمثلة على سبيل الذكر لا الحصر قول ابن خفاجة :

وَمقامِ بَأسٍ في الكَرِيهَةِ قُمتُهُ فَسَبحتُ في بَحرِ الحَديدِ الأَخضَرِ[3]

فجاء اللون الأخضر ليكني عن كثرة السلاح المتساقط على رؤوس المقاتلين في ساحة القتال ، وقد كان الممدوح من أشد الناس بأسا ، إذ لم تخفه تلك الأسلحة ، بل مضى ليحقق النصر ، ومثاله أيضا قول ابن هانئ :

وجنَيْتُمُ ثَمَرَ الوقائعِ يانِعاً بالنصر من وَرَق الحديدِ الأخضَر[4] .

---

[1] ابن الخطيب ، الديوان (ج2 /485).

[2] ابن دراج ، الديوان (ص 121).

[3] ابن خفاجة، الديوان (ص 109).

[4] ابن هانئ ، الديوان (ص161).

فالوقائع أشجار يانعة ، تحمل ثمارا ناضجة بالنصر والتمكين ، وكان سبب تحقق هذا النصر هو الأسلحة الحربية الكثيرة ، التي تنهال على الأعداء بكثافة .

ومن الدلالات الكنائية للون الأزرق ارتباطه بالدلالة على الحراب ، حيث وصفت به لشدة لمعانها ، والدلالة على مضائها ، ومثال ذلك قول ابن الحداد الأندلسي :

وفي الكِلَّة الزَّرْقَاءِ مَكْلُوْءُ عَزَّةَ تَحِفُّ به زُرْقُ لعوالي الكَوَالئُ[1]

جاء اللون الأزرق في قوله (زرق العوالي) ليدل على الحراب المحيطة بفناء البيت .

وكني باللون الأزرق أيضا عن المرض يقول ابن الزقاق البلنسي:

فالبَس فؤادي وُقِيْتَ لوعَتَهُ فإنَّه أزرقٌ منَ الكمد[2]

فتحول اللون الأحمر إلى الأزرق في القلب دل على مرضه ، وسقمه ، وضح الشاعر ذلك ، بإيراده لسبب مرض القلب وهو الكمد والحسرة .

ومن الدلالات الكنائية للون الأزرق أنه رمز الصفاء يقول لسان الدين بن الخطيب :

تَتَزَاحَمُ الأَرْوَاحُ دُونَ وُرُودِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ نُطْفَةٌ زَرْقَاءُ[3]

فقد كني عن الماء الصافي بلفظة اللون الأزرق ، حيث يتزاحم الناس على وروده والشرب منه .

---

[1] ابن الحداد، الديوان (ص 143).

[2] ابن الزقاق ، الديوان (ص 81) .

[3] ابن الخطيب، الديوان (ج1 / 95)

رابعا : اللون وعلاقات التضاد

شاع التضاد كثيرا في الشعر ، فبه تتضح الفكرة وتبرز ، ويزداد شعور المتلقي لها ، " لأن الحالين المتضادتين إذا تتالتا أو اجتمعا معا في نفس المدرك كان شعوره بهما أتم وأوضح "[1] ، وبهذا أضحى شرط الضدين أن يكونا " من جنس واحد كالبياض والسواد فإنهما يجتمعان في اللونية ، وإذا كان النوعان المتعادلان لا يختلفان إلا في صفة واحدة موجودة في أحدهما معدومة في الآخر ، كان التضاد بينهما تاما كاللونين المتكاملين ، فإنه كلما كان أحدهما إلى أخيه أقرب كان التضاد بينهما أعظم " [2] ، وقد لجأ الشعراء الأندلسيون إلى استعمال التضاد اللوني ما أدى إلى إظهار جماليات الصورة الفنية ، وقدرتها على التعبير عن المكنون الداخلي النفسي للشاعر.

أولا: التضاد بين الأبيض والأسود

أخذ البياض صفة الكرم والجود وقابله السواد ليأخذ صفة البخل والشح كما في قول ابن الزقاق البلنسي :

بِيضٌ إِذَا اسْوَدَّ الزَّمَانُ وريبَه كشَفُوا حَنَادِسَهُ بِبِيْضِ الأَنْعُم [3]

فالممدوحون بيض لأنهم معروفون بالجود والكرم والفضل عند إجداب الزمان ، وشحه حيث رمز إليه الشاعر بلفظة (حندس) والتي تعني الظلمة الشديدة ، فهم معروفون بالنعم البيضاء التي تغيث الناس وتبيض أيامهم وتجلو عنهم قتامة شظف العيش .

ومن التقابلات اللونية الأخرى قول أحمد بن أبي القسم الأندلسي ، الذي أعطى التضاد اللوني قيمة معنوية فنية ، فالممدوح الذي يمثل صورة قمرية جلا بطلعته على الدنيا ظلمات المصائب والأهوال ، حيث أشرقت الدنيا بالنضارة والسعد ، مضيفا إليه صفات المهابة والوقار والشمائل الحسنة يقول :

---

[1] صليبا : المعجم الفلسفي (ج1/ 285) .

[2] المرجع السابق (ج1 / 285) .

[3] **ابن الزقاق ، الديوان (ص).**

قَمَرٌ جَلَا ظُلْمَ الخُطُوبِ ضِيَاؤُه عنَّا وَبَدر كَامِلُ الإِجْلَالِ .

وعلى نحو هذه الصورة يقول ابن خفاجة :

وَسَرَى فَجَلَّى لَيْلَ كُلِّ مُلِمَّةٍ قَمَرُ العَلَاءِ وَأَنْجُمَ الآرَاءِ [1]

يبث الشاعر عنصر التشويق الجميل ، فقد أخبر عن ممدوحه الذي يسري كالطيف ليزيل حجاب ظلم الفقر والحياة القاسية ، كأنه قمر أو نحم متلألئ يكشف عتمة الليل .

ويلجأ ابن عبد ربه الاندلسي ليكشف صورة تضادية لونية مزركشة بالتشبيه فيقول :

بِجَحفَلٍ تُشْرِق الأَرْضُ الفَضَاء بِهِ كالبَحْرِ يَقْذِفُ بالأَمْوَاجِ أَمْوَاجَا
يَقُوُدهُ البَدْر يَسْرِيْ فِيْ كَواكِبِه عَرَمْرَمَا كَسَوَادِ اللَّيْلِ رجْرَاجَا[2]

يظهر هذا التضاد الخفي من خلال قوله (تشرق الأرض) وقوله (يقذف بالأمواج أمواجا) فإشراق الأرض حمل معنى الضياء ، وتوالي الأمواج يحمل معنى ظلمة القيعان المخيفة ، وقد كانت الدلالة التضادية حاضرة وهي أن هذا الجيش أزال الظلام عن الأرض بقدومه ، فهو جيش قوي مضطرب اضطراب الموج دائم الاستعداد للقتال .

ويستخدم ابن دراج القسطلي الصبح في إشارة على الفروسية والبطولة يقول :

إِذَا انْشَقَّ ليلٌ الحَرْبِ عن صُبْحِ وَجْهِهِ فَقَد آنَ مِنْ يَوْمِ الضلَالِ أَصِيْلُ [3]

يجمع الشاعر بين الليل والصباح ، وقد أراد بليل الحرب ذلك العجاج والغبار المثار من شدة العراك ، لكنه يستدعي البطل ، فبوجوده في ميدان القتال تزال الظلمة ، وتتكشف الحجب السوداء ، وإن كان النهار في وقتل الأصيل .

وقد عبر الشعراء عن النصر بالنور الذي أزال ظلم الكفر والإلحاد يقول ابن عبد ربه في تضاد لوني جميل :

---

[1] ابن خفاجة ، الديوان (ص 40).
[2] ابن عبد ربه ، الديوان (ص 36) .
[3] ابن دراج ، الديوان (ص 6).

هَذِي الفُتُوحَاتُ الَّتي أَذْكَت لَنَا فِيْ ظُلمَة الآفَاْقِ نُور سِرَاج [1]

فالنصر يتجلى ليظهر النور من خلال تلك الفتوحات التي عزم الممدوح على تحقيقها ، فتمكن من ذلك ، حيث أزيلت ظلمة الضلال واليأس ، وحلت محلها إشراقة الصباح ونوره .

ويصف لسان الدين بن الخطيب وجوه الفرسان في ظلمة الحرب الحالكة في تضاد لوني بين الإضاءة والظلمة فيقول :

تُضِيء أَوجُهَهَا وَالحَرْبُ كَالِحَة قَدْ شَابَ مَفْرَقُهَا بالنَّقْعِ واكتَهَلَا [2]

فإن وجوه الفرسان قد أنارت استبشارا بالنصر وفرحا به ، في مقابل لوني يشير إلى اسوداد الخطب والحرب ، ويرى ذلك في وجوه فرسان الأعداء ، فالغبار غطى وجوههم في إشارة إلى بياض الشيب المنذر الهلاك ،وقد جاء هذا التضاد مختلطا بالتشبيه المعنوي لإثبات بطولة الفرسان وشدة بأسهم في المعركة .

وقد وسمت الآلة الحربية بالشهاب ، وذلك لغرضين اولهما إثبات مضائها ، وثانيهما إثبات دقة إصابتها فهي لا تخطئ إصابة مقاتل الأعداء ، يقول ابن عبد ربه :

بِكُلِّ رَدِيْنِيّ كَأَنَّ سِنَانَه شِهَابٌ بَدَا فِي ظُلْمةِ اللَّيْلِ سَاطِع [3]

فالرماح شهب تضيء ظلمة الليل ، وظلمة جنود الأعداء ، حيث يخترق أجسادهم ، وقد جاء التضاد اللوني بين الشهاب المنير وبين ظلمة الليل ، ليدلل على معنى الهزيمة في نفوس الأعداء ، وحصول الفرار من شدة الخوف ، إذ الرماح تتجول بينهم كاشفة الظلمة .

وأشار لون الغرة الأبيض إلى العزة وتحقق النصر ففي مقابل لوني يقول ابن دراج القسطلي :

إِذَا افْتَرَّت الرَّايَات عنْ غُرَّتَيْهِما فيَا للعِدَا أضْللتِ منْهُمْ فِرَارَك [4]

---

[1] ابن عبد ربه ، الديوان (ص 42) .

[2] ابن الخطيب ، الديوان (ج2 / 766).

[3] ابن عبد ربه ، الديوان (ص 105) .

[4] ابن دراج ، الديوان (ص 87) .

فافترار الرايات كناية عن النصر ،وقد اسند هذا الحدث الكبير إلى غرتي الممدوحين ، حيث تولى الأعداء فارين لا يدرون أين يذهبون حتى ضلوا الطريق .

جاء هذا التضاد معنويا ، ليعمق فهم الصورة الفنية من بعدها الجمالي ، مؤكدا على معان خاصة بشعر الوصف الحربي .

ثانيا: التضاد بين الأسود والألوان الأخرى

أجرى الشعراء تضادا لونيا بين اللون الأسود وغيره من الألوان الأخرى ، فمن ذلك قول ابن الزقاق البلنسي في ممدوحه :

فكأن حبركَ أحمرٌ لا أسودٌ ويراعُ كفِّكَ أسمرٌ لا أصفر[1]

يجري الشاعر التضاد اللوني ، حيث انتقلت اليد من كونها بيضاء لامعة ، كريمة تعطي ، مسامحة ، رحيمة للمؤمنين ، إلى حاملة للحراب والرماح تقاتل الأعداء بشدة وبغلظة ، فتحولت الدلالة اللونية التي وسمت بها اليد من الرحمة إلى الشدة والغلظة ، كل في بابه .

ويقابل ابن خفاجة بين اللونين الأسود والأزرق فيقول :

مَلَأوا ضُلوعَ اللَيلِ زُرقَ أَسِنَّةٍ سالَت عَلى أَعطافِهِ أَوضاحا[2]

فالأسنة الزرقاء اللامعة ، برزت في وسط عتمة الليل ، فأزالتها وكشفت ظلمتها ، وتبدل الخوف أمنا ، والسواد نورا .

ثالثا: التضاد بين الأحمر والألوان الأخرى

ويأتي تشاكل اللونين الأحمر والأبيض في تضاد لوني جميل ، يصف لقطة من مشاهد الإبادة للأعداء يقول ابن حيوس :

وَقَد بَيَّضَ النَقعُ حُمرَ الجِيادِ وَقَد حَمَّرَ الطَعنُ بيضَ العَذَب[3]

---

[1] ابن الزقاق ، الديوان (ص 100) .

[2] ابن خفاجة ، الديوان (ص 68).

[3] ابن حيوس ، الديوان (ج1 / 68).

يأتي اللون الأحمر ليحمل معنى الكدر الذي يعكر صفو المياه العذبة النقية ، لقد صبغت تلك المياه باللون الأحمر الناشئ عن دماء الأعداء المتساقطة جراء الطعان .

وفي تضاد لوني آخر بين اللونين يقول ابن خفاجة :

فَيَجمَعُ بَينَ الماء أَبيَضَ سَلسَلاً يَسُحُّ وَبَينَ الجَمرِ أَحمَرَ حامِيا[1]

فوجه ممدوحه أبيض صاف ، لكنه يتحول إلى اللون الأحمر إن ثار غضبا لدينه ، وعند لقاء عدوه ، فدل اللون الأبيض على الهدوء واللطف ، بينما دل اللون الأحمر على الغضب والشدة.

ويجري ابن حمديس تضادا لونيا آخر بين الأحمر والأبيض فيقول :

ذو يدٍ حَمراء مِن قَتلِهِمُ وهيَ عِندَ اللَّه بَيضاءُ اليَدِ[2]

صبغت يد الممدوح باللون الأحمر ، جراء قتاله لليهود والنصاري وإذلالهم ، لكنها بيضاء نقية طاهرة عند الله تعالى .

فظاهر البيت أن القتل جريمة كبيرة تلطخ الإنسان بآثامه ، غير أن اليد التي تقتل الأعداء من اليهود والنصارى لا تزال طاهرة بعيدة عن التلوث بالوزر، بل تأخذ الأجر والمكانة العليا في الدنيا والآخرة.

وفي تضاد لوني آخر يقابل ابن سهل الأندلسي بين اللونين الأحمر والأخضر ، فالأحمر رمز إلى الموت ، بينما رمز اللون الأخضر إلى الحياة يقول :

أَلبَستَهُ طَوقَ المَنِيَّةِ أَحمَراً فَكَسَوتَنا التَأمينَ أَخضَرَ مُخصِبا[3]

وإلى مثل هذا المعنى ذهب ابن دراج حيث يقول :

---

[1] ابن خفاجة، الديوان (ص 241).

[2] ابن دراج ، الديوان (ص138).

[3] ابن سهل ، الديوان (ص 27).

وحُمْرَ الموتِ من خُضْرِ المَغَانِي وسُودَ البيدِ من بِيضِ المُلاءِ[1]

يعقد الشاعر تضادا لونيا جميلا ، ليعبر عن فكرته بوضوح ضمن مفهوم التحولات الناتجة عن انقلاب الأحوال وتبدلها ، فدل اللون الأحمر على الموت ومفارقة لذات الحياة وهنائها ، ودل اللون الأخضر على طيب العيش في المساكن .

رابعا: التضاد بين الأصفر والألوان الأخرى

يجري ابن حيوس مقابلة لونية أخرى بين الأصفر والأخضر حيث يقول :

وَنَبتُ الوِهادِ كانَ قَبلَكَ ذاوِياً فَلَمّا أَتَيتَ اِخضَرَّ ما تُنبِتُ الرُبا[2]

يهيئ الشاعر لمعنى البشارة بقدوم الممدوح ، فالدنيا مخضرة خصبة نامية ، فهي فرحة بالممدوح ، مطمئنة له ، وقد أتي بمفارقة لطيفة تحاكي ما كان من سوء الحال قبل مجيئه ، فالزروع في الوهاد صفراء مهشمة ذاوية ، وبهذا كان التضاد اللوني وسيلة ناجحة في التعبير عن مكنونات الشاعر الداخلية ، وترصد مشاعره بطريقة مباشرة .

ويقابل ابن خفاجة بين اللونين الأبيض والأصفر حيث دل الأبيض على الطمأنينة بينما دل الأصفر على الخوف يقول :

تَرى بَني الأَصفَرِ البيضَ الوُجوهِ بِهِ قَد راعَها السَيفُ فَاِصفَرَّت بِهِ وَجَلا[3]

وقد أسهم هذا التضاد اللوني في توضيح نفسيات الأعداء المرهقة ، والتي أصابها الذعر والوجل جراء قتال المسلمين .

وفي ختام المبحث فقد تشكلت الصورة الحسية من خلال توظيف الشعراء لأدوات الدراسة البلاغية المختلفة ، وقد كان للون دور بارز في هذا الجانب التشكيلي .

فعلى صعيد التشبيه ظهر لكل لون من الألوان الأساسية دلالة تشبيهية مختلفة ، أسهمت بصورة كبيرة في إظهار المعنى المخبوء الذي قصده الشاعر .

---

[1] ابن دراج، الديوان (ص 121).

[2] ابن حيوس، الديوان (ج1، ص106) .

[3] ابن خفاجة ، الديوان (ص 193) .

أما في مجال الاستعارة فقد حرص الشعراء على استعمال الاستعارات المكنية ، مع ندرة في استعمال الاستعارات التصريحية المتعلقة باللون ، وقد أضفت تلك الاستعارات جوانب الصورة الفنية من خلال الدلالة الاستعارية للألوان المختلفة ، ومن اللافت أن الاستعارات المستخدمة في شعر الحروب والفتن كانت مرتبطة بالحواس ، ما يسر على المتلقي فهمها ، والإحساس بها.

وتميزت الألوان بالدلالات الكنائية الكثيرة ، فبإضافة اللون إلى اللفظة تشكلت الصور الكنائية المختلفة ، والتي أرست معالم المعاني المختلفة في أذهان القراء .

أما التضاد اللوني فقد تحقق من خلال إجراء علاقات متضادة بين الألوان المختلفة ، ساهمت هذه العلاقات في توضيح الأفكار والمفاهيم وإبرازها .

المبحث الثاني : الصورة الشعرية (التجريدية) في شعر الحروب والفتن في الأندلس

التجريد هو الانتقال من الظاهر إلى الباطن أو المعنوي، لذا فقد لجأ الأدباء إلى ترجمة أحاسيسهم وانفعالاتهم ، عن طريق رسم صورهم الفنية لتقوم على تبادل المدركات ، ما أسهم بانشغال المتلقي بها ، وإمعان التفكير فيها ، وفي انشغال القارئ بالصورة وأجزائها حياة للنص، عندها يتولد لديه حب المغامرة للوصول إلى المعنى[1] ، فالشعر " يعتمد على شعور الشاعر بنفسه و بما حوله، شعرا يتجاوب هو معه، فيندفع إلى الكشف فنيا عن خبايا النفس أو الكون استجابة لهذا الشعور، و في لغة هي الصور"[2].

هذا النوع من الصور يعد أحد سمات الاستعارة التي تحدث تبادلا بين المجردات والمحسوسات، والتي قال فيها الجرجاني: "إذا شئت أرتك المعاني اللطيفة التي من خبايا العقل، وكأنها قد جسدت حتى رأتها العيون، وإن شئت لطفت الأوصاف الجسمانية حتى تعود روحانية لا تنالها إلا الظنون" (3).

كما إن هذا النوع من الدراسة يعتمد على الإدراك الحسي الذي " يتضمن أمورا فوق مجرد الإحساس، فهو يشمل آلافا من الذكريات التي تنضاف إلى المحسوس الخاص لتكمله، ولتضبط معناه، فالإحساس مضافا إليه ما يتمثل في الذهن من المعاني المتعلقة به، هو ما يكون الإدراك الحسي" (4).

وبتفعيل أكثر من صورة حسية تتشكل الصورة المركبة :" وهي عبارة عن صورة تتكون في حقيقتها من تظافر مجموعة من الصور الحسية المفردة، وهي في الغالب تجمع ما بين صورتين حسيتين مختلفتين فأكثر[5] ، أو " هي الصورة المؤلفة من توالي عدة صور في هيأة

---

[1] ينظر: بن مزغنة، الصورة الفنية في شعر عز الدين ميهوبي (ص 85) .

[2] هلال ، النقد الأدبي الحديث (ص 377) .

[3] الجرجاني ، أسرار البلاغة (ص36).

[4] جابر عصفور ، الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي (ص 373).

[5] زكري : الصورة الحسية في شعر عيسى لحيلح (ص 64) .

متناسقة تكوِّن كلاّ غير منفصل بحيث لو أسقطت بعض هذه الصور لم يكتمل بناء الصورة فنيا ولا دلاليا" [1] .

ولهذا السبب كان اهتمام النقاد المحدثين بهذا النوع من الصورة في دراساتهم ، إذ يرتبط هذا النوع بدراسة وظائف الشعر ، وجوهره ، في حين أن الدراسات القديمة في إطار علوم البيان البلاغية تدرس الصورة بعديا عن المستوى الدلالي للنص ، وتركز على فهم وظائف الصورة من الناحية الشكلية التزيينية [2] .

وبعد أن يسر الله لنا دراسة الصورة الحسية القائمة على المفردات البلاغية المختلفة في المبحث السابق ، نتناول في هذا الفصل الصورة التجريدية المركبة ، لتكتمل زوايا البحث في الصورة الشعرية وتشكيلاتها في البحث .

---

[1] فياض : الصورة المفردة والمركبة في سورة الواقعة (ص 335) .

[2] ينظر : قدح ، الصورة الشعرية عند المعتمد بن عباد (ص 43) .

أنواع الصورة المركبة في شعر الحروب والفتن

لجأ الشعراء الأندلسيون إلى استخدام تبادل المدركات الحسية في أشعارهم ؛ ليصلوا بالتعبير إلى أعلى درجاته ، وقد لعب اللون دوراً مهما في تحقيق هذا الهدف لذا سندرس في هذا المبحث علاقات اللون بالتجسيد والتجسيم والحركة .

أولا: اللون والتجسيد

يقوم المبدع بمنح المجرد جسما يمكن إدراكه بالحواس[1] ، بحيث تمنح المجردات شيئِيَّات الذوات، ويتخذ التجسيد في شعر الحروب والفتن أكثر من ولن فهو يبدأ من تجسيد المحسوس ، ويرتقي تباعا إلى تجسيد المعنويات .

فمن تجسيد المحسوسات قول المعتمد بن عباد في وصف تحول رمحه إلى قيد أسود يلف رجليه ، يعضه كأنه أسد ضار :

تبدلت من عز ظل البنود بذل الحديد ، وثقل القيود
وكان حديدي سنانا ذليقا وعضبا رقيقا صقيل الحديد

فقد صار ذاك وذا أدهما يعض بساقي عض الأسود[2]

ففي البيت الأخير يتحول الرمح إلى قيد أدهم اللون ، في إشارة إلى عظيم الخطب الذي حصل من وقوعه بالأسر ، حيث ضاقت به الحياة ، فكأنه الأسود تنهش لحمه بلا رأفة أو رحمة ، ويبقى هذا التجسيد حاضرا في ذهن المعتمد حين يخاطب أهل أغمات الذين انفك عنهم القيد ، وخرجوا من السجن فيما بقي هو وحيدا أسيرا فيقول:

تَخَلَّصتُم مِنْ سِجْنِ أغْمَاتَ وَالْتَوَتْ علَيَّ قُيُودٌ لَمْ يَحِنْ فِكَاكَهَا بَعْدُ

مِنَ الدُّهْمِ أَمَّا خلقها فَأَسَاوِدٌ تَلْوى ، وَأَمَّا الأَيْدِ والبَطْشُ فالأُسْدُ [3]

ومنه تجسيد ظلمة الليل بالثوب يقول ابن الزقاق البلنسي :

---

[1] ينظر : غنيم : عصر الدول والإمارات الثاني (ص 41).

[2] ابن عباد: المعتمد، الديوان (ص 94).

[3] ابن عباد: المعتمد، الديوان (115) .

في ليلةٍ ليلاءَ تلبسُ من دجى ظلمائها ثوبَ الثكولِ بمأتم[1]

أطلق الشاعر عل الليلة صفة (ليلاء) لزيادة التأكيد على معاني شدة اسودادها ، فهي حالكة بما مر فيها من مصائب متدافعة ، ولأجل هذا يلبسها ثوباً من أثواب الحداد السود ، التي تشير إلى المأتم .

ومنه قول ابن اللبانة :

ومزق ثَوْبَ البَرْقِ واكتَسَت الدُّجَى حِدَاداً وَقَامَتْ أنْجُمَ اللَّيْلِ مَأْتَمَا[2]

فالبرق اللامع يكتسي ثوبا ممزقا ، وأظلمت الدنيا ، فالنجوم أقامت المآتم ، والليالي اكتست بالثياب السود ، وبهذا يكشف لنا التجسيم خلجات الشاعر ، ونفسيته اليائسة الحزينة .

ومن التجسيم ما يتعلق بتجسيم المعنى المجرد ، يصور ابن سهل الأندلسي معاناة الأندلس ، حيث ناشد العرب أن يهبوا لنجدتها وإنقاذها ، مستخدما التجسيد والتجسيم ، فيقول :

أنتم أحق بنصر دين نبيكم وبكم تمهد في قديم الأعصر
أنتم بنيتهم ركنه فلتدعموا ذاك البناء بكل ألعس أسمر
أضحى الهدى يشكو الظما و لأنتم ظلّ ورى كالربيع الممطر

الدين ناداكم وفوق سروجكم غوث الصّريخ وبغية المستنصر
لم يبق للإسلام غير بقية قد وطنت للحادث المتنكّر
و الكفر ممتدّ المطالع والهدى متمسّك بذناب عيش أغير
لو صور الإسلام شخصا جاءكم عمدا بنفس الوامق المتحير
لو أنه نادى لنصر خصّكم ودعاكم يا أسرتي يا عشري[3]

فالشاعر يرسم مجموعة من الاستعارات التي ساعدته على تنويع الألوان المعتمدة فيها، بين التجسيد والتجسيم، الذي يسعى عن طريقهما إلى ايصال المعنى المجرد مرتبة الإنسان في قدرته واقتداره.

---

[1] ابن الزقاق ، الديوان (ص 197) .

[2] ابن اللبانة ، الديوان (ص 122).

[3] ابن سهل الأندلسي ، الديوان (ص 142).

وهذه الطريقة مكنت الشاعر من تصوير الإسلام الذي هو عقيدة ، وفكرة مجردة مستقلةّ بذاتها ، ليحوله إلى واقع ذاتي ، يبثّ من خلال مشاعره ومشاعر كلّ الأندلسيين معه .

فالتجسيد يتمثل في كونه جعل الإسلام بناء ، وبناته هم العرب ، ثمّ في كونه جعل الهدى يظمأ ويشكو العطش .

أما التجسيم ففي كونه جعل الهدى متمسكا بذناب عيش أغبر فقد نقل شيئا مجردا وجعله في مرتبة الإنسان القادر وحده على التمسك ، ثم إنه جعل الإسلام شخصا يمشي ، فبثّ فيه القدرة والاستطاعة على الحركة.

وليس بعيدا عن هذا ، ما ورد عند لسان الدين بن الخطيب الذي صور معاناة الإسلام فقال مستصرخاً:

إِخْوَانَنا لَا تَنْسَوا الفَضْلَ والعَطْفَا فَقَدْ كَادَ نُوْرُ اللهِ بالكَفِّ أنْ يُطْفَا
وإِذْ بَلَغَ السَّيل الزُّبَى فَتَدَارَكُوا فَقَدْ بَسَطَ الدِّين الحَنِيْفُ لَكُمْ كَفَّا
فَقوموا بِنَصْرِ الحَقِّ فينَا فقَدْ عفَا وهُبُّوا لِنَصْرِ الدّين فيْنَا فَقَدْ أَشْفَا[1]

فهذا الإسلام الذي هو نور الله تعالى برز في صورة الإنسان الذي يمد كفه طالبا النصرة ، والمدافعة عنه ، إذ هو بحاجة ماسة إلى أبنائه المجاهدين ، وعن طريق التجسيم نجح الشاعر في التعبير عن مشاعر الأندلسيين الذاتية ، إذ تمكن من الموازنة بين الإسلام كحد موضوعي ، وبين الذاتية الخاصة كشعور وإحساس .

ويجسد المعتمد بن عباد المجد بصورة الشمس ، فهي لا تغطى بغربال كما يقولون ، وهذا حال أمجاد بني عباد ، حتى في ظل سقوط دولتهم فيقول :

مَجدُنَا الشَّمسُ سَنَاءً وَسَنَا مَن يَرْمِ سَتْر سنَاهَا لَمْ يَطِق
أيُّهَا النَّاعِي إِلَيْنا مَجْدَنَا هَلْ يَضِيْر المجد أَنْ خَطْبٌ طَرَقْ [2]

---

[1] ابن الخطيب : الديوان (ج2 / 677).

[2] ابن عباد: المعتمد، الديوان (ص109) .

بل إنه يلجأ تارة أخرى لتجسيد المعنويات ، فالمجد إنسان يتحقق له الموت والحياة كما في قوله (أيها الناعي إلينا مجدنا) .

كان اللون غير المباشر المتمثل في (الشمس) هو لب الصورة ، فالشاعر يرغب في التعبير عن اعتزازه بمجد آبائه وأجداده ، مشيرا إلى أنه بلغ صيته في الآفاق ، فلا أحد يستطيع أن يوقفه ، أو ينكره ، كما الشمس تنشر نورها فلا يقدر أحد أن يمنعها في الإشراق وطمس الظلمات .

ومن التجسيد قيام الشعراء بتصوير العواف الإنسانية ، وإبرازها حسيا ؛ لتبقى في النفوس ويقوى تأثيرها ، من ذلك قول ابن دراج القسطلي :

عَمْرِي لقدْ أَعْذَرَ الدمعُ الَّذِي وَكَفا أَوِ اشْتَفَى من تبارِيحِ الأَسَى وشَفَى
وَمَا غَناءُ دُموعِ العَيْنِ عن كَبِدٍ حَرَّى ونِضْوٍ يُقاسِي الليلَ مُلْتَهِفا[1]

ففي البيت الثاني يجسد الشاعر حزنه الشديد بالنار الحرى التي تجتاح جسمه فتأكله ، وقد اختار موطن الكبد مجازاً للدلالة على الكل .

وقد أسهم اللون في تحقيق التجسيد من خلال دلالة (الليل) المرتبطة بمعاني الحزن الشديد .

ومنه قول ابن حمديس :

عِندي عَلَيك منَ البُكاءِ بِحَسْرَةٍ ماءٌ لِنارِ الحزنِ ذو إيقادِ[2]

إن مشاعر الحزن على فراق ابن عباد عند الشاعر برزت في صورة النار المستعرة ، التي لا تقف عند حد ، فالحسرة باقية في القلوب لا يمكن أن تنتزع ؛ لذا يمكن القول بأن

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص 451).
[2] ابن حمديس ، الديوان (ص 123).

التجسيد ، يمنح الأشياء المحسوسة ، والمعاني المجردة ، والعواطف الإنسانية حياة نابضة بالحركة ، لتصبح الصورة أكثر تأثيرا في المتلقي .

ثانيا : اللون والتشخيص

يغاير التشخيص التجسيد في كونه يمنح الأشياء المادية ، والتصورات العقلية المجردة ، صفات الإنسان العاقل [1] ، وبهذا يهب الشعراء لهذه الأشياء كلها عواطف بشرية ، وخلجات إنسانية ، وتتشارك فيها مع الآدميين .

ويظهر التشخيص في " الصورة فيما يخلعه الشاعر على عينياتها من حركة وحياة وصفات ومشاعر إنسانية ، تمثل الطبيعة تمثيلا دقيقا ، وتجعلها ماثلة أمام حس المتلقي كأنه يراها ، فتجسد المدركات المعنوية ، وتشخص المعاني المجردة ، وتحيل كلا منها إلى عناصر حية في التجربة ، تحمل أحاسيس الشاعر ، وتتلون بعاطفته الخاصة ، كما تؤثر في نفس المتلقي وتثير انفعاله "[2].

وقد تبدت ظواهر التشخيص في شعر الحروب والفتن بصورة مكثفة ، حتى أضحت شائعة فيها ، وتتجلى هذه الصورة في حركية المجردات ، بحيث تصبح القطعة الشعرية لوحة فنية مفعمة بالنشاط والحيوية .

شخص الشعراء الدهر ، وردوا إليه صور الجور ، والظلم ، والسلب ، والتبدل، والتغير ، والتقلب وغيرها ، وهي طباع بشرية شخصانية ، من ذلك قول ابن الأبار :

إمارَةٌ يَحْمِلُ المِقْدَارُ رايَتَها ودَوْلَةٌ عِزُّها يَسْتَصْحِبُ القَعَسا
يُبْدِي النَّهَارُ بِها مِنْ ضَوْئِهِ شَنَباً ويُطْلِعُ الليلُ مِنْ ظَلْمَائِهِ لَعَسا
ماضِي العَزيمَةِ والأَيَّامُ قَدْ نَكَلَتْ طَلْقُ المُحَيَّا ووَجْهُ الدَّهْرِ قَدْ عَبَسا
كَأَنَّهُ البَدْرُ والعَلياءُ هالَتُهُ تَحُفُّ مِن حَولِهِ شُهْبُ القَنَا حَرَسا[3]

يشخص الشاعر الدهر ، ويلبسه وجه الآدمي العابس ، فينجح في إكساب الدهر صفات العبوس ، والقنوط ، في مقابل وجه الممدوح الذي لا يعرف سوى الطلاقة والفرح.

---

[1] ينظر: غنيم ، عصر الدول والإمارات الثاني (ص 39) .
[2] نجا : قصيدة المديح – قضاياها الموضوعية والفنية (ص 223) .
[3] ابن الأبار ، الديوان (ص 410) .

هذا التشخيص أعطى الدهر سمات الإنسان ، فهو يشعر ، ويحس ، وقد جاءت لفظة (عبسا) لتؤكد على نظرة الشاعر القاسية للدهر ، فهي نظرة سوداوية ، فهم ذلك من التضاد اللوني في البيت السابق ، فالنهار والليل اشتركا في الإضاءة والإشراق لوجود وجه الممدوح ، وبهذا نجحت تقانة التشخيص في تفعيل الحاسة البصرية ،للكشف عن الراحة النفسية التي صاحبت الشاعر .

كما شخصوا المجردات كالإيمان والحب ، والحزن ، إضافة إلى تشخيص الجوامد كالقصور ،والقلاع ، والحصون ، والمساجد وغيرها يقول أبي البقاء الرندي :

وَهَذِهِ الدارُ لا تُبقي عَلى أَحَدٍ ... وَلا يَدُومُ عَلى حالٍ لَها شانُ
يُمَزِّقُ الدَهرُ حَتماً كُلَّ سابِغَةٍ ... إِذا نَبَت مَشرَفِيّات وَخرصانُ

تَبكِي الحَنيفِيَّةُ البَيضَاءُ مِن أَسَفٍ ... كَما بَكى لِفِراقِ الإلفِ هَيمَانُ
عَلى دِيارٍ منَ الإِسلامِ خالِيَةٍ ... قَد أَقفَرَت وَلَها بالكُفرِ عُمرانُ
حَتّى المَحاريبُ تَبكي وَهيَ جامِدَةٌ ... حَتّى المَنابِرُ تَبكي وَهيَ عيدَانُ
يا أَيُّها المَلكُ البَيضاءُ رايَتُهُ ... أَدرِك بِسَيفِكَ أَهلَ الكُفرِ لا كانوا

يا راكِبينَ عِتاق الخَيلِ ضامِرَةً ... كَأَنَّها في مَجالِ السَبقِ عقبانُ

وَحامِلينَ سُيُوفَ الهِندِ مُرهَفَةً ... كَأَنَّها في ظَلامِ النَقعِ نيرَانُ[1]

إن المقطوعة مليئة بالتشخيص فالدهر يمزق، والحنيفية البيضاء تبكي، والمحاريب تنوح، والمنابر ترثي .

تلك الأشياء المعنوية والجامدة أضفى عليها الشاعر حيوية فائقة ، من خلال منحها صفات الإنسان ، فاستطاع من خلال تقانة التشخيص أن يعبر عن حقيقة مشاعره الذاتية والتي هي في الحقيقة مشاعر كل أندلسي ؛ فكان التصوير مليئا بالألوان التي تستدعي من المتلقي استخدام الذهن للوصول إلى كنه هذه الصور المعبرة بحق وبعمق عن الدهر ومصائبه،

---

[1] المقري ، نفح الطيب (ج6 / 232).

وكيف أثر ذلك على البلاد والعباد والمعتقد ، فحتى الجوامد تشارك الحنيفية في هذا المصاب الجلل ، بالتأثر الفاجع وبأصوات البكاء والندب .

كما مزج ابن زيدون مزجا فنيا بديعا بين الحواس ، فأتى بأكثر من حاسة في الصورة الواحدة مما زاد من ثراء التصوير ، مثل ذلك قوله :

غَدَا بِخَمِيْسٍ يَقْسِمُ الغَيْمَ أنَّه لأَحفَل منْهُ – مُكْفَهِرَا– وَأَكْثَفُ
هو الغيْمُ منْ زُرْقِ الأَسِنَّةِ بَرْقُهُ وللبَطَلِ رعْدٌ فِيْ نوَاحِيْهِ يَقْصِفُ [1].

إن جيش الأمير مثل السحاب المتراكم ، تبرق فيه أسنة الرماح الزرقاء ، وتدوي الطبول في نواحيه مثل الرعد القاصف ، وقد جمع ابن زيدون في هذه المقطوعة الشعرية اثنتين من الحواس هي: الحاسة البصرية المتمثلة في الغيم ، المتمثلة في الرماح الزرقاء ، والسمعية التي جعلت طبول الجيش مثل الرعد ، وبهذا شغل أكثر من حاسة في استقبال هذه الصورة المعبرة .

وقد جاءت الدلالة اللونية لتسهم بصورة أساسية في اكتمال عنصر التشخيص ، فالغيم كسي اللون الأزرق (من خلال تشبيه الغيم بالأسنة الزرقاء) الذي يدل على قرب وقوع المطر ، واستبشار الدنيا به ألبس صفة الكلام الآدمية ، حيث عبر الغيم عن مشاعره تجاه الممدوح بصدور القسم المنبئ عن خلجات الشاعر ذاتها .

ومن تشخيص ظواهر الطبيعة أيضاً قول ابن دراج مصورا غربته :

ومَغْرِبٍ تبكِي السَّمَاءُ لشَجْوِهِ منِّي وَتَلْهَفُ النُّجُومُ لِلَهْفِهِ [2]

يمنح الشاعر السماء روح الإنسان المفكر . الباكي حزنا لرحيل الغائب ، ويشخص النجوم التي تشتاق وتتلهف لرؤية ذلك المغترب .

وهو في هذه الصورة أجرى أحكام من يعقل ويحس ويشعر على ما لا يعقل ولا يحس ، وقد كان لهذا التشخيص دور مهم في إبراز تجربة الشاعر النفسية ، عبر تفعيل دور الصورة

---

[1] ابن زيدون ، الديوان (ص390).

[2] ابن دراج ، الديوان (ص 258).

الحسية ، فالسماء الصافية الزرقاء التي تطل عليه متحسرة ، وكذلك النجوم البراقة المنيرة تراقبه بشجو وحزن ، وهنا ظهر أثر اللون غير المباشر في تحقيق تلك الصورة الجميلة.

وتتجلى سمات التشخيص عند ابن دراج حين يسقطها على الرياح والسحب والبروق إذ يقول :

يَهِيْجُ فِيْهَا زَفِيْرُ الرِّيَاح مَدَامِعُ شَجْوِ السَّحَابِ المَخِيْلِ
وتلطم فيها أكف البروق خدود عراص علينا ثكول [1]

لقد اتخذ الشاعر من مكونات الطبيعة أشخاصا ليعبر عن خلجاته الشعورية المتعقلة بالشعور بالغربة عن الوطن ، فالرياح حزينة عليه تطلق زفيرها مواساة له ، والسحاب ينهمر دموعها حزنا ووجدا على فراق الشاعر ، وكذلك البروق لها أياد تلطم بها خدود السحاب الحزينة على فقدان اللقاء بالشاعر ، إن الظلام المترتب من استدعاء معاني العزاء والتأبين في البيتين السابقين ، أسهم بصورة فعالة في الكشف عن معاني الغربة التي يقاسيها الشاعر.

ويلجأ حازم القرطاجني إلى التشخيص، وهو يصور بعض مظاهر الطبيعة الأندلسية، ليعبر عن ألمه لفراق قرطبة قسرا، فقال:

وَمَحَقَت قُرطُبَةً كَمِثلِ ما قَد مَحَقَ البَدرَ السِرَارُ وَمَحا

...

فَقَد بَكَت أَنهارُها بِمَدمَعٍ هامٍ مِنَ الوَجدِ لِهامٍ ما ارتوى
فالنَهَرُ الأبيضُ يُبكى شَجوَهُ بِكُلِّ دَمعٍ مُستَفيضٍ ما رَقا
وَقَد بَكى النَهرُ الكَبيرُ صِنوُهُ إذ لم يُطِق يُروى صدى هامٍ زَقَا
وَكادَ شُقرٌ أَن يَغيضَ عِندَما غِيظَ بِعَيث الشُقرِ في كُلِّ عَرَى
وَأَنَّ وادي أَنَّةٍ في غـَربِهِ وَغَربُهُ ملآنُ من دَمعٍ جَرى

---

[1] ابن دراج ، الديوان (ص 140) .

وَوَاديا الثغرِ المُنيفِ تاجُهُ وإبرهُ كِلاهُما قد اشتكى

وقد شكى الثَغرُ صداهُ وَلَهاً والماءُ مِنهُ بَينَ ثَغرٍ وَلَها[1]

لجأ الشعراء إلى عنصر التشخيص المسيطر على معظم أجزاء النص ، ساهم هذا التشخيص في التعبير عن معاناة الأندلسيين، هذه المعاناة التي انتقلت من الخيال إلى الطبيعة ، التي هرب إليها الشاعر ، فيرى في كل أندلسي محنته ، فالوصف تناول مشاهد مختلفة من الطبيعة الأندلسية التي تغطي ربوع الجزيرة كلها.

وكأن الشاعر في هذه الأبيات يسعى إلى تحقيق التوازن بين عواطفه ، والواقع من حوله ، فيلجأ إلى الطبيعة ؛ فبكاء الطبيعة من بكاء الشاعر للمصاب الجلل، ومن بكاء الأندلسي لما حل ببلاده . ، ويظهر التشخيص في قوله: (بكت أنهارها، النوادي، ، قد اشتكى ...) .

وكان للتشخيص دور مهم في الحالة النفسية الشعورية التي استدعت هذه الصور المركبة .

وبهذا يمكن القول بأن التشخيص في ديوان شعر الحروب والفتن الأندلسي استطاع أن ينقل تجربة الشعراء بصورة منجلية للمتلقي ، فقد ألبس المجردات والجوامد والمظاهر الطبيعية رداء الآدميين ، فامتلأت الصورة بالحركية الفعالة ، والمشهدية الجذابة .

---

[1] لم أعثر عليه في الديوان.

ثالثا: اللون والحركة

تعتمد الدراسات الحديثة في دراسة الصورة الشعرية المركبة على حركية التصوير فـ"الصورة الحركية تخلف آثاراً مشعة في التعبير الصوري، لأنَّها تقوم على الحياة النامية العضوية بأبعادها الغائرة وعلاقاتها العديدة المتشابكة"[1]، فمن خلالها يستطيع المبدع أن يعبر عن " التجارب الذاتية التي عايشها الشاعر في حياته اليومية ، وتعبر عن حالته النفسية وشعوره بوضوح "[2].

إضافة إلى امتلاكها الإمكانات الفنية والقيم الجمالية ، ما يجعلها معبرة عن التجربة الشعورية بدقة متناهية ، فمن خلالها تتحول الصورة الجامدة إلى صورة تنبض بالحياة ، وتشع بالأمل .

ومن هنا لا بد للصورة الفنية من الخضوع للحركة كي تبقى حية ، ولا بد أن تكون هذه الحركة منسجمة بين كم الصور وقيمتها الفنية والتعبيرية ، لكيلا يفتقر إلى التوازن بين ما تطمح إليه من إذكاء الغرابة ، وما تكنه فعلا من قدرة على الإيحاءات والتداعيات النفسية "[3] .

وقد تجلت في شعر الحروب والفتن الأندلس صور حركية مختلفة أسهمت في تجلية الأثر النفسي والجمالي في الشعر ، وقد كان للون علاقة مهمة في إظهار هذه الصورة .

يقول المعتمد بن عباد في بيان صورة حركية للقلب الإنساني ، حيث يصف قلوب المجاهدين المقاتلين في معركة الزلاقة:

ويوم العروبة ذدت العدا نصرت الهدى وأبيت القرارا

ثبت هناك وإن القلوب بين الضلوع لتأبى القرارا[4]

---

[1] ينظر: أقدح ، الصورة الشعرية عند المعتمد بن عباد (ص 56) .

[2] العالم ، الصور الحركية ومجالاتها في شعر الأخطل(ص181) .

[3] صالح ، الصورة الفنية في النقد العربي الحديث (ص 173).

[4] ابن عباد، المعتمد، الديوان (ص 97).

يذكر الشاعر يوسف بن تاشفين بجهاده ، فيخاطبه بفضل قيامه لنصرة دين الله – تعالى – وثباته على الحق في ساح القتال ، ثم يصور أحد مشاهد الحماسة في المعركة من خلال رسم حركة القلب في تصوير جمالي ، فالضلوع سجن يحيط بالقلوب المتحمسة للقتال ، فهي تريد أن تكسر تلك القيود ، لتشارك مع المقاتلين في المعركة.

إن رسم تلك الصورة الحركية للقلب أسهم بشكل كبير في الإفصاح عن العاطفة المختلجة في قلب الشاعر ، بل رسمت بريشة الفنان المبدع تجارب المقاتلين وأحاسيسهم .

وفي صورة حركية تصف القلب الخائف المرتجف يقول ابن عبد ربه:

إذا اصطفت الرايات حمرا متونها ذوائبها تهفو فيهفو لها القلب [1]

يرسم الشاعر صورة الاستعداد للقتال مفعمة بالحركة ، إنها حركة الرايات المصطفة ، الملونة باللون الأحمر حتى إذا ما رآها الأعداد ، ذعروا ورعبوا ، ذلك لأن تلك الرايات صبغت بالأحمر من دماء القتلى بين جنباتها ، فيتذكرون مصيرهم المحتوم ، لتبدأ الحركية الفاعلة في صورة القلب الذي يرتجف خائفا مع كل نسمة ريح تحرك تلك الرايات .

تكاد تكون هذه الحركة حقيقة ، فهي ترسم صورة الرعب ، الذي يبلغ في الإنسان مبلغه، فمن المعروف أن القلب يرتفع وينخفض في حالة الذعر ، لأن الرئة تنفتح من شدة الفزع ، وبذلك تتضح روعة التعبير في هذه الصورة الحركية .

ومثله قول ابن الخطيب :

وأي فؤاد منهم غير خافق إذا خفقت في الحرب أعلامك الحمر [2]

إنها دلالة الخوف والفزع المرتبطة بالرايات الحمر ، حيث يرتبط خفقان قلوب الأعداء بخفقان رايات الممدوح التي ترفرف في سماء النقع ، فكأن تلك الرايات علامات لقرب الردى والموت .

---

[1] ابن عبد ربه ، العقد الفريد (ج1 / 129).

[2] ابن الخطيب ، الديوان (ج1 /401) .

وفي صورة حركية أخرى تكشف التداعيات النفسية يقول ابن الزقاق :

فلَتؤخذَنَ بمُهجتي لحَظَاتُها وَبِعَرْصَتَيْها الريحُ والأنواءُ
طَلَعَت بحيثُ الباتراتُ بوارقٌ والزرق شهب والقتام سماء
في آلةٍ حمراء يخفق دونها بينَ الفوارس رايةٌ حمراءُ

والجوُّ لابسُ قسطلٍ مُتراكِمٍ فلهُ من النَّقْعِ الأحمِّ رداءُ[1]

يرسم الشاعر صورة القلب المهيأ للقتال ، ويوافق هذا الوصف حركية مقصودة ، فالسيوف مشرعة ، والرماح مسددة لامعة .

ثم يصور حركة الجيش المستمرة ، واستعداده الدؤوب لملاقاة الأعداء فالعدة الحربية ملونة باللون الأحمر ، وكذلك الرايات مصفوفة ترفرف حمراء من دماء الأعداء ، وبهذا تكتمل الصورة الحركية التي تجعل المتلقي يشعر بنفسه ملقى في ساحة القتال يرصد الحركة الدقيقة بكل تنقلاتها وأجزائها .

ويقول ابن خفاجة راسما صورة حركية أخرى :

تَأتي صُقورٌ مِنهُمُ مُنقَضَّةٌ قَدَراً عَلى مُهَجِ العَدُوِّ مُتاحا
مَلَأوا ضُلوعَ اللَيلِ زُرقَ أَسِنَّةٍ سالَت عَلى أَعطافِهِ أَوضاحا[2]

فالمقاتلين صقور تغير على فريستها بقوة دون تردد ، ولا تخطئ في مرادها ، حيت تقتنص قلوب أعدائها ، دون شفقة أو رحمة .

ويستعين الشاعر بصورة السيل المتحركة ، حيث سرعات ما يغطي وجه الأرض ، فالحراب الزرقاء قد ملأت الأرض ، فصار فعلها كالضوء يسري في جنبات الليل فيبدد ظلامه .

وبهذا نجح الشاعر من خلال رصده لحركة المشهد في أن يضع المتلقي في ذلك الجو المعبق بشذى الانتصار .

---

[1] ابن الزقاق ، الديوان (ص 3).
[2] ابن خفاجة ، الديوان (ص 68).

وقد وصف لسان الدين بن الخطيب ،حذر ممدوحه في إطار تخليده لإنجازاته وانتصاراته فقال :

ومُلْتَفِتٍ عنْ أَزْرَقِ اللّحْظِ قدْ حكى بهِ العَلَقُ المُحْمَرّ مُقْلَةَ أَرْمَدِ[1]

يلجأ الشاعر لوصف صورة حذر الممدوح من خلال التركيز على العين في قوله (**أزرق اللحظ**) فهو يلتفت التفاتة الحريص ، فيعرف ما يخفيه أعداؤه من خائنة الأعين .

وبهذه الصورة الحركية الخفية للعين يتبدى للقارئ حجم استعداد الممدوح لقتال الأعداء ،إذ أتبع الشاعر تلك الحركة بقوله (**العلق المحمر**) و(**مقلة أمرد**) .

وتسهم الحركة في التعبير عن فروسية المقاتل ، يقول ابن الخطيب :

تَتَزَاحَمُ الأَرْوَاحُ دُونَ وُرُودِهِ فَكَأَنَّمَا هُوَ نُطْفَةٌ زَرْقَاءُ[2]

يرصد الشاعر صورة التزاحم والاكتظاظ على سيف المقاتل ، ومن خلال الحركة السابقة يتمكن الشاعر من الكشف عن كثرة القتلى بسبب هذا السيف المسلط على رقاب الأعداء.

يستدعي الشاعر بالتشبيه المختلط بتلك الحركة ، ليؤكد على المعنى السابق ، وهذا أحد تقانات الصورة التجريدية والمسمى بالتوضيح ، حيث اعتمد الشاعر على إجراء المشابهة بين طرفين حسيين متباعدين [3] هما الماء والسيف .

وبهذا يمكن القول بأنه ظهر في شعر الحروب والفتن الأندلسي لونان من الحركة أحدهما يرصد حركة الأشياء المتحركة والثاني يحرك الأجسام الثابتة ، حيث لا يمكن تحريكه إلا في خيال المتلقي ، كما مر في الأمثلة السابقة .

وقد أسهم هذا في تخليف آثار مشعة في التعبير الصوري ، من خلال بث الحيوية في النصوص الشعرية المختلفة .

---

[1] ابن الخطيب ، الديوان (ج1/ 312).

[2] المرجع السابق(ج1 /95)

[3] ينظر : غنيم ، عصر الدول والإمارات الثاني (ص 42) .

وبعد إبحارنا في هذا المبحث فقد تناولنا الصورة التجريدية ، وقد تم قياسها من خلال الصورة المركبة ، التي تعلقت بالتشخيص والتجسيم والحركة .

وكانت الصور التشخيصية أكثر شيوعا من الصور التجسيمية ، لكنهما أسهمتا بشكل عام في بث الحيوية والانفعال الحركي في النص الشعري ، مما قرب المعني في ذهن القارئ .

واستطاع الشعراء تشخيص المجردات والطبيعة ،فصارت أدوات يبثونها مشاعرهم وأحاسيسهم ، تشاطرهم ألامهم وأحزانهم.

كما أسهمت الحركة في الكشف عن معان مختلفة استوطنت نفوس الشعراء ، وعبرت عن مكنوناتها من خلال الصورة المركبة التي اعتمدت على أكثر من صورة مفردة .

الفصل الخامس

تجليات اللون في بناء القصيدة في شعر الحروب والفتن الأندلسي .

المبحث الأول :الحضور اللوني في أقسام القصيدة

أولا: المطلع اللوني

يعد الاستهلال أو المطلع الشعري أحد مكونات القصيدة ، ويشكل بنية أساسية فيها ، ما أدى إلى تكون خصوصية له في النص ، حيث يختزن الدفقات الشعورية الناتجة عن تجربة الشاعر .

ولأن المطلع الشعري عتبة القصيدة ،وبه يبدأ العمل الشعري للانطلاق نحو تكوين القصيدة الشعرية لاقى اهتماما بارزا لدى نقاد الأدب بمناهجه الحداثية لا سيما القائم على العلاماتية [1] .

ومن هنا يمكن الانطلاق في قياس الحضور اللوني ابتداء من المطالع اللونية التي استهلت بها القصائد في شعر الحروب والفتن الأندلسي لتمثل كاشفا مهما عن ملامح النص وآفاقه ، فعلى الرغم من قلة المطالع التي اعتمدت على اللون قياسا بغيرها من تلك التي لم تعتمد عليه إلا أن تلك المطالع نجحت في الكشف عن أغوار الشعراء لتشكل خيطا ناظما للقصيدة ، مجسداً لفكرتها ومضمونها .

يقدم ابن سهل الأندلسي ثنائية ضدية جميلة يرسم من خلالها صورة الطمأنينة عبر استعماله للونين الأبيض والأسود من خلال دلالاتهما المتقابلة ، حيث تتبدل الأمور بقدوم ذلك الممدوح فيقول :

مَحا قُدومُكَ عَنّا الرُعبَ وَالعَدَما وَنَوَّرَ الفاحِمَينِ الظُلمَ وَالظُلَما
وَأَوسَعَ السِلمَ أَمناً وَالهَياجَ رَدىً وَالأُفقَ نوراً وَأَكنافَ العُلا كَرَما[2]

---

[1] الزواهرة ، اللون ودلالته في الشعر – الشعر الأردني أنموذجا (ص 161).

[2] ابن سهل، الديوان (ص 186).

إن هذا الاستعمال الدقيق للألوان في مطلع القصيدة ، كشف للمتلقي خلجات الشاعر النفسانية تجاه ممدوحه، وقد ظل هذا المطلع اللوني بوصلة صادقة معبرة عن الأحاسيس المستبشرة بروعة ذلك القدوم في الأبيات اللاحقة إذ يقول :

إنَّ اِعتِمادَكَ سَيفٌ لا يُفَلُّ لَهُ غَربٌ إذا فُلَّ غَربُ السَيفِ أَو حُطِما
وَفَضلُ رَأيِكَ لَو يَرمي بِبادِرَةٍ مِن عَزمِهِ سَدَّ ذي القَرنَينِ لَانهَدَما
أَعدَدتَ لِلدَهرِ آراءً تَرِي وَيَداً تَرمي نِصالاً تُسَمّيها الوَرى هِمَما

وبهذا يكون ابن سهل قد نجح في إزالة حالة الغموض والقلق والتشاؤم والظلمة التي كانت سابقة لمقدم الممدوح مباشرة ، وعبر استخدام الشاعر للأسلوب الخبري استطاع أن يرسم صورة مقابلة ناتجة عن هذا الحدث الجميل ، عبر صعوده إلى أفق أوسع وأجمل .

ويستعمل في مطلع قصيدة أخرى اللون الأخضر مستغلاً إشاراته الدالة على النعيم الباقي في التحريض على الجهاد في سبيل الله فيقول :

وِرداً فَمَضمونٌ نَجاحُ المَصدَرِ هِيَ عِزَّةُ الدَنيا وَفَوزُ المَحشَرِ

نادى الجِهادُ بِكُم لِنَصرٍ مُضمَرٍ يَبدو لَكُم بَينَ العِتاقِ الضُمَّرِ
خَلّوا الدِيارَ لِدارِ خَلدٍ وارِكَبوا غَمرَ العَجاجِ إِلى النَعيمِ الأَخضَرِ[1]

ارتبط اللون في هذا المطلع بمكان العيش الهانئ المتصل بالجنة ، والتي يغلب على زينتها الخضرة ، وفي هذا المطلع اللوني استعمل اللون غير المباشر المتمثل بالعجاج الأبيض والحادث نتيجة انطلاقات الخيل المضمرة الوثابة .

ومن هنا ينطلق الشاعر في تنظيره لفكرة الجهاد مستعينا بمطلعه الذي احتوى على فكرتين ، تم اشتقاقهما عبر إشارات اللونين الأبيض والأخضر ، فتتمثل الفكرة الأولى بالترغيب في نعيم الجنة الباقي من غير زوال ، والفكرة الثانية تسعى إلى تعزيز الدافعية القتالية الموجهة للجهاد في سبيل الله تعالى ؛ لذا فقد لجأ الشاعر إلى إجراء مفارقات متنوعة تحمل هذه الإشارة في أبيات القصيدة المختلفة فيقول :

---

[1] ابن سهل ، الديوان (ص 140).

وَتَسَوَّغوا كَدِرَ المَناهِلِ في السُرى تَرووُا بِماءِ الحَوضِ غَيرَ مُكَدَّرِ
وَتَجَشَّموا البَحرَ الأُجاجَ فَإِنَّهُ سَبَبٌ بِهِ تَرِدونَ نَهرَ الكَوثَرِ
وَتَحَمَّلوا حَرَّ الهَجيرِ فَإِنَّهُ ظِلٌّ لَكُم يَومَ المُقامِ الأَكبَرِ

ففي قوله (كدر المناهل – البحر الأجاج – حر الهجير) إشارة إلى تلك الصعوبات التي قد تجعل المرء يفكر في الانتكاس والقعود ، لكنه يضع المعالجات لكل قضية من هذه القضايا المختلفة حيث يضع حلا أمام كل معضلة ، مثل هذا الحل حافزا جديدا من شأنه تحقيق فكرة المطلع كما في قوله: (ماء الحوض – نهر الكوثر – ظل المقام) .

وظلت هذه الإشارة اللونية سارية في دلالتها حتى وصلت القصيدة إلى منتهاها مختتمة بذات اللون كما في قول الشاعر :

أَضحى الهُدى يَشكو الظَما وَلَأَنتُمُ ظِلٌّ وَرَيٌّ كَالرَبيعِ المُمطِرِ

أما ابن خفاجة فيستخدم اللون الأحمر في مطلع قصيدته التي يرثي فيها أم قاضي القضاة أبي أمية، قائلاً:

في مثله من طارق الأرزاء جاد الجماد بعبرة حمراء
حت الكرى بين الجفون، وربما غسلت سواد المقلة الكحلاء[1]

فقد مثل اللون الأحمر للألم الذي يتعرض له الإنسان عندما تصيبه مصيبة كبرى، فيفقد عزيزا له ، وعلى الرغم من صدق شعر الرثاء الخاص ، إلا أن الشاعر هنا يرثي رثاء عاما متعلقا بسياسة الدولة .

ينجح اللون الأحمر الذي ارتبط بالعين الباكية بحرقة على المفقودة في مطلع القصيدة في التعبير عن صدق المشاعر والأحاسيس ، فالكل مصاب بهذه المصيبة ،حتى إن الجماد يبكي حزنا وكمدا ، ويرسم الشاعر صورة للمقلة التي هي عين المرثي في

[1] ابن خفاجة ، الديوان (ص 18).

قاموس الشاعر ، حيث بزواله يزول النظر ، وتبقى الظمة بعد أن ساد النور دهرا ، ويستمر الشاعر في تأكيد هذا المعنى من خلال الأبيات المتلاحقة فيقول :

أهول به من يوم رزء فادح سحب الصباحُ به ذيولَ مساءِ

ومن أبرز المطالع التي زركشت بالألوان مطلع قصيدة ابن الأبار والتي يقول فيها :

أبى الحَسَن إلا أنْ تَعِزّ وَتَغْلِبا عَقيلَةُ هذا الحيّ من سِرِّ تَغْلبا
فكيفَ بِفَوْزٍ منْ رَبيبَة فازَة مَسابِحُها بَيْن الأباطحِ وَالربى
تُظَلّلها خُضْر القَنابِل والقنا وتَكْلؤُها زُرْقُ الأسِنّة وَالظُّبى
مِن البيضِ حمْراءُ المَطارفِ والحُلى إذا طَلَعتْ حُلّتْ لطلعَتها الحُبى[1]

يبدأ الشاعر قصيدته بالتأكيد على تحقق الغلبة والتمكين لأبي الحسن ، متفاخرا بأصوله التميمية العربية ، وتشترك الألوان المختلفة في رسم صورة العدو المنهزم حيث يقع على الأرض فتغدوا جثث قتلاه مرعى للأسنة والسيوف ، ومداسا للخيول المضمرة التي تسير في جماعات.

ويستمر الشاعر في رسم معالم ممدوحه حيث اليد البيضاء الكريمة ، والسجايا الحسنة المعطاءة ، وغيرها مما اعتاد شعراء المديح أن يذكروه في أشعارهم .

لا تنفك الطبيعة الأندلسية حاضرة في أشعار الأندلسيين ، فالطبيعة فرضت نفسها على كل موضوعات الشعر الأندلسي ، وفي المطلع الآتي يقحم ابن الزقاق الطبيعة الساحرة في مديحه لابن علي فيقول :

أرضٌ منَمْنَمَةٌ وظِلٌّ سَجْسَجُ وصَباً بأنفاسِ الرُّبى تتأرَّجُ
ومذانبٌ زُرْقُ النطافِ تَرَفٌّ في وَجناتهنَّ شقائقٌ وبنفسج
فالماءُ مصقولُ الأديمِ مُفَضَّضٌ والروضُ مطلولُ النسيمِ مُدَبَّجُ
صيغَتْ أزاهِرُهُ دنانيراً بها فترى دنانير النُّضار تُبَهْرَج

[1] ابن الأبار ، الديوان (ص101).

قُمْ نَصْطَبِحْها والنجومُ جوانحٌ والصبحُ في أعقابها مُتبَلِّج

حمراءَ صافيةً كأنَّ شعاعَها ضَرَمٌ بأيدي القابسين يُؤَجَّج[1]

إنه مطلع معبق بشذى الألوان الزاهرة ابتداء من زرقة الأودية المارة في الروض حيث تحتوي على المياه العذبة الصافية ، والمحاطة بالزهور الحمراء والصفراء والبنفسجية ؛ لعل هذه الكثافة اللونية ، كان لها إسهام مميز في الخطاب الشعري لدى ابن الزقاق في القصيدة ، إذ مثل بيئة جميلة للانتقال عبرها للتنويه بأثر الممدوح على المكان .

فيتهيأ المتلقي من خلال هذا المطلع لاستقبال عبارات المدح والثناء المتنامية والمتصاعدة في حق الممدوح فيما بعد ذكر، بيد أن الشاعر لا يملك أن يبتعد عن ذكر شجاعة ممدوحه من خلال تصاوير متباينة توضح إهلاكه للأعداء وإغاظتهم ، ما ترتب عليه هذا الهناء وتلك السعادة .

أما ابن اللبانة فاتخذ من تلون الحرباء في مطلع إحدى قصائده التي يرثي فيها زوال الملك وفنائه معادلا موضوعيا للدهر وتقلباته فيقول :

لكل شيء من الأشياء ميقات وللمنى من منائيهن غاياتُ

والدهر في صبغة الحِرباء منغمس ألوان حالاته فيها استحالات[2]

وقد مثل هذا المقطع دلالة عدم ثبوت اللون ، وبه يحصل الضياع والهذيان ، حيث لا يتمكن أيا كان من التنبؤ بحاله أو مآله ، وهذا حال الدهر في تبدلاته وتحولاته .

ويستمر الشاعر متناولا هذه الفكرة في الأبيات التالية فيقول :

مَن كان بين الندى والبأس أنصلُه هندية وعطاياه هنيدات

رماه من حيث لم تستره سابغة دهر مصيباته نبل مصيبات

وكان ملء عيان العين تبصره وللأماني في مرآه مرآة

---

[1] ابن الزقاق ، الديوان (ص 53)

[2] ابن اللبانة ، الديوان (ص 36).

أنكرت إلا التواآت القيود به وكيف تنكر في الروضات حيات

وقد وصف الشاعر ما كان عليه ممدوحه قبل الانكسار عبر ألفاظ (الندى – البأس أنصله – ملء عيان العين – الأماني) ،وتحدث عن مآله عبر ألفاظ (رماه – لم تستره – نبل مصيبات – التواءات القيود) ، ولا يخفى ما في هذه العبارات من تجسيد لفكرة المطلع .

وأمام هذه النماذج المختلفة يجد الباحث أن الشاعر الأندلسي كان دقيقا في اختياره للون الشعري للشاعر في قصيدته .

وقد ارتبطت دلالة اللون الحاضر في المطالع السابقة بالجو العام في القصيدة ، حيث دارت محاور الأفكار المتعددة في القصيدة حول إشارات تلك الألوان البارزة في مطالع القصائد .

ثانيا : المقطع اللوني

يمكن القول بأن القصيدة العربية القديمة اعتمدت بشكل كبير في بنائها الفني على المطالع والمقاطع ، فقد جسد مطلع القصيدة نقطة اختلاف كبيرة بين النقاد القدماء والمحدثين ، غير أنهم اتفقوا على اعتباره حالة الاصطدام الأولى للمتلقي بالنص .

وإن كان المطلع مدخل النص وباب الولوج فيه ، فإن المقطع الشعري يعد آخر شيء يقرع أذن السامع ، ويبقى عالقا في ذهنه ،لذا فلا يقل المقطع أهمية عن المطلع ، خاصة إن أردنا أن نسبر أغوار الخطاب الشعري لشاعر ما[1] .

وفي إطار معالجة الحضور اللوني وتأثيره في الخطاب الشعري في شعر الحروب والفتن الأندلسي ، يجد الباحث نفسه أمام جملة كبيرة من الأشعار التي جعلت اللون الشعري حاضرا في ذهن المتلقي برمزيته ودلالته.

فقد نجح الشعراء الأندلسيون في جعل اللون نقطة ارتكاز مهمة لتبيث أفكار رئيسية في النص الشعري ما جعلها عالقة في ذهن السامع ، فتميزت الأبيات التي تحتوي تلك الإشارات اللونية على غيرها من حيث حضورها وتأثيرها في القارئ يتضح ذلك في قول أبي البقاء الرندي في رثائه للأندلس كلها :

يا مَن لِذلَّةِ قَوم بَعدَ عِزّتهِم أَحالَ حالَهُم كفرٌ وَطُغيانُ
بِالأَمسِ كانُوا مُلُوكاً فِي مَنازِلِهِم وَاليَومَ هُم في بِلادِ الكُفرِ عُبدانُ
فَلَو تَرَاهُم حَيارى لا دَلِيلَ لَهُم عَلَيهِم من ثيابِ الذُلِّ أَلوانُ
وَلَو رَأَيت بُكاهُم عِندَ بَيعهمُ لَهالَكَ الأَمرُ وَاستَهوَتكَ أَحزانُ[2]

فالشاعر في الأبيات السابقة يتحدث عن تلك المصيبة الكبرى التي تمثلت في سقوط الأندلس ، بكل مدنها ، ويشرع ببيان أحوال أهلها حيث انقلبوا من عزة إلى ذلة ، ومن ملك إلى عبودية ، ومن هداية ورشاد إلى ضلالة وتيه .

---

[1] الزواهرة ،اللون ودلالاته في الشعر – الشعر الأردني أنموذجا (ص 164) .

[2] المقري ، نفح الطيب (ج6 /244) .

ولأن المشهد يحتاج إلى الكثير من الكلمات ، والمواقف اختزل الشاعر مشاهد كثيرة في قوله (عليهم من ثياب الذل ألوان) ، فاختلاف الألوان وظف ليدل على الذل والتفكك والقهر والألم والمعاناة .

وبهذا كان ذلك البيت ركيزة مهمة في القصيدة حيث دارت حولها فمثلا يقول في الأبيات التالية لهذا المقطع:

يا رُبَّ أمٍّ وَطِفلٍ حيلَ بينهُما كَما تُفَرَّقُ أَرواحٌ وَأَبدانُ
وَطفلَة مِثلَ حُسنِ الشَمسِ إذ برزت كَأَنَّم ا هيَ ياقُوتٌ وَمُرجانُ
يَقُودُها العِلجُ لِلمَكروهِ مُكرَهَةً وَالعَينُ باكِيَةٌ وَالقَلبُ حَيرانُ
لِمثلِ هَذا يَبكِي القَلبُ مِن كَمَدٍ إِن كانَ في القَلبِ إِسلامٌ وَإِيمانُ

حيث تنقل الشاعر في الأبيات السابقة بين المشاهد المؤلمة التي لا زالت تسكن ذاكرته المليئة بالمأساة ، وبهذا دارت القصيدة في ربى ذلك البيت الذي يعد نقطة متميزة في الخطاب الشعري الذي دعى إليه الشاعر حيث حمل المقطع السابق صفحات لا تنسى من تاريخ الأمة الإسلامية.

وفي إطار المديح السياسي يلجأ ابن عبدون إلى استخدام اللونين الأبيض والأسود كمعادل فني لصورة الراحة والاستبشار بمقدم الممدوح وجيشه ففي أحد مقاطع قصيدة المديح يقول :

خَبَطَت بنا ورقَ الظَلامِ سَوابِحٌ مِلءُ النَواظِرِ سَيرهُنَّ تَوَهُّمُ
فَإِذا سَرَت فَاللَيلُ مِنهُم أَبيَضٌ وَإِذا غَدَت فَالصُبحُ مِنها أَدهُمُ
مِن كُلِّ هَفهافِ العنانِ كَأَنَّهُ نَفسُ المشوقِ تَعاوَرَتهُ اللُوَّمُ
بَيني وَبَينَ الدَهرِ يَومٌ مِثلُهُ وَالبيضُ تَشهَدُ وَالصَوارِمُ تَحكُمُ[1]

الجدير ذكره أن القصيدة تدور على تعدد ذكر اللونين الأبيض والأسود في دلالة تكاد تكون ثابتة لكل منهما ففي مطلع القصيدة يرى الشاعر أن الصباح متبسم يستبشر بقدوم الممدوح ، وأن الليل عابس لأنه افتقد تواجده فيه كما في قوله :

---

[1] ابن عبدون ، الديوان (ص 56).

وافاكَ مِن فَلَقِ الصَباحِ تَبَسَّمُ وَاِنجابَ مِن غَسَقِ الظَلامِ تَجَهُّمُ

حيث إن المقطع السابق جاء ليرسم في ذهن القارئ سمة الخطاب من خلال غرض المديح السياسي فالممدوح هو مصدر مهم من مصادر الأمن والراحة والسلام ، فالصباح مظلم بفقده ، والليل مشرق بوجوده .

إن استخدام هذا التقابل الفني يجعل من المقطع اللوني منطلقا مهما للتجول في نواحي القصيدة الشعرية تقديما او تأخيرا .

فإن فعل المتلقي هذا ظهر لديه بوضوح وجلاء أن القصيدة تدور بصورة لولبية حول تلك الفكرة ، فما إن يتم معنى حتى تعود الصورة لترسم معنى مولدا من جديد يشابه المعنى المتحقق في البيت .

ومن هنا يثبت اللون حضوره ، ومركزيته في إشارات الرمزية الدلالية الخاصة .

أما ابن حمديس فيطالعنا بأبيات جميلة استخدم فيها الألوان للتعبير عن مآل الأعداء ومصيرهم فالمقاتل المسلم تخشاه الرجال الصناديد ، والذين ما خلقوا إلا للحرب والقتال، ويستعين على ذلك بتصوير لطيف يستحضر من خلاله تلك الارتعاشة التي يعاني منها الطائر صغير الحجم الضعيف أمام النسريات التي لا ترحم أحدا حيث ترمز إلى القوة والجبروت يقول:

إنّ الشجاعةَ في الحُماة وإنها لأشدّ منها في الأبيِّ الصابِرِ
فتخافُ أذمارُ الكريهةِ فتكَهُ خَوْفَ البُغاثِ من العُقابِ الكاسِرِ
بسنانِ أسْمَرَ للحيازم ناظمٍ وغرارِ أبيضَ للجماجِمِ ناثرِ[1]

تتصاعد سمة الخطاب الشعري من خلال الألوان في المقطع السابق حيث ، لوحظ الدور المركزي لها في التعبير عن فكرة الشاعر التي نظر لها في الأبيات السابق ، والتي قد يظنها القارئ مكررة .

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص 209).

إنه التوليد المعنوي الذي يقفل صورة الشجاعة والبسالة في ذهن المتلقي ، ويثبتها من غير ريب أو شك ، كيف لا وقد تحول السنان إلى خيط يضرب رقاب الأعداء فينظمها نظم العقد حتى تجتمع ، وكذلك السيف الذي يجعل من جمام الأعداء أطباقا طائرة متناثرة يصعب أن تجمع لكثرتها.

ولا يخفى ما في هذه الكلمات من طباق جميل ، وتورية خفية ،ساهما في تجلية الخطاب الشعري للشاعر ، عبر استخدام الألوان كأداة رئيسية ناجحة في تأدية تلك الوظيفة.

وقد جاء هذه المقطع اللوني بعد مقدمة مفعمة بالمديح السياسي ، حيث ساهمت تلك المقدمة في التهيئة الجميلة لبروز اللون في المقطع الشعري السابق بهذا الحجم من التأثير يقول في المقدمة :

وأَشَمَّ من بَيتِ الرئاسَةِ أكبرٍ يُنْمَى إلى شُمِّ الأُنوفِ أَكابِرِ
يُرْدي المدجَّجَ وهوَ غَيرُ مدجَّجٍ كم دارِعٍ أرداه رمحُ الحاسِرِ
ويشِبُّ نيرانَ الحُروب بمرهفٍ كصبيب ماءٍ في الجماجِم غائِرِ
في جَحْفَلٍ يَغْشَى الوقائعَ زاحفاً بسماءِ أجنحة وأرضِ حوافِرِ
وَعَجاجَةٍ كَسحابَةٍ مُلْتَفّةٍ فوْقَ الرُؤوسِ على بُروقِ بَواتِرِ

وفي هذه القصيدة يظهر بوضوح علاقة التكامل بين المطلع والمقطع في القصيدة الواحدة حيث احتوى المطلع تشبيهات حربية مكررة ، اشترك فيها الشعراء في هذا الغرض ، غير أن الإبداع الشعري برز في المقطع اللوني الذي أدى لتثبيت المعنى والدلالة في ذهن المتلقي فلا يكاد ينساها .

وفي مقطع متناص مع القرآن الكريم يقول أحمد بن أبي القسم الخلوف:

أَقَامَ صلَاةَ الحَرْبِ قَايِمَ سَيْفِهِ فأَبْدَتْ سجُوْدَ الخَوْفِ تِلْكَ المَعَاقِلِ

وخاض بسُفْنِ الخَيْلِ بحْرَ مَعَامِعٍ لَهَا البيضُ مَوْجٌ وَالرِّمَاحُ سَوَاحِلُ

فالممدوح عندما أقام الحرب وأدارها بسيفه سجدت معاقل الكفر والضلال ، مظهرة علامات الخوف والطاعة، وبهذا يكون البياض رمزًا للقوة الضاربة حيث تستقر في ذهن المتلقي استجابات عاطفية تحمل صوراً سوداوية للمصير الذي سيلاقيه أعداء الممدوح .

يرسم ابن الحداد الأندلسي صورة شجاعة أخرى من خلال المقطع التالي :

تَكَادُ تَغْنَى إذا شاهَدْتَ مُعْتَرَكاً عنْ أَنْ يُسَلَّ حُسامٌ أو يُسالَ دَمُ
بِلَحْظَةٍ منكَ يُثْنَى القِرْنُ مُنْعَفِراً كأنَّ لَحْظَكَ فيه صارِمٌ خَذِمُ
أَقْدَمْتَ حيثُ الكُمَاةُ الشُّوْسُ مُحْجِمَةٌ وَجُدْتَ حيثُ المَنَايَا السُّوْدُ تَزْدَحِمْ
وما احْتَدَى الموتُ نَفْساً من نُفُوسِهِمُ إلاَّ وَسَيْفُكَ كَعْبُ الجُوْدِ أو هَرِمُ[1]

يجسد الشاعر سطوة ابن معن على أعدائه ، مرتكزا على الدلالة اللونية للأسود ، حيث وسم بها المنايا ، فكأن المنايا معلقة بيد الممدوح ، ويتزاحم كماة الأعداء عليه .

هذا الاستعمال للون الأسود لم يأت عبثا من الشاعر ، بل جاء بانتقاء شديد ،خاصة أنه في هذا المقطع يريد أن يحفر صورة أسطورية لممدوحه العابث برقاب أعدائه ، فلم يكن بد من تكرار هذا اللون في شعرية كبيرة ، حيث يردفه باستحضار صورة الغراب الناعب ، والذي ينذر بشؤم المآل سواء في السابق أم اللاحق .

بل يساوي الشاعر بين الأعداء كماتهم وضعافهم أمام هذا المقاتل الشرس ، حيث لا يرتقي أحد لمقارعته .

إنه اللون الأسود الذي إذ لا يفلح أي لون دونه في التعبير عن تلك الفكرة ، فهي محاولة جادة من الشاعر تقود الإنسان إلى التأمل والتفكير بعناية أمام المصير المحتوم لكل من يقف أمام هذا المقاتل العنيد ، ويستمر دوران هذا المقطع اللوني بشيء من الإطالة لزيادة أفق الترهيب والإغراء على حد سواء بعد أن يستحضر الشاعر نذير شؤم الغراب فيقول متمما المقطع :

---

[1] ابن الحداد ، الديوان(ص 250).

وهَامُهُمْ في الجُذُوْعِ الشُّمِّ ضاحِيَةٌ كأنَّها بَقَعُ الغِرْبانِ والرَّخَمُ
مَوَاثِلاً في سبيل الرَّكْبِ تَحْسِبُها تُسائلُ الرَّكْبَ عن أَجْسادِها القِمَمُ
وقد تُلِمُّ بها الغِرْبانُ واقعةً كأنَّها فوق مَحْلُوْقاتها لِمَمُ
صَوَامِتٌ نُطُقُ الهَيْنَاتِ قائلةٌ عُقْبَى عُصاةِ ابنِ مَعْنٍ هذه النِّقَمُ

وبهذا يفرض اللون حضوره في القصيدة ، ويجعل منها أيقونة منبسطة تزيد من الإيحائية المفرطة ، وتكشف الغموض واللبس عن بعض مفردات المطلع .

يستدعي ابن خفاجة الألوان في رثاء محمد بن أبي ربيعة حيث اعتمدت مقطوعته التالية على اللون بدلالته التعبيرية الجامحة ، والتي تتناسب مع جو الرثاء يقول :

فَأَظلَمَ قَرنُ الشَمسِ وَهيَ مُنيرَةٌ وَضاقَت بِلادُ اللَهِ وَهيَ رِحابُ
وَرَقرَقتُ بَينَ الحُزنِ وَالصَبرِ عَبرَةً لَها جَيئَةٌ في مُقلَتي وَذَهابُ
وَلَو أَنَّ حَيّاً كانَ حاوَرَ مَيِّتا لَطالَ كَلامٌ بَينَنا وَخِطابُ
وَأَعرَبَ عَمّا عِندَهُ مِن جَلِيَّةٍ فَأَقلَعَ عَن شَمسٍ هُناكَ ضَبابُ[1]

ففي مقدمة المقطع نجد اللون الأصفر البارز المتمثل في الشمس ، ونورها الأصفر الذي يبث في أماكن مختلفة من الأرض قد تحول إلى ظلمة شديدة ، فحرمت الأرض من نورها المضيئ ، وبهذا فمنذ بداية المقطع تتحدد نمطية الخطاب الشعري في القصيدة حيث يريد الشاعر أن يعبر عن عظيم ألمه وجواه على فراق ذلك الميت الذي لا يمثل نفسه بالطبع بل يمثل أمة الإسلام والخلافة في الجزيرة .

يؤكد هذا ما يجده القارئ في عجز البيت الأول حيث يقول الشاعر (وضاقت بلاد الله وهي رحاب) ، إنه لون الظلمة المرتبط بضيق الصدر ، والتيه ، فلا حركة ولا نشاط ولا عمل مع تلك الظلمة ، وبهذا يتحقق الشعور بضيق الحياة وبؤسها .

وفي نهاية المقطع السابق نجد التكرار المعنوي الجميع ، والذي يظهر في مفهوم المخالفة من خلال قوله: (فَأَقلَعَ عَن شَمسٍ هُناكَ ضَبابُ) .

---

[1] ابن خفاجة ، الديوان (ص 41).

إنها نتيجة طبيعية ، يتوقعها العقل ، فغياب المرثي تسبب في حلول الظلام بعد الإشراق ، فمن باب أولى أن يمثل الالتقاء مؤشرا قويا على زوال تلك الظلمة .

لكنه يسرد هذا الخبر مع فقدانه لأمل العودة والالتقاء ، من خلال إيمانه المطلق باستحالة الالتقاء بين ميت وحي كما في البيت الثالث من المطلع .

لقد لعب اللون دورا بارزا في نظم قصيدة الرثاء الأندلسية ، من خلال المقطع اللوني في القصيدة السابقة ، فهل يا ترى مثل مطلع القصيدة تلك الفكرة ؟ أم أن انتقاء اللون كان من وحي الصدفة ؟

يجيب عن هذا التساؤل ما يجده الباحث في أبيات المطلع حيث يقول الشاعر :

وَلَمّا تَراءَت لِلمَشيبِ بُرَيقَةٌ وَأَقشَعَ مِن ظِلِّ الشَبابِ سَحابُ
نَهَضنا بِأَعباءِ اللَيالي جَزالَةً وَأَرسَت بِنا في النائِباتِ هِضابُ
فَيا عَجَباً لِلدَهرِ كَيفَ سَطا بِهِ وَقَد كانَ يُرجى تارَةً وَيُهابُ
وَكَيفَ اِستَلانَت صَولَةُ المَوتِ عودَهُ فَلَم يَنبُ عَنهُ لِلمَنِيَّةِ نابُ
وَلا عَجَباً أَنّا ذَلَلنا لِحادِثٍ تَذِلُّ لَهُ الآسادُ وَهيَ غِضابُ
وَأَنّا خَضَعنا لِلمَقاديرِ عَنوَةً كَما خَضَعَت تَحتَ السُيوفِ رِقابُ

إنها التهيئة الحزينة التي تكلل قصائد الرثاء المختلفة على مدار العصور حيث عرج الشاعر على ذكر النائبات وأعباء الليالي ، والاعجاب بالدهر والتسليم للقدر وغيرها من الألفاظ الدالة .

ومن هنا تتحصل الإجابة على هذا التساؤل ، الذي قد يتيح لنا التعميم بأن المطالع المختلفة في القصيدة الأندلسية التي تتناول شعر الحرب والفتنة تخدم بصورة كبير المقاطع المختلفة في القصيدة ، ما يمثل ردا على كل من اعتبر القصيدة العربية القديمة قائمة على وحدة البيت ؛ فمن خلال دراستنا لإحدى علامات النص (اللون) في المقاطع والمطالع تبين وجود خيوط ناظمة لأجزاء القصيدة ، تجعلها بنية متراكبة متماسكة ، وتبقى هذه الروابط بحاجة إلى من يفككها ويفهم دوالها وعلاقاتها، وهو ما يسعى إليه النقاد المحدثون عبر استخدامهم

لمناهج النقد الأدبي الحديث بآلياتها وتقاناتها المتنوعة ، وقد استخدم الباحث في هذه الدراسة إحدى علامات الدراسة السميولوجية.

إن الاستمرار في دراسة حضور اللون في المقطع الشعري للقصيدة الأندلسية ، قد يقودنا نحو الاستطراد كثيرا ، والابتعاد لكن الباحث يكتفي بهذا القدر على سبيل التمثيل والإبانة ، فإنه قد تقدم في الفصول السابقة من هذه الأطروحة تناول إشارات ودلالات الألوان من خلال ورودها في مقاطع متعددة في القصيدة من خلال مواطنا وأبعادها ودورها في رسم الصورة التجريدية .

وعلى كل حال فمن خلال ما تقدم يمكن القول بأن الحضور اللوني يتباين من نص إلى آخر ، تبعا للتصورات التي بنى الشاعر الأندلسي عليها نصه الشعري ، هذه التصورات تسهم بصورة واسعة في رسم معالم الخطاب الشعري للشاعر ، وتفرض عليه دمج اللون بين عناصره التشكيلية ليبرز دوره المركزي في تجلية المواقف والمشاهد.

المبحث الثاني : حضور اللون في إيقاع اللون

تعلقت اللغة بالألوان منذ اللحظة التي صافحت أعين الإنسان فقه الحياة وجوهر الوجود ، فكان الليل بسواده ، والنهار ببياضه ، والبحر بزرقته ، والنار باحمرارها ، والشجر باخضراراه ، شواهد على ارتباط الظاهرة الكونية اللونية بالفكر الإنساني ، والتعبيرات التي تواضع عليها هو وأبناء جلدته في فترات مختلفة من الحياة الخاصة [1] .

فمن الطبيعي جداً أن يتخلل النصوص الأدبية التي تعتبر شاشة ماسحة للواقع ، معبرة عن خلجاته، إيقاعا لونيا جميلاً تارة بكثافته وأخرى بحضوره وثالثة بتكراره ،مستهدفاً تجلية الخطاب الشعري سواء على صعيد الشعراء أم الفنون الشعرية .

وبعيدا عن دراسة البنية الإيقاعية للنص الشعري اعتنت الدراسة السيميائية في تناولها للإيقاع على اللون باعتباره علامة بارزة من شأنها إبراز الخطاب الشعري العام لدى جملة من الشعراء تجمعهم حقبة زمنية واحدة أو موضوع فني واحد .

وأمام هذه الظاهرة سيقتصر بحثنا في الإيقاع اللوني لمحاولة قياس مدى تأثير الإيقاع اللوني المباشر وغير المباشر في الخطاب ، وهل يمكن لنا القول بأن إيقاع اللون شكل صورة متوازنة متناغمة للطبيعة ونزعاتها الواقعية ؟،وذلك من خلال النماذج الشعرية المختلفة.

---

[1] ينظر :عبد الجليل ،المعجم الوظيفي لمقاييس الأدوات النحوية والصرفية (ص 83).

أولا: إيقاع اللون والخطاب الشعري

ينبثق هذا النوع من الإيقاع من خلال الألوان المعروفة بألفاظها الصريحة والمباشرة كالأبيض والأسود والأحمر والأخضر ... .

وقد جاءت الألوان في شعر الحروب والفتن الأندلسي مرتبطة بتجسيد الواقع ، فأضحى كأنه مرسوم بريشة فنان مبدع ، بدا ذلك ظاهرا من خلال توظيف الشعراء لألفاظ الألوان العامة والمباشرة ، حيث أضحى اللون برمزيته شيئا متقاسما بين الشاعر وبين المتلقي ، حيث اتخذ اللون منحى لوصف الأشياء وتجسيمها ، ما أدى إلى تقريب شكلها ومقاصدها في الأذهان" ولعل مرد ذلك إلى حرص العربي ودقته في التفريق الدلالي والتشخيص الدقيق لقيم الألوان ، وكذلك التفريق بين ثبات الصفة وشدة تمثيلها للمنعوت "[1].

وكان معظم الإيقاع اللوني صريحاً ومباشراً ما يؤكد وعي الشاعر الأندلسي في اختياره الدقيق للون ، الذي يعبر عن مختلجاته ، وتدفق إيحاءاته ومعانيه ، يتضح ذلك من خلال تنوع الصيغ الصرفية التي ذكرت من خلالها الألوان ، والجدول الآتي يوضح تلك الصيغ .

اللون	صيغ وروده
الأبيض	أبيض ، الأبيض ، بيضا ، بيضاء ، مبيض ، ابيضاض ، بياض ، يبيض ، أبيضا .
الأسود	أسود ، الأسود ، سوادا ، سود، اسوداد ، سوداء ، يسود ، مسود ، سوَّد .
الأحمر	أحمر ، الأحمر ، حمر ، احمرار ، حمرا ، محمر ، يحمر ، حمراء ، حمَّر .
الأخضر	أخضر ، الأخضر ، خضراء ، خضرة ، اخضرار ، خضر ، مخضر ، اخضر.

[1] عبد الجليل ، المعجم الوظيفي لمقاييس الأدوات النحوية والصرفية (ص 86) .

الأزرق	زرقاء ، أزرق ، الأزرق ، زرق ، زرقا ، ازْرَقَّ ، زرقاء .
الأصفر	أصفر ، الصفر ، صفرا ، الأصفر ، اصفرار ، صفرة ، اصفرت ، صفراء ، مصفر، صفر.
الأشقر	شقر ، الأشقر .
الأسمر	سمر ، سمراء ، السمر ، الأسمر .
الوردي	الورد ، وردا ، ورد .
الكحلي	مكاحل ، اكتحل .

ومن خلال استقراء النماذج الشعرية الواردة في الفصول السابقة ، والتي مثلت مادة الدراسة يمكن لنا القول بأن اختلاف الألوان الموظفة في شعر الحروب والفتن الأندلسي ، مرتبط بعمق دلالتها على مختلف الأبعاد الدينية والسياسية والاقتصادية والثقافية والاجتماعية المحيطة بالمجتمع الأندلسي على اختلاف العصور والحقب الزمانية .

يلاحظ في الجدول السابق انحسار الاشتقاق اللوني لكل من (الأشقر ، والوردي والكحلي) على الرغم من انتشارها في البيئة الأندلسية كبقية الألوان ، ما يشي بأن الشاعر الأندلسي مارس انتقائية عالية للألوان ، حيث صبغ عليها من الأوصاف ما يريد أن ينقله إلى المتلقي .

فقد تعلق اللون بالمعاني الدينية من خلال استخدام الشعراء لذات الدلالات اللونية القرآنية تارة ، وباستعمال الشعراء الألوان في إطار متناص مع القرآن الكريم والسنة النبوية تارة أخرى ؛ أما في الإطار الأسطوري فقد كشفت الألوان كما هائلا من العلاقات الأسطورية المتصلة باللون المستخدم في شعر الحروب والفتن الأندلسي .

وكذلك الحال مثل اللون رديفا مهما لمعان مختلفة جسدت الحياة السياسية التي عايشت الواقع بأفراحه وأتراحه .

وفي الغالب لجأ الشاعر الأندلسي إلى الألوان القاتمة المعبرة عن مشاعر الحزن والأسى والألم والوجع المدفون بين الأبيات الشعرية ، من أجل تجسيد الأحداث العظيمة التي تعرضت لها الأندلس.

وكان الشعراء يستذكرون الكثير من ملمات الدهر ، وحوادثه الأليمة التي أصابت أصحابها من أسلافهم ، وخلدوا ذلك في أشعارهم حيث ذكرت قتال الفرس ، والروم ،وقتل عثمان ، والفتنة بين المسلمين في عهد علي بن أبي طالب – رضي الله عنه – وغيرها يقول ابن عبدون مستعملا اللون الأسود عبر اشتقاقين مختلفين (السود – السمر) للتعبير عن تلك المصائب المتتابعة على المسلمين :

وخضبت شيب عثمان دما وخطت إلى الزبير ولم تستح من عمر

فالدهر حرب وإن أبدى مسالمة والبيض السود مثل البيض والسمر [1]

فهذا التفجع على ما فات من المسلمين ، في تعدد لصيغ التفجع ، يؤكد على تلك الهزيمة النفسية ، إنه الدهر الذي تلاعب بالمسلمين ، فهو عليهم حرب تساوت أيامه فأبيضها كالسيف يقبل على إراقة الدماء ، وأسودها كالرمح يزهق النفوس ويرهقها.

إنها نتائج المرارة والحسرة الكبيرة التي أصابت المسلمين ، جاءت في قصائد الشعراء بصدق واقعي ، وحرارة ملتهبة ، وقلب موجوع محترق على ما فات من حياة رغيدة هنيئة .

عزف الشاعر الأندلسي على إيقاعات لونية متعددة ، ساهمت في إبراز لغة خطابهم الشعري كان اللون الأبيض أغزرها أثرا في المتلقي ، لجأ إليه الشعراء فأحملوه رمزية عالية اتسمت بذكريات غائرة في وجدان الشعراء حملت معالم الاستقرار والهدوء والجمال .

يكثر الشعراء من التنقل بين ايقاعي اللونين الأبيض والأسود ،فدل اللون الأسود على الشقاء في الحياة ،في مقابله دل اللون الأبيض على السعادة في الشطر الأول، يقول الشاعر :

---

[1] ابن عبدون ، الديوان (ص 139).

وساعاتُ الفَتى سُودٌ وَبِيضٌ تُرَحِّلُ سُودَ لِمّتِهِ ببيضِ[1]

فالحياة ما هي إلا ساعات سوداء فيها الشقاء والتعب، وساعات جميلة بيضاء فيها الخير والحسن ، فقد كان اللونين الأبيض والأسود يشيران إلى انقلاب الزمن وتغيره ،خاصة حين أشار إلى تبدل لون الشعر من الأسود الدال على الشباب والحيوية إلى الأبيض الذي يدل على قرب النهاية .

وبهذا أضحى الإيقاع اللوني في الألوان المختلفة يساهم بصورة كبيرة في التعبير عن مفردات الخطاب الشعري الملتزم بتصوير الواقع المندمج مع الخيال الفني .

---

[1] ابن حمديس ، الديوان (ص295) .

ثانيا: إيقاعية التكرار اللوني

يعد التكرار من الظواهر اللغوية المشتركة بين جميع اللغات ، وكرر الشيء أي أعاده مرة أخرى ، وكررت عليه الحديث أي رددته عليه ، والكر الرجوع على الشيء ، ومنه التكرار[1] ، وقال فيه ابن الأثير هو:" دلالة اللفظ على المعنى مرددا " [2] .

ويقول ابن رشيق معرفا التكرار:" أن يأتي الشاعر بلفظة متعلقة بمعنى ثم يرددها بعينها متعلقة بمعنى آخر في البيت نفسه ، أو قسيم منه "[3] ، كما عدها من أهم مزايا الإبداع الشعري خاصة أنهم وجدوها تكثر في شعر المحدثين أكثر منها في شعر الجاهليين القدماء .

وقد اعتمدت الدراسات الحداثية على دراسة التكرار فبنت أحكامها النقدية الجادة والكاشفة عن سر جمال النص الأدبي ، فلجأت هذه الدراسات إلى الإجراءات الإحصائية كونها إحدى مرتكزات الدراسة الأسلوبية والبلاغية ، وتركز تلك الدراسات على " الظواهر الأسلوبية المتكررة داخل النص الأدبي ، بحيث تشكل ظاهرة أو مثيرا أسلوبيا نابعا من التكرار "[4] .

لاحظ الباحث كثافة التعبيرات اللونية المكررة في شعر الحروب والفتن الأندلسي ، سواء على صعيد التنوع في الصياغة الصرفية والاشتقاقية في ألفاظ الألوان كما رصد في المبحث السابق ، أو على صعيد الكثافة من حيث الحضور .

لا شك أن علماء النفس يتفقون على أنه ما من كلمة أو تعبير يتكرر لدى المتكلم أديبا أو غيره إلا وكان لذلك بعد نفسي تكشفه طبيعة التكرار وكثافته ، هذا إن كان الأمر طبيعيا ، فكيف إن كان مقصودا من قبل أديب واعٍ بأبعاد الحياة المحيطة به ، وما فيها من اختلاف ؟ ، ومن هنا يعتبر " التكرار الصوتي يشكل لازمة وخاصة في الشعر تحقق أكثر من بعد على مستوى الإيقاع والوزن ، وشكل من أشكال التبئير الأسلوبي "[5].

---

[1] ينظر: ابن منظور ، لسان العرب (ج135/5).

[2] ابن الأثير ، المثل السائر (ج3/ 7).

[3] ابن رشيق ، العمدة (566/1) .

[4] عبد الرحمن ، دراسة أسلوبية في سورة الكهف (ص 86) .

[5] فضل ، علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته (ص 256) .

وقد ظهر في القاموس الشعري لشعر الحروب والفتن الأندلسي أحد عشر لونا هي : (الأبيض ، والأسود ، والأسمر ، والأحمر ، والأخضر ، والأزرق ، والأصفر ، والوردي ، والكحلي ، والأشقر ، والذهبي) .

لوحظ سيطرة الألوان الأساسية (الأبيض ، والأسود ، والأحمر ، والأخضر ، والأزرق ، والأصفر) على المعجم اللوني لهذا الشعر ، في حين قلت نسبة ورود الألوان الأخرى ، لعل ذلك يرجع إلى شهرة الألوان الرئيسية ، فهي أكثر ألفة من الثانوية لدى المبدع والمتلقي على حد سواء ، فالأحمر لون الدم ، والأخضر لون الربيع ، وهكذا دواليك .

تعالقت دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن كثيرا مع الواقع ، غير أن الشعراء الأندلسيين ساهموا في عملية انزياح دلالي مقصودة للألوان في قصائدهم الشعرية ، حيث دل اللون الواحد في بعض الأشعار على الشيء وضده ، أسهم في ذلك السياق الدلالي الذي يحكم فهم المعاني.

وقد قام الباحث بإحصاء الألفاظ اللونية المباشرة في مادة الدراسة المكونة من ثلاثمائة وأربع عشرة قصيدة ومقطوعة فظهرت النتائج الإحصائية الآتية :

يعد اللون الأبيض في شعر الحروب والفتن في الأندلس أكثر الألوان ورودا حيث تكرر في أشعار الدراسة إحدى وتسعين مرة تراوحت في الدلالة على السلاح أو الجمال أو المرض وغروب العمر ، لكن في الأعم الغالب رمز هذا اللون إلى الصفاء والطهر والنقاء ، وغيرها من الدلالات التي تمت الإشارة لها فيما سبق .

جاء اللون الأسود المقابل للون الأبيض بألفاظه ومشتقاته (أسود – أدهم – أسمر) وقد ورد سبعين مرة بدلالات متعددة منها الموروثة في الإشارات التشاؤمية ، ومنها التفاؤلية كالدلالة على القوة ، وتحقيق النصر على الأعداء .

وقد كان لحضور هذين اللونين بالكثافة المذكورة أعلاه ، إشارة إلى حجم القلق والمعاناة ، والتيه ، التي عانى منها الأندلسي في حقب مختلفة من تاريخ استقراره في الجزيرة الإيبيرية ، حيث تنوعت حياته بين الأمن وفقدانه ، والسعادة والشقاء ، والاستقرار والغربة ، وغيرها من

المتناقضات ، فما كانت تنتهي فتنة إلا وجاءت أختها ، وما استقر الحكم لفئة إلا حطمته ثانية ، وهكذا ورث الأندلسي تلك الحالة من التوتر والقلق على المصير .

أما اللون الأحمر فقد جاء ثالث هذه الألوان ورودا وقد ورد خمسا وأربعين مرة بصيغه المختلفة ، وهو لون سائد في الجو الحربي بشكل عام ، واستدعاه الشعراء إشارة إلى قوة الممدوحين والمقاتلين ، وعلامة من علامات العلو وارتفاع الشأن .

تلا اللون الأخضر تلك الألوان ، وكثيرا ما قرنه الشعراء باللون الأحمر نظرا لدلالته على معاني الخير والخصب والنماء الناجم من تحقق الانتصارات ، أو قدوم حاكم أو أمير إلى البلاد ، كما أشار هذا اللون إلى كثافة السلاح ، وتمام الجهوزية للقتال ، وقد ورد هذا اللون سبعا وعشرين مرة في الأشعار مادة الدراسة .

جاء اللون الأزرق في المرتبة الخامسة ، فتكرر أربعا وعشرين مرة ، وجاءت دلالاته في أغلبها على الخير والصفاء باستثناء بعض المواطن التي دلت على الخبث والمكر والمرض .

نختتم الألوان الأساسية بأقلها ورودا وهو اللون الأصفر ، حيث ارتبط هذا اللون بالجنس الأوروبي بصورة كبيرة ، وكان علامة بارزة للمكر والجبن والخيانة ، وقد ورد هذا اللون ثلاثا وعشرين مرة .

أما الألوان الأخرى فقد وردت بنسب قليلة لا تستوجب الذكر ، وفيما يأتي جدول التكرار اللوني نوضح فيه ترتيب الظهور اللوني في شعر الحروب والفتن الأندلسي .

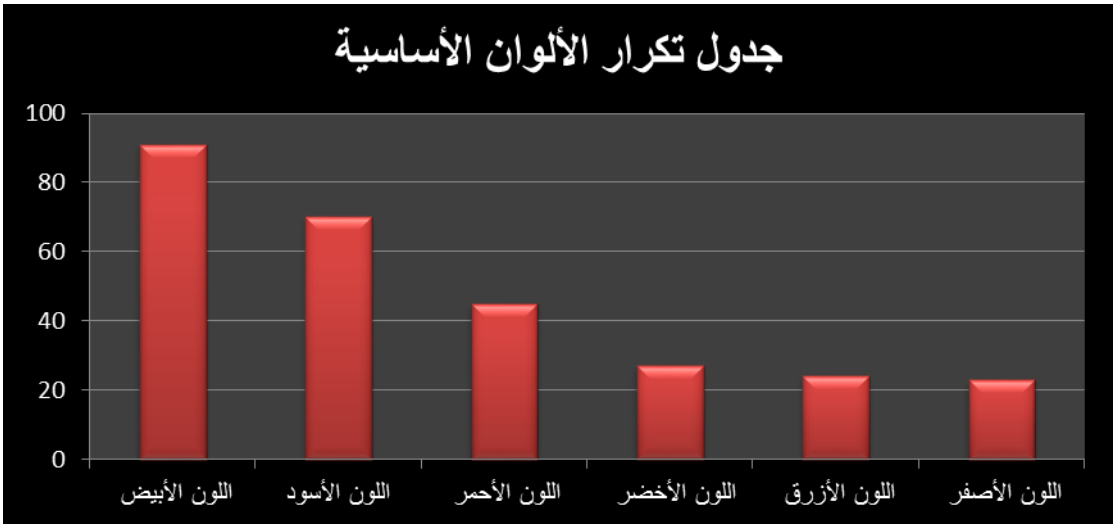

لوحظ في أشعار الحروب والفتن في الأندلس تكرار لوني ، يسهم في تكوين إيقاعية النص الشعري ، من خلال المقطوعات والأبيات الشعرية المختلفة فمثلا يقول الشاعر المهند :

وليل بت أكلؤه بهيم كأن على مفارقه غرابا
كأن سماءه بحر خضم كساه الموج ملتطما حبابا
كأن نجومه الزهر الهوادي وجوه أخضلت تبغي الثوابا
كأن كواكب ا لجوزاء شرب تعاطيهم ولائدهم شرابا[1]

ففي النص السابق تكرار لسوداوية المشهد ، الدال على الحزن في إطار الشكوى والأنين حيث افتتح البيت الأول بلفظة (الليل) ، واختتم المصراع الأول بلفظة (بهيم) ، وأقفل البيت بلفظة (غرابا) ، إنها إيقاعية متنامية للتكرار اللوني للأسود ، فالشاعر بوعيه كأنه يريد أن يرد العجز على الصدر ليشكل إيقاعا لونيا محملا بأعباء الدنيا ، مثقلا بالأكدار والهموم .

لكن الجمال التكراري المشكل في المقطوعة السابقة لم ينته عند حدود البيت الأول بل تلا البيت أبيات كثيرة افتتحت بلفظة (كأن) ، فالشاعر لا يريد من المتلقي أن يغادر الجو والبيئة الخاصة بالنص بل يريد منه أن يظل يستشعر ألوانا دافئة أخرى تساهم في فهم النص

---

[1] الكتاني،التشبيهات من أشعار الأندلس (ص 22).

وأبعاده عبر إيقاعية لونية جميلة زرقاء كلون البحر ، بيضاء كلون زبده ، والنجوم الحمراء المشاكلة للون الشراب خجلا وحياء .

ومن أمثلة التكرار اللوني أيضا قول الأعمى التطيلي :

والليلُ كالبحرِ وإنْ لم يَلتَطم

جونُ ظلامٍ هل سمعت بالرِّجم

أسحمُ حتى ليسَ في شيءٍ سَحَم

لو خُلِقَ الشبابُ منه لَسُئِمْ

أو كان موصولاً به لما انْصَرم

والأرضُ منه غرة وهي غمم

قد ادلهمَّتْ في دجاه وادلهم

ليلٌ يجيبُ صُبْحُهُ عن هَلْ بِلَمْ

لا ينفخُ السارونَ منه في قَحَم[1]

ففي المقطوعة السابقة جاء الزخم اللوني على بحر الرجز ، وتفعيلاته المتتابعة التي تخللها ألفاظ تخص الظلمة وتنويعاتها اللفظية ، مما جعل مقطوعته متماثلة صوتيا مع دلالات اللون الأسود وموحياته .

واتخذ الشاعر من التكرار اللوني داخل المقطوعة سبيلا يرتكز عليه في رسم مشهد العتمة التي ظهرت جلية من بداية المقطوعة حيث تشبيه الليل بالبحر الساكن في ظلمته التي لا يكاد يتخللها نور .

---

[1] الأعمى التطيلي ، **الديوان** (ص 156).

وكان للاحساس بزخم السواد من خلال الألفاظ (الليل – جون ظلام – أسحم – سحم –غمم– ادلهمت – دجاه – ليل – ادلهم) أثر في الإيقاع الساكن المتعلق بتمام العتمة في المشهد الموصوف ليعزز ويكثف هذا اللون وتأثيراته النفسية .

ومن شواهد التكرار اللفظي ما كثر في الأشعار من اشتقاق ألفاظ الألوان في البيت الواحد قول القرطاجني :

متى شاءَ لم يقنع من القِرن نَصْلُهُ بغير سوادِ الطَّرف أو بالسُّويداءِ
يرى كلّ خافي مقتلٍ من سنانه بعينٍ كزرقاء اليمامة زرقاءِ[1]

فقد وردت في البيت الأول صيغتان للون الأسود الأول (سواد) وقد وسمت بها العين ، و(السويداء) كناية عن القلب ، وقد ساهم هذا التكرار اللفظي اللوني في تراتبية الإيقاع الموسيقي ،أتمه الجناس في البيت الثاني في اللفظة اللونية (زرقاء) الدلة على اسم العلم ، ولون العين الأزرق المكنى به عن المكر .

إن هذا التكرار اللوني يورث النص الأدبي جمالا إيقاعيا موسيقيا ، إضافة إلى توكيده لمعانٍ سعى الشاعر إلى تقريرها في ذهن المتلقي .

يقول ابن دراج مقررا حقيقة النصر لتكون ماثلة في ذهن المتلقي دون أن يصيبه شك في تصديقه ، مستعينا بالتكرار اللوني المعتمد على الألفاظ المختلفة :

حَتَّى أَعادَ الدِّينَ أَبيضَ مُشْرِقاً بسيوفِهِ والكُفْرَ أدْهَمَ أَسْوَدَا[2]

فبتكرار (أبيض – مشرقا) و (أدهم – أسودا) تقرر في ذهن المتلقي الشيء ما يضاده ، وساهم بصورة كبيرة في تحقيق الإيقاع الموسيقي المساعد على الشعور بالجمال الفني للتراكيب اللفظية المختلفة خاصة اللونية منها .

ومن التكرار اللوني أيضا قول الشاعر :

فَمَا بيضت كَفاك بِالْعَدْلِ لم تزل تسوده بِالجَوْرِ كَفٌّ ابْنِ أَسْوَدِ[1]

---

[1] القرطاجني، الديوان (ص 5).
[2] ابن دراج، الديوان (ص 453) .

لقد أسهمت الثنائية الضدية بين الأبيض والأسود في إبانة المقصد والإيضاح ، وقرر ذلك المعنى وجود التكرار اللوني بين (تسوده – ابن الأسود) فعل الرغم من أن الأسود يحمل دلالة العلمية ، لكن الشاعر ألصقه باللون نظير ظلمه الكبير الذي يسود ذكره بين الناس ، ويذله، وبهاتين التقانتين تمكن الشاعر من تنمية الإيقاع الموسيقي في النص .

ويمكننا القول بعد أن خرجنا من هذا الفصل أن التجلي اللوني ظهر في النصوص الشعرية موطن الدراسة بصورة معبرة دقيقة جسدت شخصية الشاعر الأندلسي المتعلق بالواقع المحيط ، حيث كان الشاعر ابن بيئته ، التي ملكت كيانه وروحه ، فجال في مخيلته صورا لونية تبلورت في إيحاءات تدل عليها.

برز ذلك من خلال ذلك الحضور اللوني المعبر عن الفكرة الأندلسية مكانا وتأريخا زمانيا ، حيث أدى اللون دوره الخطابي من خلال المطالع والمقاطع في القصيدة الأندلسية.

وقد استعان الشاعر الأندلسي باللون لرسم إيقاعية جميلة ، تتواءم بتراتبية عالية مع جوه النفسي الخاص ، عن طريق استحضار الألوان المباشرة وغير المباشرة بصيغها المختلفة ، ما أدي إلى تنوعها الدلالي ، وربط المتلقي بها .

ومن خلال الدراسة التحليلية للتكرار اللوني ، أدرك الباحث أن الشاعر الأندلسي لم يكن استحضاره للون جزافا أو عن طريق الصدفة ، بل كان مقصودا ، ظهر ذلك من خلال النماذج الإحصائية .

---

[1] ابن سعيد المغربي،المغرب في حلى المغرب (ج2/ 270).

الخاتمة

تناول الباحث في صفحات الدراسة السابقة " دلالات الألوان في شعر الحروب والفتن في الأندلس" ، وقد تم تقسيم الدراسة إلى تمهيد وخمسة فصول وخاتمة، غطت الجوانب الموضوعية والفنية المتعلقة بمضمون الدراسة.

وبعد أن قطع الباحث جولة سريعة في ربى هذه الدراسة آن له أن يضع رحله أمام النتائج التي تم التوصل إليها ، والتي يمكن إجمالها فيما يأتي :

1- يعطي اللون قدرا كبيرا من العناصر الجمالية والأبعاد الفنية للنص الأدبي، ويخلق في الإبداع الفني طاقة خاصة تؤسس لصورة جديدة وجميلة .
2- ظهر شعر الحروب والفتن في الأندلس نتيجة لعوامل مختلفة كان أهمها الصراع القبلي والطائفي على حكم الأندلس ، إضافة إلى كثرة التهديدات الخارجية التي تمس أمن الأندلس واستقرارها ، ما أدى إلى أن يقوم الشعراء بدورهم التاريخي في التحريض على الجهاد ، ومقاومة البغاة ، وتوحيد صفوف الأمة ، والتنظير للأمراء والملوك والخلفاء .
3- تنوعت أغراض شعر الحروب والفتن ما بين رثاء للمدن والممالك الساقطة ، حيث بكى عليها الشعراء، واستغاثة واستنجاد بالمسلمين من الإخوان والجيران لإزالة تلك النكبات المتلاحقة ، إضافة إلى ظهور فنون المديح السياسي ، والهجاء السياسي ، وتخليد البطولات والانتصارات.
4- تميزت أشعار الحروب والفتن الأندلسي بخصائص فنية من أهمها: رقة الكلمات ، وصدق العواطف ، وطغيان مفردات الحزن والحسرة والتوجع على معجمها الشعري ، وزخرت بالحكمة ، والتضمين لآيات القرآن عظيم ، وأحاديث النبي الكريم- صلى الله عليه وسلم- ، وقد كثرت الاستدعاءات التاريخية لمشاهد من تاريخ الأمة الإسلامية .
5- مثلت العوامل المختلفة المحيطة بالشعراء في الأندلس مصدر إلهام مهم لهم ، وقد تعددت مواطن الألوان ودلالاتهما عندهم .

- فتعددت دلالات اللون الأبيض حيث كان سمة جمال في الإنسان ، بينما سمة حزن حين تستخدم في الثياب ؛ فقد كانت ثياب الحداد بيضاء ، أما في الطبيعة فقد رمز إلى الصفاء ، والأمن والطمأنينة .
- أما اللون الأسود فقد دل بسمة عامة على السلبية في الإنسان فالقلب الأسود دل على سوء النية ، والثوب الأسود دل على فقدان الأحبة ، لكنه ورد في عدة مواطن حاملا دلالة إيجابية كسواد العيون ، وسواد الجيش الدال على كثرته .
- أطلق الشعراء الأندلسيون ألفاظ اللون الأسود (أسمر – أسود – أدهم) على أدوات الحرب والقتال في إشارة إلى قوتها ، ودقة إصابتها ، ومتانة تصميمها.
- تعددت مواطن اللون الأحمر في شعر الحروب والفتن فقد استعار الشعراء اللون الأحمر من الإنسان لأداء تعابير مختلفة فالوجه الأحمر دل على الذل أو الخجل ، أو الخوف ، أو الجمال العربي ، ولون البشرة الأحمر دل على المرض أو البرص، كما دل لون الدم على القتلى وكلما كان قاتما كان أشد أثرا وأكثر إيلاما ، كما أطلقوا ألفاظ اللون على عناصر مختلفة في الطبيعة فالماء الأحمر دل على كثرة دماء القتلى فيه ، وكذلك الجدول الأحمر ، والنار الحمراء حيث تدل على الإضاءة تارة أو الحداد و الدمار تارة أخرى .
- كانت دلالة اللون الأخضر ايجابية ، فقد اعتز به الشعراء فهو لون الطبيعة ، واعتبروه لون الخصب والنماء ، والأمن والاطمئنان ، ورمزوا به للدلالة على كثرة السلاح ، وقوة الجيوش ، وشدة بأس المقاتلين ، وسرعة مناورة الخيول ، وغيرها من الإشارات .
- تعلق اللون الأصفر بالدلالة الإيجابية في الآلات والخيول ، وبالدلالة السلبية في الإنسان ، حيث كانت العرب تتشاءم منه ، وحمل دلالات الخضوع ، والانكسار، والذل ، والمهانة، والجبن ،والخوف .
- نوع الشعراء في استعمالهم للون الأزرق ، ففي الطبيعة كان لون صفاء ، وخير ،وقوة ؛ أما في الإنسان فدل بعمومه على صفات مذمومة اتصلت بالمرض ، المكر ، والخيانة .

6- حمل اللون في شعر الحروب والفتن في الأندلس نواحٍ مختلفة ، وقد نجح الشعراء من خلال استدعائهم للون أن يصوروا واقع مجتمعهم الأندلسي بأبعاده الدينية والسياسية والاجتماعية .

- ففي البعد السياسي نجح اللون المستخدم في النص الشعري أن ينقل الحياة السياسية الواقعية في المجتمع الأندلسي .
- وفي البعد الاجتماعي ظهرت بعض الجوانب الاجتماعية التي كان للون دور مهم في كشفها تتعلق بلباس الأندلسيين ، ومسكنهم ، وتوصيف طبيعة المجتمع المحلي ، وإظهار للصراع الطائفي والقبلي حيث كان اللون وسيلة انتصار للقبيلة والجنس .
- تنوعت الإشارات النفسية الناتجة عن الاستعمال اللوني في القصيدة الشعرية ، حيث ارتبطت بقيم نفسية تتنقل بين الخوف والفرح ، والحب والكره ، والعزة والانكسار ، والقلق والاطمئنان ، والتفاؤل والتشاؤم .

7- وقد تشاكل استعمال الشعراء للون مع الاستعمال القرآني ما كشف الثقافة السائدة عندهم ، حيث ظهرت تقنيات التناص اللوني مع القرآن الكريم في شعر الحروب والفتن ، في سياق تعبيري مشبع بالألوان المؤكدة للفكرة الدينية .

8- وظف الشعراء الأندلسيون الأسطورة ، حيث تنوع هذا التوظيف بين الألوان المباشرة وغير المباشرة ، وقد حشد الشاعر الأندلسي كما كبيرا من الإشارات الأسطورية المساهمة في تجلية الاستخدام اللوني في النصوص الشعرية.

9- أسهمت الألوان في إبراز الصورة الشعرية الحسية ، حيث كشفت علاقات قوية بين اللون الاستعارة ، واللون والتشبيه ، واللون والكناية ، واللون وعلاقات التضاد ، حيث أسهمت هذه العلاقات في إظهار مشهد ملون من شأنه أن يبرز المفاهيم ، ويوضح الأفكار ، ويرسخ المعاني في أذهان المتلقين.

10- برزت الصورة التجريدية من خلال حشد كبير من الصور المركبة ، حيث كان التشخيص أكثر الأدوات شيوعا في استخدام الشعراء ، ما بث الحيوية والانفعالية في النص الشعري ، فقد تحولت المجردات إلى أدوات تحمل مشاعر الشعراء وأحاسيسهم فتشاطرهم بها.

11- تجلت قيمة اللون في الخطاب الشعري لدى شعراء الحروب والفتن الأندلسيين ، من خلال الحضور اللوني المعبر والمقصود ، والذي استخدمه الشعراء في مطالعهم ومقاطعهم الشعرية على حد سواء .

12- وقد كشف البحث وجو علاقة ناظمة بين المطلع والمقطع تتعلق بالمعاني ، والمفاهيم السياقية لدى المتلقي .

13- رسم اللون إيقاعية فنية متوائمة مع الجو النفسي الخاص للشعراء ، وقد اتضح ذلك من خلال النماذج الإحصائية المستخدمة والتي ترصد الصيغ اللونية وتنوع ورودها، وقد مثل التكرار اللوني أحد أدوات الإيقاع .

أما التوصيات فإني أوصي الباحثين بما يأتي :

1- دراسة الأدب العربي القديم بالمناهج النقدية الحداثية تسهم في الكشف عن زوايا مغلقة تخدم الحركة النقدية الحديثة .

2- إجراء دراسات في الأدب الأندلسي في ضوء التوظيف التراثي يساهم بصورة كبيرة في الكشف عن مظاهر التنوع والثراء الفكري والأدبي لدى شراء الأندلس .

3- دراسة شعر الحنين والغربة في الأدب الأندلسي أسلوبيا وسيميائيا حيث لم أقع على دراسة حديثة لهذا النوع من الأشعار .

4- يمكن للباحثين دراسة البنية الإيقاعية في شعر الحروب والفتن من خلال النماذج الكثيرة لتسهم في الكشف عن الأثر النفسي والدلالي للإيقاع الموسيقي وفق نظرية النقد البنيوية.

المصادر والمراجع

المصادر والمراجع

القرآن الكريم.

ابن الأبار البلنسي . (1985م). *الحلة السيراء* .تحقيق: حسين مؤنس.ط2. القاهرة . دار المعارف.

ابن الأبار البلنسي.(1999م). *الديوان* .قراءة وتعليق : عبد السلام هراس . المغرب: مطبعة وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.

إبراهيم، عبد الحميد. (1989م). *قاموس الألوان عند العرب*. (د.ط). القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب .

ابن سهل الأندلسي.(1953م). *الديوان* . تحقيق: بطرس البستاني. (د.ط).بيروت: دار صادر.

ابن الأثير، ضياء الدين.(د.ت). *المثل السائر في أدب الكاتب والشاعر* . تحقيق: أحمد الحوفي ، وبدوي طبانة .ط2.الرياض: منشورات دار الرفاعي.

أحمد بن عبد السلام (1991م)، *الحماسة المغربية* ،تحقيق: محمد رضوان الداية.ط1.بيروت: دار الفكر المعاصر .

الأخضر مديني ، بن حويلي.(2005م). الفيض الفني في سيميائية الألوان عند نزار قباني .دمشق. *مجلة جامعة دمشق*. المجلد21. العدد(3+4) ، ص111-135.

ارمان . أدولف.(1995م) *ديانة مصر القديمة* . ترجمة: عبد المنعم أبو بكر ، ومحمد أنور شكري . (د.ط). القاهرة: مكتبة مدبولي.

إسماعيل، عز الدين. (1962م). (د.ط). *التفسير النفسي للأدب* .القاهرة .

الأصبهاني، عماد الدين .(د.ت) *خريدة العصر – قسم شعراء الأندلس* . تحقيق: آذرتاش آذرنوش ، نقحه وزاد عليه.محمد المرزوقي. ط1. العراق كوزارة الإعلام .

الأصفهاني، الراغب. *مفردات ألفاظ القرآن* ، تحقيق. صفوان داؤدي. ط1. دمشق . دار القلم.

الأعمى التطيلي. (د.ت). *الديوان* ، تحقيق. إحسان عباس . (د.ط).بيروت: دار الثقافة.

امرؤ القيس ، ابن حجر. (2004م) . الديوان .ط5. لبنان :دار الكتب العلمية .

امين، بكري شيخ. (1986م) *مطالعات في الشعر المملوكي والعثماني* . (د.ط). بيروت: دار العلم للملايين.

ابن بسام، علي بن بسام . (1953م). *الذخيرة في محاسن أهل الجزيرة*. تحقيق: إحسان عباس . (د.ط). بيروت : دار الثقافة.

بلا نسبة .(1965م). *ديوان الهذليين* . (د.ط).القاهرة: الدار القومية – نسخة مصورة عن مطبعة دار الكتاب.

بنكراد ، سعيد. (2003م) .السيميائيات مفاهيمها وتطبيقاتها. ط1. الدار البيضاء : منشورات الزمن مطبعة النجاح الجديدة .

بهجت ، منجد.(1988م) *الأدب الأندلسي من الفتح حتى سقوط غرناطة*.ط1. العراق : جامعة الموصل.

أبو تمام، حبيب بن أوس.(د.ت) . *الديوان شرح الخطيب التبريزي*.تحقيق: محمد عزام .ط2 . مصر: دار المعارف .

الثعالبي ، أبو منصور عبد الملك بن محمد. (2001م). *فقه اللغة*. تحقيق: جمال طلبة. (د.ط).بيروت : دار الكتب العلمية .

الجاحظ ، أبو عثمان عمرو بن بحر.(1969م). *الحيوان* . تحقيق: عبد السلام هارون.ط3 . منشورات المجمع العربي الإسلامي.

جبري، شفيق.(1967م). *لغة الألوان* . دمشق: مجلة مجمع اللغة العربية . عدد

الجرجاني ، عبد القاهر.(1991م) *أسرار البلاغة* .تحقيق: محمود شاكر.ط1. القاهرة: مطبعة المدني.

جرير .(1994م). *الديوان* .تحقيق : كرم البستاني.ط1.بيروت: دار صادر.

جرير .(1995م)*شرح ديوان جرير* ، شرحه. مهدي محمد ناصر الدين . (د.ط). بيروت: دار الكتب العلمية .

ابن جندل، سلامة.(1987م). *الديوان*. تحقيق: فخر الدين قباوة.ط2.بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن جني.(د.ت). *الخصائص*. تحقيق: محمد علي النجار. (د.ط).بيروت: عالم الكتب .

جودي . محمد حسين.(1997م) *تاريخ الأزياء القديم* . ط1. عمان : دار صفاء للطباعة .

حاتم . عماد. (د ت). *أساطير اليونان*. (د.ط). الدار العربية للكتاب . ليبيا: طرابلس .

ابن الحداد.(1990م). *الديوان*. ط1. بيروت : دار الكتب العلمية للنشر والتوزيع.

ابن حزم، أبو محمد علي أحمد.(1980م). *طوق الحمام في الألفة والألاف* ، تحقيق . صلاح الدين القاسمي. (د.ط). القاهرة : دار المعارف .

حسين ، محمد . (د.ت). *الهجاء والهجاءون في الجاهلية* . ط1. مصر: المطبعة النموذجية.

حمدان، نذير. (2002م). *الضوء واللون في القرآن الكريم* .ط1.بيروت: دار ابن كثير.

الحميري ، محمد عبد المنعم. (1984م). *الروض المعطار* .تحقيق: إحسان عباس .ط2. بيروت. مكتبة لبنان.

الحميري .اسماعيل بن محمد . (1987م). *البديع في وصف الربيع* ، تحقيق. عبد الله عسيلان. ط1. جدة: دار المدني.

ابن حيان القرطبي.(1977م) *المقتبس* :تحقيق. محمود مكي. (د.ط).القاهرة: المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية.

ابن حيوس.(1984م). *الديوان* . تحقيق: خليل مردم بك. (د.ط). بيروت: دار صادر .

ابن خاتمة (1978م)،*الديوان* ، تحقيق: محمد رضوان الداية. (د.ط). سوريا : منشورات دار الحكمة .

ابن الخطيب، لسان الدين.(د.ت). *الإحاطة في أخبار غرناطة* ،شرح: يوسف الطويل. (د.ط). بيروت : دار الكتب العلمية.

ابن الخطيب، لسان الدين . (1956م). *أعمال الأعلام فيمن بويع قبل الاحتلام من ملوك الإسلام*. تحقيق: ليفي بروفنسال. (د.ط). بيروت:(د.ن).

ابن خفاجة. *الديوان*.(1994م) تحقيق وشرح: عمر الطباع . ط1 ، بيروت: دار القيم للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن خلدون، عبد الرحمن. (1987م). *العبر وديوان المبتدأ والخبر* ، ط1. مصر: مطبعة بولاق.

ابن خلدون، عبد الرحمن. (1968م). *تاريخ ابن خلدون* . (د.ط). بيروت: منشورات الكتاب اللبناني.

خليفة ، عبد الكريم. (1987 م).الألوان في معجم اللغة العربية ، الأردن: *مجلة مجمع اللغة العربية الأردني* ، السنة 11 . تموز – كانون أول . عدد 33 . ص85–115.

داوود. أنس. (د ت). *الأسطورة في الشعر العربي الحديث* . ط1. القاهرة :مكتبة عين شمس .

ابن دحية الكلبي. (1954م). *المطرب من أشعار أهل المغرب*. تحقيق: إبراهيم الأبياري وحامد عبد المجيد ، أحمد بدوي . ط1.القاهرة . إدارة نشر التراث بالمطبعة الأميرية .

ابن دحية الكلبي.(1955م) *المطرب في أشعار أهل المغرب* . تحقيق: إبراهيم الأبياري ، وحامد عبد المجيد ، وأحمد بدوي . راجعه : طه حسين. (د.ط).بيروت: دار العلم للجميع .

ابن دراج.(1961م). *الديوان*. حققه وعلق عليه : محمود مكي . ط1. دمشق. منشورات المكتب الإسلامي .

دفة ، بلقاسم. (2000م).*علم السيمياء والعنوان في النص الأدبي – محاضرات المتلقي الوطني الأول* . جامعة محمد خضير – بسكرة .

الدقاق، عمر. (1978م) *ملامح الشعر الأندلسي*. ط3. حلب: منشورات جامعة حلب. .

ذو الرمة .(1995م). *الديوان* .شرح: أحمد حسن بسح. ط1. بيروت. دار الكتب العلمية.

الرازي ، عبد القادر.(1967م). *مختار الصحاح* . ط1. بيروت: دار الكتاب العربي.

الرباعي، عبد القادر.(1984م) *الصورة الفنية في النقد الشعري* ، ط11. الرياض. دار العلوم للطباعة والنشر . الرياض.

رتشاردز (2005م) *مبادئ النقد الأدبي* ، ترجمة وتعليق. محمد مصطفى بدوي. (د.ط).القاهرة: المركز القومي للترجمة.

الرصافي البلنسي . (1989م).*الديوان* .تحقيق: إحسان عباس . ط1. بيروت. دار الثقافة للنشر والتوزيع. بيروت.

الركابي، جودت(1960م) *في الأدب الأندلسي* .ط1. مصر: دار المعارف .

ابن الرومي .(1994م). *الديوان* .شرح: أحمد حسن بسج. ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن أبي زرع.(1972م). *الذخيرة السنية في تاريخ الدولة المرينية* . (د.ط). الرباط. دار المنصور للطباعة.

ابن الزقاق.(1964م). *الديوان*. تحقيق: عفيفة ديراني . (أطروحة دكتوراه غير منشورة). بيروت : الجامعة الأمريكية.

زكري، أحلام(2015م). *الصورة الحسية في شعر عيسى لحيلح* ، (رسالة ماجستيرغير منشورة). الجزائر. جامعة محمد خيضر بسكرة.

الزمخشري(1996م) . *الكشاف* . ط3. بيروت :دار الكتاب العربي.

ابن زمرك الغرناطي، محمد. (1998م) . *الديوان* . جمعه وقدم له : أحمد سليم الحمصي.ط1. بيروت: المطبعة العصرية.

الزواهرة ، ظاهر.(2008م). *اللون ودلالاته في الشعر ،الشعر الأردني أنموذجا* .ط1.عمان . دار الحامد .

الزوزني.(2003م). *شرح المعلقات السبع*. (د.ط).بيروت: المكتبة العصرية .

ابن زيدون.(1956م). *الديوان*. تحقيق. محمد سيد كيلاني . (د.ط). القاهرة: البابي الحلبي.

ابن زيدون.(1994م). *الديوان*. شرح: يوسف فرحات .ط2. بيروت :دار الكتاب العربي . بيروت .

ابن السائب الكلبي (1993م). *كتاب الأصنام* ، تحقيق. محمد عبد القادر . (د.ط).القاهرة: مكتبة النهضة المصرية.

ابن سعيد المغربي، علي بن موسى (د.ت). *المغرب في حلى المغرب*. تحقيق: شوقي ضيف . (د.ط).مصر: دار المعارف .

ابن أبي سلمى، زهير. (1993م). *الديوان*. شرح: علي حسن فاعور. (د.ط). بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن سنان: أبو محمد الخفاجي.(1982م). *سر الفصاحة*. (د.ط). بيروت. دار الكتب العلمية.

السواح . فراح. (1997م). *الأسطورة والمعنى – دراسات في الميثيولوجيا والديانات الشرقية* . ط1. دمشق دار علاء الدين .

السواح، فراس،(1998م) *مغامرة العقل الأولى* . (د.ط). دمشق: دار علاء الدين .

السواح. فراس.(1996م). *لغز عشتار – الألوهة المؤنثة وأصل الدين والأسطورة* . ط6 . دمشق: دار علاء الدين .

أبو سويلم. أنور.(1991م). *مظاهر من الحضارة والمعتقد في الشعر الجاهلي* .(د.ط).عمان: دار عمار.

ابن سيده، أبو الحسن علي بن إسماعيل.(1956م). *المخصص* . (د.ط).بولاق: المطبعة الكبرى الأميرية .

السيوطي، جلال الدين عبد الرحمن بن أبي بكر. (2003م). *المحاضرات والمحاورات* ، ط1. بيروت: دار الغرب الإسلامي. .

الشجري: (2001م). *ترتيب الأمالي الخميسية*. تحقيق : محمد حسن إسماعيل . ط1. بيروت:دار الكتب العلمية .

شعبو ، أحمد.(2006م). *في نقد الفكر الأسطوري والرمزي – أساطير وفكر وفلوكلور في الفكر الإنساني* ،ط1. المؤسسة الحديثة للكتاب . لبنان. طرابلس.

الشكعة، مصطفى. (1983م). *الأدب الأندلسي موضوعاته وفنونه* . ط5. بيروت: دار العلم للملايين.

شنوان، يونس. (1999م).*اللون في شعر ابن زيدون* . (د.ط). إربد: منشورات جامعة اليرموك .

ابن شهيد.(1900م) *الديوان* . حققه : يعقوب مكي . راجعه: محمود مكي . (د.ط).القاهرة:دار الكتاب العربي للطباعة والنشر .

الشوابكة، محمد.(1996م). *شعر يحيى بن هذيل القرطبي الأندلسي* . (د.ط). (د.ق).(د.ن)

الشواف،(1999م). *ديوان الأساطير*، قدم له: أدونيس . ط1. بيروت: دار الساقي .

الشوك ، علي، (1998م).*جولة في أقاليم اللغة والأسطورة* ، ط2. دار المدى للطباعة والنشر والتوزيع .

ابن صاحب الصلاة.(1964م) *المن بالإمامة* . تحقيق: عبد الهادي التازي . (د.ط). بيروت. دار صادر.

صالح ، بشرى.(1994م). *الصورة الفنية في النقد العربي الحديث* . ط1.بيروت. المركز الثقافي العربي.

الصائغ، وجدان. (1997م) *الصورة البيانية في شعر عمر أبو ريشة* .ط1.بيروت:مؤسسة الخليل التجارية، ودار مكتبة الحياة .

الصفار، ابتسام. (2010م). *جمالية التشكيل اللوني في القرآن الكريم* . ط1.الأردن . إربد: عالم الكتب الحديث.

صفوت، أحمد زكي. (د.ت) . *جمهرة خطب العرب في عصور العربية الزاهرة* . (د.ط). بيروت. المكتبة العلمية.

صليبا ،جميل(1982م) *المعجم الفلسفي* . (د.ط).بيروت: دار الكتاب اللبناني .

ابن الصيرفي.(1985م). *المختار من أشعار أهل الأندلس* .تحقيق : عبد الرزاق حسن . ط1. عمان :دار البشير .

ضيف، شوقي.(د.ت). *العصر العباسي الثاني* . ط2. مصر: دار المعارف.

طالو ،محيي الدين. (2000م). *اللون علما وعملا* .ط3. دمشق. دار دمشق للنشر والتوزيع.

ابن طباطبا ، محمد العلوي. (1956م). *عيار الشعر* ، تحقيق. طه الحاجري ومحمد زغلول سلام . (د.ط).القاهرة : المكتبة التجارية .

طبل ،حسن. (1998م). *المعنى الشعري في التراث العربي* . (د.ط). القاهرة. دار الفكر العربي.

الطويل، يوسف(1991م). *مدخل إلى الأدب الأندلسي* . ط1. بيروت. دار الفكر اللبناني.

ابن عاشور، الطاهر .(2000م). *التحرير والتنوير*.ط1.بيروت: مؤسسة التاريخ.

العالم ، اسماعيل.(2000م). *الصور الحركية ومجالاتها في شعر الأخطل*. الكويت: المجلة العربية للعلوم الإنسانية بجامعة الكويت. عدد 71.

ابن عباد، الصاحب. (1974م). *الديوان* .تحقيق: محمد آل ياسين. ط 2. بيروت. دار القلم .

عباس ، إحسان(1973م). *تاريخ الأدب الأندلسي – عصر سيادة قرطبة* ،ط3. بيروت: دار الثقافة .

عباس ، إحسان.(1962م) *تاريخ الأدب الأندلسي – عصر الطوائف والمرابطين* . ط1. بيروت . دار الثقافة.

عبد الجليل، عبد القادر.(2006م). *المعجم الوظيفي لمقاييس الأدوات النحوية والصرفية* ، ط1. عمان: دار الصفاء للنشر والتوزيع.

عبد الرحمن ، مروان. (2006م). *دراسة أسلوبية في سورة الكهف* . (رسالة ماجستيرغير منشورة). فلسطين. جامعة النجاح .

عبد العزيز المقالح ، *ايقاع الأزرق والأحمر في موسيقا القصيدة الجديدة* ، مجلة المعرفة ، عدد 3/2

ابن عبد ربه، احمد بن محمد .(1993م).*العقد الفريد* ،ط1. بيروت: دار الكتب العلمية.

ابن عبد ربه.(1979م) *الديوان* . تحقيق: محمد رضوان الداية . ط1. دمشق:مؤسسة الرسالة .

عبيد بن الأبرص . (1998م). *الديوان* . (د.ط).بيروت. دار صادر.

أبو عبيدة، معمر بن المثنى. (1986م) *كتاب الخيل* ، تحقيق: محمد عبد القادر أحمد .ط1. القاهرة. مكتبة النهضة المصرية.

عتيق ، عبد العزيز.(1975م). *الأدب العربي في الأندلس* . (د.ط).بيروت. دار النهضة العربية.

عتيق ، عبد العزيز .(1982م) . علم البيان . (د.ط) . لبنان: دار النهضة العربية للطباعة والنشر والتوزيع.

ابن عذاري المراكشي.(1983م). *البيان في المغرب* . تحقيق: كولان . (د.ط). ليبيا : الدار العربية للكتاب .

عصفور، جابر.(1974م). *الصورة الفنية في التراث النقدي والبلاغي* . (د.ط).القاهرة: دار الثقافة .

علي ، رمضان عبده .(2002م). *تاريخ الشرق القديم وحضارته* .ط1. القاهرة: دار نهضة الشرق للطباعة والنشر.

عمر، أحمد مختار.(1997م). *اللغة واللون* .ط2. مصر: عالم الكتب للنشر والتوزيع.

عنترة .(1995م). *الديوان* . (د.ط). بيروت: دار الكتب العلمية.

أبو عوانة.(2014م). *المسند الصحيح المخرج على صحيح مسلم* تحقيق: عباس بن صافان . ط1. السعودية: منشورات الجامعة الإسلامية .

أبو عون. أمل. (2003م). *اللون وأبعاده في الشعر الجاهلي – شعراء المعلقات نموذجا* ،(رسالة ماجستير غير منشورة) . نابلس: جامعة النجاح .

عيسى ، فوزي(1991م). *الشعر الأندلسي في عصر الموحدين* . (د.ط). الاسكندرية. دار المعرفة الجامعية.

عيسى، فوزي.(2007م). *الهجاء في الأدب الأندلسي* . ط1. الإسكندرية: دار الوفاء لدنيا الطباعة والنشر.

غربال وآخرون . (1986م). *الموسوعة العربية الميسرة* . (د.ط).لبنان : دار النهضة .

غنيم ، كمال. (2016م). *عصر الدول والإمارات الثاني – الأدب العربي المعاصر*.ط6 . فلسطين: أكاديمية الإبداع.

الفارابي ، محمد بن طرخان .(د ت) . *الثمرة المرضية* . (د.ط). (د.م) (د. ن).

ابن فارس، أبو الحسين أحمد. (د.ت). *مقاييس اللغة* . تحقيق: عبد السلام هارون . (د.ط).بيروت: دار الفكر.

الفتح بن خاقان.(1990).*قلائد العقيان* ، صححه:الطاهر بن عاشور. (د.ط). تونس: الدار التونسية للنشر .

فريحة ، أنيس.(1980م). *أوغاريت ملاحم وأساير في رأس شمرا* .ط2. بيروت: دار النهار.

فضل ، صلاح .(1992م). *علم الأسلوب مبادئه وإجراءاته* . (د.ط). القاهرة: مؤسسة مختار للنشر والتوزيع.

فياض، حسن.(2007م). *الصورة المفردة والمركبة في سورة الواقعة* ،مجلة مركز دراسات الكوفة ، عدد 6.

قاسم ، محمد أحمد ، ديب. محيي الدين . (2003م) .علوم البلاغة –البديع والبيان والمعاني– . ط1. لبنان: المؤسسة الحديثة للكتاب .

ابن قتيبة، محمد بن مسلم . (1985م).*الشعر والشعراء* . تحقيق: مفيد قميحة. (د.ط). بيروت. دار الكتب العلمية

قدح ، حسناء. (2012م). الصورة الشعرية عند المعتمد بن عباد ، *مجلة جامعة دمشق* ، مجلد 28 ، عدد 2. ص41–78.

القرطاجني .(1989م) حازم. *الديوان* . تحقيق: عثمان الكعاك. (د.ط). بيروت: دار الثقافة للنشر والتوزيع.

القيرواني، ابن رشيق.(د.ت) *العمدة في محاسن الشعر ونقده*. تحقيق: محيي الدين عبد الحميد. ط5.بيروت.دار الجيل .

الكتاني. محمد بن الحسن (1981م). *التشبيهات من أشعار أهل الأندلس*. تحقيق: إحسان عباس .ط2. بيروت .دار الشروق.

ابن كثير ، إسماعيل بن عمر بن كثير القرشي. (1988م) . *البداية والنهاية* . تحقيق: علي شيري . ط1. دار إحياء التراث العربي .

كريم ، سيد.(1975م). *الرحلات الفرعونية في الأدب المصري القديم* ، مجلة الهلال ، ع7.

الكندي ، يعقوب بن إسحاق. (د.ت) . *رسالة في حدود الأشياء ضمن رسائل الكندي الفلسفية* . (د.ط). (د.م).(د.ن).

ابن اللبانة.(2008م) *الديوان* . جمع وتحقيق: محمد السعيد . ط2. عمان: دار الراية للنشر والتوزيع .

لسان الدين بن الخطيب .(1989م) *الديوان* . تحقيق : محمد مفتاح .ط1. الدار البيضاء : دار الثقافة للنشر والتوزيع .

لسان الدين بن الخطيب.(2003م). *الإحاطة في أخبار غرناطة* ،ط1. بيروت: دار الكتب العلمية .

الماجدي ، خزعل (1998م) . *متون سومر – الكتاب الأول ،التاريخ ، البثيولوجيا ، اللاهوت ، الطقوس* – ط1. الأهلية .

الماجدي، خزعل.(1997م). *أديان ومعتقدات ما قبل التاريخ*. ط1.عمان. دار الشروق.

محمد التونسي، جكيب (2008م). *إشكاليات مقاربة النص الموازي وتعدد قراءته – عتبة العنوان نموذجا* . جامعة الأقصى . غزة: مجلة جامعة الأقصى . مؤتمر الأدب ، مج9. ع1 .

محمود ، محسن(2003م). *الصورة الشعرية في شعر يحيى بن حكم الغزال* ، مجلة Anaquel de Estudios Árabes ، عدد 14.

المرابط ، عبد الواحد. (2010م) . السيمياء العامة وسيمياء الأدب . ط1. لبنان : الدار العربية للعلوم ناشرون.

المرازقة، نجاح .(2010م).*اللون ودلالاته في القرآن الكريم* . (رسالة ماجستير غير منشورة). مؤتة . جامعة مؤتة .

المراكشي ، محيي الدين بن علي.(د.ت). *المعجب في تلخيص أخبار المغرب*. (د.ط). مصر: مطبعة السعادة .

بن مزغنة ،حفيظة.(2004م). *الصورة الفنية في شعر عز الدين ميهوبي* . (رسالة ماجستير غير منشورة). الجزائر:جامعة محمد خيضر–بسكرة .

مطر، أميرة . (د.ت). *مقدمة في علم الجمال* . (د.ط).القاهرة . دار الثقافة والتوزيع .

المعيني، عبد الحميد(2002م). *شعراء عبد القيس في العصر الجاهلي* . (د.ط).الإمارات العربية المتحدة. مؤسسة جائزة عبد العزيز سعود البابطين للإبداع الشعري.

المقري ، أحمد بن محمد.(1978م). *أزهار الرياض في أخبار القاضي عياض* . (د.ط). الرباط: صندوق إحياء التراث الإسلامي .

المقري .(1997م). *نفح الطيب* ، تحقيق: إحسان عباس . ط2. بيروت: دار صادر .

ابن منظور،جمال الدين. (1414هـ). معجم *لسان العرب* .ط3. بيروت: دار صادر.

الميداني ، عبد الرحمن بن حسن حبنكة .(1996م) .*البلاغة العربية* .ط1. دمشق : دار القلم .

نجا، أشرف. (2003م). *قصيدة المديح في الأندلس – قضاياها الموضوعية والفنية* .ط1. الإسكندرية. دار الوفاء للطباعة والنشر .

النعيمي ، أحمد إسماعيل.(1995م). *الأسطورة في الشعر العربي قبل الإسلام*. ط1. مصر :سينا للنشر.

نوفل، يوسف .(1985م). *الصورة الشعرية واستيحاء الألوان*. ط1. مصر: دار الاتحاد العربي للبلاغة.

النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب . (2002م) .*نهاية الأرب في فنون الأدب*. ط1. القاهرة : دار الكتب والوثائق القومية.

الهاشمي، أحمد(د. ت).*جواهر الأدب في أدبيات وإنشاء لغة العرب*. (د.ط). بيروت . المكتبة العصرية .

الهاشمي، أحمد:.(د.ت).*جواهر البلاغة* ، ضبط: يوسف الصميلي. (د.ط).بيروت: المكتبة العصرية .

ابن هانئ.(1980م). *الديوان* .ط1. لبنان: دار بيروت للطباعة والنشر .

هلال، محمد غنيمي.(د.ت). *النقد الأدبي الحديث* . (د.ط).القاهرة. دار نهضة مصر .

هني ،عبد القادر. (1998م). *مظاهر التجديد في الشعر الأندلسي قبل سقوط قرطبة*. (د.ط).الجزائر. دار الأمل .

ويس، صالح.(2014م) *الصورة اللونية في الشعر الأندلسي* .ط1.عمان: دار مجدلاوي.

اليشكري ، سويد بن أبي كاهل . (2007م). *الديوان* . تحقيق: شاكر العاشور.ط1. دمشق: دار الينابيع.